# الرقصة الساكنة

أدب بيروفي معاصر

رواية

مانويل سكورزا

ترجمة أحمد حسان

المحروسة

t.me/qurssan

عنوان الكتاب: الرقصة الساكنة La danza immobile
المؤلف: مانويل سكورثا Manuel Scorza
ترجمة: أحمد حسّان

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف: 002 02 28432157-

www.mahrousaeg.com
e.mail : info@mahrousaeg.com
facebook/almahrosacenter
twiter: @almahrosacenter
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٣١٨٢/ ٢٠١٨
الترقيم الدولي: 978-977-313-745-8
جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة

t.me/qurssan

رواية

# الرقصة الساكنة

مانويل سكورثا

ترجمة: أحمد حسّان

طبعة المحروسة 2018

t.me/qurssan

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سكورثا، مانويل
الرقصة الساكنة: رواية/ مانويل سكورثا، ترجمة أحمد حسان.-ط1.
- القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2018
326ص، 14.5×21.5 سم
تدمك: 978-977-313-745-8
1 - القصص الأسبانية
أ- حسان، أحمد (مترجم)
ب- العنوان
863
رقم الإيداع ٢٠١٨/٢٢١٨٢

t.me/qurssan

# المحتويات


| | |
|---|---|
| مقدمة: سكورثا: النار والرماد | 9 |
| الرقصة الساكنة | 31 |
| 1. الأضرار التي يُسبّبها الاستعمال المفرط للدببة المخملية | 33 |
| 2. نظرات نيكولاس ثِنتِناريو | 51 |
| 3. إمرأة تُقاطِعُ الحكاية | 55 |
| 4. خصائص التوپا، الخشب المثالي لصيد التماسيح | 61 |
| 5. قربَ زهور الداليا، تظهر المجهولةُ من جديد | 75 |
| 6. يظهر ديڤيد پنت، الزعيم اليانكي ومقاتل العصابات الكامپا | 85 |
| 7. المعركة التي يصرعُ فيها المهزومون المنتصرين | 91 |




t.me/qurssan

8. يقول سبينوزا أن كلّ حزنٍ هو خصمٌ من المرء ذاته 97
9. مخاطر الميلاد تحت حكم هنري الرابع 103
10. سانتياجو يُحذّر خوان أن موسكو لم تعد موسكو 113
11. ركّابٌ غير مُتوقّعين يصعدون إلى الطوف 123
12. سانتياجو يرى حيوانا لم تقع عليه عيناه قط 129
13. نيكولاس يعبر سباحةً بولفار سان چيرمان 137
14. ماري كلير تعثر على مياهٍ جوفية 143
15. نيكولاس يجد الحماية في حاشية أدميرال 149
16. سانتياجو يقول لماري كلير أن ثربانتس لم يكن مؤلف الكيخوته 157
17. ڤلاديمير إيليتش أوليانوف، الشهير بلينين، يجد نفسه مضطراً للرحيل من شقة البروفيسور جوديت 163
18. الرفيق راميرو يقول: "لا يجب أن ترعى الثورة مناضليها وحدها" 173
19. إخفاقٌ مؤقّت لطموحاتي 187
20. هنود الكامپا يصرّون على أن پنت يحاول تسقيف الغابة 195
21. ذكرياتُ اعتاد الرقيب موراليس أن يخلط بينها في شيخوخته 205
22. العشاء الاحتفالي الذي تقيمه السيدة فرنثيسكا دى ثنتناريو على شرف زوجها 215
23. الحفل الراقص الحقيقي لدوق آلينسون 219
24. فرنثيسكا بين السحالي 229



t.me/qurssan

25. النقيب باسوركو يأمر بصنع قفصين خشبيين 233
26. سانتياجو يشرعُ في الجري تحت المطر 247
27. ماري كلير تُعيدُ قراءة "البوبول فوه" للمرة الأولى 255
28. الزعيم سيبيرو يكتشفُ محارباً زائدا بين محاربيه 261
29. سانتياجو وماري كلير يتمشّيان خلال خمسين عاما في حديقة لوكسمبورج 273
30. سانتياجو يعاودُ الاختيار 281
31. تتويجُ نيكولاس الأول، آخرُ ملوك الحباحب 291
32. بدلَ ماري كلير تظهرُ ماري كلير 297
33. لكن كان يُمكنُ أيضا أنْ... 309
هوامش 313



t.me/qurssan

t.me/qurssan

## سكورثا: النار والرماد

تقدم هذه الرواية الفريدة في مداها وفي طموحها الاستثنائي فرصةً لتعريف القارىء العربي بواحدٍ من المنسيين العظام للآداب المكتوبة بالإسبانية في القرن العشرين، يُعدّ أحد أهم الشعراء والساردين البيروانيين لهذا القرن، وأحد أبرز ممثلي جيل الخمسينات في هذا البلد، جعلته موهبته الفذة يستعصي على التصنيف وجعلت تمرداتُ السكان الأصليين الهنود والديكتاتوريات العسكرية المتتالية من حياته ساحةً تصطخب فيها أحداث وصراعات بلده الدامية، قبل أن يختطفه الموت في حادث مأساوي وهو في ذروة نشاطه الإبداعي في الخامسة والخمسين من العمر.



t.me/qurssan

## حياة صاخبة
## البؤس والتحدي

ولد مانويل سكورثا تورّيس (9 سبتمبر 1928 - 27 نوفمبر 1983) في العاصمة ليما لأبوين فقيرين تعارفا بينما كان الأب يعمل ميكانيكيا والأم مساعدة ممرضة في مستشفى للأمراض العقلية. انتقل الزوجان إلى أكوريا الجبلية عام 1934 بسبب صعوبة الوضع الاقتصادي وبسبب الربو الذي يعاني منه مانويل، ليعمل الأب خبازا. نجا مانويل من الغرق في النهر في سن السابعة، قبل أن يعود الأبوان إلى ليما عام 1939 . فتح الأب كشك جرائد، لينفتح أمام مانويل باب القراءة بنهم.

يحكي سكورثا كيف كانت أمه تهرب من قسوة الواقع بقراءة الروايات. وأمام اعتراض والده على هذا التبديد للموارد الضئيلة، تعهدت بأن تقرأ كتابا واحدا في الشهر. ولما كان هذا لا يُشبع ظمأها، كانت تضع أمام ناظره غلاف مجلةٍ واحدٍ لا يتغير يمر تحته كل أسبوع طابور من حشود "الشخصيات المُبالغ فيها، المدهشة، التي لا تُنسى". ويحكي حين أصابته حمّى القراءة كيف كان يتمارض حتى تخرج أمه ليصعد إلى الصندرة ويغرق في قراءة كتب ومجلات دون أغلفة ولا يدري عن كتابها شيئا. "كانت أمي تقرأ خلف ظهر أبي وأنا أقرأ خلف ظهر أمي".

أرسله والداه للدراسة في كلية الرهبان الساليزيان بهوانكايو الجبلية القريبة من ليما بسبب أزمته الصدرية قبل أن يعيداه لإنهاء الدراسة الثانوية بمدرسة ليونثيو پرادو العسكرية. وفي مكتبتها العامرة بدأ قراءة الكتاب الروس وبلزاك وفلوبير. بعد سكورثا بسبع سنوات سيدخل ماريو بارجاس يوسا نفس المدرسة التي سيصفها في رواية"المدينة والكلاب".



t.me/qurssan

## السياسة كمسار إجباري

في تلك الأعوام، وعلى خلفية النضالات الفلاحية المستمرة لاستعادة الأراضي التي استولى عليها الإقطاعيون والاحتكارات الأمريكية، بدأت تتشكل بين الطلبة العسكريين أولى الخلايا السرية للحزب الشيوعي وللتحالف الشعبي الثوري الأمريكي (APRA) (أبرا). وهذا الأخير هو حزب قومي ذو طابع شعبي ومناهض للإمبريالية بأفق يضم كل أمريكا اللاتينية، تشكل في أواخر العشرينات وارتبط بالنضالات الفلاحية والعمالية في البيرو. وإليه انضم سكورثا قبل أن يلتحق عام 1945 بكلية الآداب بجامعة سان ماركوس وينخرط في نشاط سياسي محموم.

في هذه المرحلة الأولى من تكوين سكورثا، نشهد تشكّل وعي إبنٍ لشريحة اجتماعية واسعة من المدينيين - الجدد والريفيين - السابقين الهاربين من الإقطاع الريفي، لم ينضم إلى جمهورية الآداب إلاّ بفضل فضوله الثقافي الهائل ورغبته في المعرفة. وبذلك أصبح حالة متميزة لمثقفٍ من أصول شعبية وبروليتارية نشأ من أدنى شرائح مجتمع شديد الانقسام، لا يمكنه أن يدير ظهره لصراعاته الدامية. يقول: "خبرتي السياسية، التي حافظت عليها دوما وسأحافظ عليها حتى النهاية كهمٍّ جوهري لحياتي، تجد أصلها في مواقف الانتهاك، والبؤس التي رأيتها، أولا في أسرتي ذاتها ثم في القرى التي قُدِّر لي العيش فيها. مواقف فقرٍ مدقع، وبؤس مفرط، وعجز، وجور؛ كل هذا دفعني إلى قرار أن أفعل شيئا وأن أتصرف سياسيا".

## المنفى: عذاب ونضج

في عام التحاقه بكلية الآداب، تم انتخاب الرئيس خوسيه لويس بوستامينتي بمساند (أبرا) وسرعان ما وقع عام 1948 انقلاب عسكري أدى إلى تولي الجنرال مانويل أودريّا السلطة في حكم ديكتاتوري دام



t.me/qurssan

ثماني سنوات. تم القبض على سكورثا وسجنه وصادرت السلطات ديوانه الأول ودمرته، قبل أن تُلقي به في تجربة النفي الأولى ولم يتجاوز العشرين من عمره. جاب تشيلي، والأرجنتين، والبرازيل، حتى استقر بالمكسيك في ظروف حياة بائسة عمل فيها في كل المهن العابرة وواصل رغم ذلك دراساته الأدبية في جامعة المكسيك القومية. سنوات سبع من المرارة والقسوة لخصها بقوله أن "المنفى جرحٌ مفرط العمق والألم: المنفي يكاد يكون حكما بالإعدام". تركت تلك السنوات آثارا لا تنمحي على سكورثا الفتي، لكنه استطاع تحويلها إلى أشعار عنيفة، متألمة، ومريرة، ومتوقدة التعبير في ديوان **اللعنات** الذي نشره بالمكسيك عام 1955.

"سنواتٌ إلتهمتها العناكب.

لم أجد سلاما،

ولا موضعا أسند فيه رأسي.

كان قلبي حيوانا

يخرج من الأفران مرتجفا،

كانت تحملني القطارات، لتعبر

الظلمات وعيناي تغليان

[...]

سنواتٌ كفئرانٍ أُلقيت لتموت.

كانت الريح

تخرج ملتهبةً من حياتي.

**من قصيدة "سنوات التهمتها العناكب"**



t.me/qurssan

عامل طباعةٍ غامض

يضع كلمة حزن

في صدارة كل الصحف.

أواه، ذات يومٍ ونحن نسير أدركنا

أننا في سجنٍ تتباعد جدرانه ...

والعودة مستحيلة.

**من قصيدة "المنفي"**

سنوات نضج صعب للشاعر بين الألم والوحشة، بين الإصرار والكراهية. يتذكرها زميله الشاعر المكسيكي روبين بونيفاث نونيو بقوله: "كنا رفاقا، في البؤس وفي الكراهية. رفاقا في ذلك الشعور بأننا غارقون في مواجهة الشر، وهو شعورٌ يجعل الناس تشيخ قبل الأوان، يجرح بتجاعيد مُغبرّة جلد الروح الحزينة. [...] واقعا في مركز الظلمة المعادية، كحيوان مستوحش يبحث عن الحب، جمع فوق طرف إصبعه قواه العنيدة، وواجه البؤس الكوني الذي كان يحس أنه يهزمه".

من هذا المنظور يمكن فهم شعر الالتزام الاجتماعي الذي يعتصر القلوب، والعذاب المطلق العنان الذي يُغرق كل بيت من أبيات قصيدة **"نشيد إلى عمال مناجم بوليفيا"** (1952) التي تبرز مزاجه في تلك السنوات:

"يجب أن يحيا المرء غائبا عن ذاته،

يجب أن يشيخ في عز الطفولة،

يجب أن يبكي راكعا أمام جثمان



t.me/qurssan

كي يفهم أي ليلٍ
يسكن قلب عمال المناجم".

بهـذه القصيـدة فـاز سـكورثا بالمركـز الأول في مسـابقة "الألعـاب الزهريـة لـلآداب" التـي أقيمـت في الذكـرى المئويـة الرابعـة لجامعـة المكسـيك القوميـة 1952. وبعـد عودتـه إلى بـلاده سـيفوز ديوانـه **اللعنات** عـام 1956 بالجائـزة القوميـة للشـعر.

وإلى نفـس العـام (1952) يرجـع أول مقالاتـه السياسـية عـن برنامـج التحالـف الشـعبي الثـوري لأمريـكا (أبرا) المطالـب بإعـادة توزيـع عادلـة للثروة وبالوحـدة السياسـية والاقتصاديـة لأمريـكا الهنديـة (وهـو الإسـم الـذي وصـف بـه قائـد الحركـة أمريـكا اللاتينيـة) ويوضـح المقـال أطروحـة الحركـة القائلـة بتفـوق الفـن المحـلي الهنـدي عـن الفـن ذي الأصـول الأوروبيـة ويشـيد بحيويـة الأدب، وخصوصـا الروايـة، ويمتـدح طزاجـة وحيويـة أعـمال خوسيه إيوستاسـيو ريـبرا وثـيرو أليجريـا، المدافعـن عـن الثقافـة الهنديـة، اللذيـن يتفوقـان، في رأيـه، عـلى أعـمال هـنري ميللـر وجـان - بـول سـارتر. كذلـك كتـب سـيرة موجـزة للقـس ميجيـل إيدالجـو، قائـد أولى الانتفاضـات المكسـيكية في أوائـل القـرن التاسـع عـشر ورسـول الاسـتقلال المكسـيكي.

في هـذه الأعـوام تبلـور ارتباطـه بالـدور الاجتماعـي لـلأدب وبقضايـا العدالـة الاجتماعيـة التـي تـأتي في صدارتهـا "حقـوق الهنـدي" الـذي يمثـل أغلبيـة السـكان ولا يلقـى معاملـة آدميـة رغـم تضحياتـه المتواصلـة. وفي حـوار متأخـر (1983) يوضـح الموقـف قائـلا: "كانـت لـدي الأبرا بلاغـةٌ مُنـاصِرة للسـكان الأصليـين؛ وكان في برامـج الأحـزاب اليسـارية دائمـا مـا يُعـرف باسـم "مطالـب الهنـدي": الحـق في الملكيـة، الحـق في الاعـتراف بالشـخصيه الإنسـانية، والقانونيـة، والثقافيـة للهنـدي. لكـن في الممارسـة



t.me/qurssan

وُجـدت هـوةٌ مطلقـة. إذ توجـد الأحـزاب السياسـية في بلـد كريـولي [مهجَّـن] لا علاقـة لـه، مطلقـا، بالبلـد الواقعـي الـذي يحيـاه الهنـود. إذن، طرحـت الأبرا المشـكلة الهنديـة لكنهـا لم تتقـدم أبـدا عـن ذلـك".

ولمـا وقعـت الأبرا في فتـور الاشـتراكية الديموقراطيـة وهادنـت الديكتاتوريـة متخليـة عـن كفاحيتهـا، انفصل سـكورثا عـن المنظمـة عـام 1955 في خطـاب وجهـه إلى زعيـم الحركـة بيكتـور راؤول آيـا دي لا تـورّي - عندمـا سـمحت لـه السـلطات بالخـروج مـن السـفارة الكولومبيـة التـي ظـل حبيسـا بهـا لخمـس سـنوات وبمغـادرة البـلاد - يتهمـه فيـه بأنـه بـاع نفسـه للإمبرياليـة. وكان عنـوان الخطـاب "جـود بـاي مسـتر آيـا".

## بوپوليبروس: الناشر

وعنـد عـودة سـكورثا إلى البـيرو عـام 1956، أضيـف إلى الشـاعر والسـياسي وجـهٌ آخـر حـين تحـول إلى نـاشرٍ لطبعـات رخيصـة مـن الكتـب الكلاسـيكية تبـاع في أكشـاك الصحـف دون وسـطاء فيـما سُـمي باسـم مهرجـان الكتـاب. بمشـاركة شركاء وأصدقـاء، أسـس شركـة للنـشر باسـم "بوبوليـبروس بيروانـوس"Populibros Peruanos، وفي مهرجـان الكتـاب الأول بيـع 150 ألـف كتـاب في 15 ألـف مجموعـة نفـدت خـلال مـا لا يتجـاوز الأسـبوع. كان أول مـن نـشر في البـيرو أعـمال محـرر أمريـكا خوسـيه مـارتي ومؤسـس الحـزب الشـيوعي البـيرواني خوسـيه كارلـوس مارياتيجـي. ونجـح رهانـه بـأن النـاس لا تُعـرض عـن القـراءة بقـدر مـا تعجـز عـن دفـع الأسـعار المرتفعـة للكتـب. وشـجعه النجـاح عـلى تكـرار التجربـة، فبيـع في المهرجـان الثـاني للكتـاب 200 ألـف كتـاب وفي المهرجـان الثالـث 500 ألـف كتـاب. واسـتمر المهرجـان حدثـا دائمـا في البـيرو كـما انتقـل إلى كولومبيـا، وفنزويـلا، وكوبـا.


t.me/qurssan

## في بوتقة الصراع

لم تخل فترة من فترات التاريخ البيرواني من انتفاضات فلاحية عنيفة. وعند أواخر الخمسينات أخذت منظمات الفلاحين شكلا أقرب إلى النقابات الحديثة. ومع بداية الولاية الثانية للرئيس مانويل برادو أوجاريتشي (1956 - 1962)، بعد دكتاتورية أودريا، تعهد الرئيس بالقيام بإصلاح زراعي عميق، بينما كان سخط الفلاحين يتصاعد بحيث لا يمكن إيقافه. أخذ الفلاحون المبادرة في التنظيم الذاتي لأنفسهم، وغزوا الإقطاعيات، واستعادوا الأراضي التي يعتبرونها مُغتصَبةً منهم. وردّت حكومة أوجاريتشي بإجراءات قمعية تحت اسم عمليات الإجلاء، التي يطرد فيها الجيش الهنود ويعيد الأراضي إلى إقطاعييها.

من ليما تابع سكورثا أنباء الانتفاضات وعمليات احتلال الأراضي التي تملأ الصحف، وتنتقل إلى جبال الإنديز الوسطى، إلى أقاليم خونين وباسكو. أقام اتصالات مع فلاحي المنطقة الوسطى وانضم إلى حركة المجتمعات المحلية للبيرو التي وصل إلى أن يكون سكرتيرها السياسي الذي يحرِّر بياناتها.

"انضممت إلى خينارو ليديسما [إيثكييتا]، الذي كلفني بأعمال مختلفة: تنظيم مظاهرة ضخمة للفلاحين، ستكون أول مظاهرة مرخَصة في مدينة ثيرّو دي باسكو، أو أن أجوب القرى، مناشدا الفلاحين أن يحاربوا متحدين. لكن، ما أفعله أساسا، قبل كل شيء، في باسكو هو أن أنظر وأن أسمع، أن أحصل على معرفة إنسانية ومباشرة بشخصياتي، أن أقيم علاقة بأبطالي المستقبليين".

ينتفض فلاحو جبال الإنديز. في سلسلة الجبال الجنوبية يشكلون روابط زراعية في أعقاب أوجو بلانكو؛ وفي سلسلة جبال الوسط، الأكثر خلاسية، يواجهون شركة تعدين أمريكية شمالية، هي شركة ثيرّو دي باسكو [كوبر كوربوريشن]، مقيمين تنسيقا مدهشا بين المجتمعات



t.me/qurssan

المحليـة. وفي الحالتـين، يغـزو الفلاحـون الأراضي؛ وفي كلتيهـما، تديرهـم "نخبهـم" الخاصـة المحليـة، الخلاسـية، أو الهنديـة. الجديـد هنـا هـو التنظيـم - الـذاتي والوعـي - الـذاتي.

مـن هـذه الأحـداث سـيتبلور سـكورثا المسـبوك في جمـر الـصراع. الباحـث، المتجـه صـوب الأحـداث الاجتماعيـة وتعبيرهـا الروائي. في سلسـلة جبـال الإنديـز الوسـطى يراقـب ويشـارك؛ وفي ليـما يحـرِّر وينـشر البيانـات التـي تديـن انتهـاكات شركـة التعديـن والزعـماء الإقطاعيـين المحليـين. ومـع نهايـة أحـداث باسـكو عـام 1962 بانتصـار الفلاحـين وبقائهـم في الأرض، مما سـيعني نهايـة الإقطـاع في البـلاد، يجـوب سـكورثا القـري ملتقطـا الصـور ومسـجلا الشـهادات رغـم حالـة الحصـار التـي يخضـع لهـا الإقليـم. وفي أعقـاب مـصرع أحـد زعـماء الانتفاضـة، فيرمـين إسـبينوثا [بورخـا] والقبـض عـلى المحامـي خينـارو ليديسـما [إيثكييتـا] وسـجنه، وهـو المحامـي الـذي جمـع الفلاحـون الهنـود مصاريـف دراسـته حتـى يدافـع عنهـم، قـرر سـكورثا نـشر بعـض التحقيقـات الصحفيـة. لكـن هـذه التحقيقـات الصحفيـة تحولـت إلى سلسـلة مـن خمـس روايـات تحمـل عنوانـا شـاملا هـو **الحـرب الصامتـة**. أظهـرت **الحـرب الصامتـة** النضـال غـير المتـكافيء للفلاحـين مـن أجـل اسـتعادة أراضيهـم المغتصبـة مـن قبـل الإقطاعيـين وشركـة التعديـن المتعـددة الجنسـية ثـيرّو باسـكو كوربوريشـن. وتضـم السلسـلة الروائيـة روايـات: **قـرع الطبـول مـن أجـل رانـكاس** (1970)، **وحكايـة جارابومبـو، اللامـرئي** (1972)، **والفـارس المـؤرّق** (1977)، **ونشـيد أجابيتـو روبلـس** (1977) **ومقـبرة الـبرق** (1979).

وفي حـوار لا حـق يقـول سـكورثا معلّقـا: "بالنسـبة لي، فـإن كتبـي هـي مذكـرة اسـتئناف. حـين نخـسر في أمريـكا اللاتينيـة كل مراحـل التقـاضي - مثـلا، حـين تذبـح حكومـةٌ في معركـة إنسـانية شـعبا بـأسره -، تبقـى حينئـذ إمكانيـة كتابـة كتـاب، ويعيـد الكتـاب فتـح السـجال. كان يمكـن لتمـرد أعضـاء المجتمـع المحـلي في ثـيرّو دي باسـكو - وهـو واحـد مـن آلاف


t.me/qurssan

التمردات التي تجتاح بصورة سرّية تاريخ قارتنا - أن يبتلعه النسيان. وعند ظهور **قرع الطبول من أجل رانكاس**، يعيد فتح السجال ويجد الرئيس [خوان] بيلاسكو [ألبارادو] نفسه مضطرا لإطلاق سراح شخصية هذا الكتاب، إيكتور تشاكون، إل نيكتالوبي، الذي كان في السجن. يخرج هذا الفلاح البائس، بعد أحد عشر عاما من السجن".

كان جماعة من الكتاب البيروانيين قد شكلوا لجنة من أجل تحرير إل نيكتالوبي، وسافر سكورثا من منفاه الباريسي إلى البيرو للمطالبة بتحريره، وتم ذلك في 28 يوليو عام 1971. كذلك أعلن رئيس آخر، هو الجنرال فرنثيسكو موراليس برمودِث استمرار الإصلاح الزراعي من قرية رانكاس على وجه التحديد. "لماذا؟ لأن الأدب قام بدور بفضل الرواية. خرج تمرد رانكاس من المجهولية إلى الوضوح". كما قال سكورثا.

بالطبع كان لسلسلة **الحرب الصامتة** تأثير بارز إذ أصبحت فور صدورها واحدة من أكثر الأعمال انتشارا وشهرة للأدب البيرواني في القرن العشرين. لكن التأثير الأكبر كان لتحول الوضع السياسي الذي نشأ عام 1968، مع إصلاحات الجنرال بيلاسكو ألبارادو التي تعد من أعمق ما شهدته القارة اللاتينية. وقد اتخذت حكومته إجراءات مواتية للفلاحين استطاعت إلى حدٍ كبير تفكيك نسق السيطرة الأوليجاركية القديم، وتضمنت نزع ملكية شركة ثيرّو دي باسكو كوبر كوربوريشن وإلحاقها بملكية الدولة تحت إسم ثينترومين - بيرو. كان من أهم هذه الإجراءات إضفاء الصبغة القانونية على لغة الكيتشوا التي يتحدث بها غالبية البيروانيين، لكنها لم تستطع تطبيق هذا القرار لأن انقلاب قصرٍ أطاح بالجنرال بيلاسكو البارادو عام 1975.



t.me/qurssan

## المنفي النهائي

لكـن كان عـلى الروايـات وتأثيراتهـا أن تنتظـر خروجـه إلى المنفـي النهائي في باريـس بعـد هزيمـة النضـالات الفلاحيـة عـام 1968. ففـي ذروة فـوران هـذه النضـالات وبسـبب مشـاركته النشـطة فيهـا مـن خـلال حركـة سياسـية منـاصرة للسـكان الأصليـين، توجـب عليـه مغـادرة البـلاد مـن جديـد وفي جعبتـه مخطوطـان لديـوان شـعر هـو **فالـس الزواحـف** وروايـة هـي **قـرع الطبـول** أولي حلقـات **الحـرب الصامتـة**.. ويصـف خروجـه بقولـه:

"شـهدتُ أفظـع المشـاهد: اعتقـالات، وإعدامـات بالرصـاص، ومذابـح، وهجـمات. لم تكـن الصحافـة تنقـل شـيئا ومـن كنـا نـودّ إبلاغهـم بالوضـع كانـوا يقمعوننـا. وقـد حوكمـتُ مـع مشـاركين آخريـن، واتُهمـتُ بمهاجمـة أمـن الدولـة، بالأحـرف الكبـيرة. كنـتُ مرشـحا لخمسـة أعـوام من السـجن، وهكـذا قـررت مغـادرة البـلاد".

وفي باريـس عمـل سـكورثا محـاضرا لأدب أمريـكا اللاتينيـة في مدرسـة المعلمـين العليـا. ونـشرت في برشـلونه روايـة **قـرع الطبـول مـن أجـل رانـكاس** (1970)، في نفـس عـام ظهـور ديوانـه **فالـس الزواحـف**. وبهـذه الروايـة اكتسـب شـهرة وعـددا اسـتثنائيا مـن القـراء، تزايـد مـع نـشر حلقـات **الحـرب الصامتـة**.

وعنـد انتهـاء الحكـم العسـكري عـام 1980، جـرت انتخابـات سـاند فيهـا سـكورثا تجمـع الجبهـة العماليـة الفلاحيـة الطلابيـة الشـعبية[FO-CEP] ، وكان أحـد قادتهـا خينـارو ليديسـما الـذي صـوره سـكورثا في **مقـبرة الـبرق**.

وفي نفـس يـوم انتخـاب الرئيـس فرنانـدو بيلاونـدي تـيري ،1980، بـدأ تنظيـم الـدرب المـضيء المـاوي [الحـزب الشـيوعي للبـيرو: الـدرب المـضيء]



t.me/qurssan

عملياته بتحطيم صناديق الاقتراع في إحدى قرى أياكوتشو. وحدد هذا الحدث بداية نزاعٍ جديد امتد إلى كل مناطق البلاد.

وفي 1978، صرح بأنه قد أنهي روايته السادسة بتيمة مختلفة تماما: "إنها رواية حب تحمل عنوان **الرقصة الساكنة** وتجري في باريس". وسرعان ما اتضح أن هذه الرواية، التي تمثل قطيعة مع سابقاتها، تفتتح ثلاثية تحمل عنوان **النار والرماد**.

وقد أوضح سكورثا عنوان الثلاثية بالإشارة إلى حبكة الرقصة الساكنة: "فجأة يرى كاتب في مطعم مرور امرأة صاعقة الجمال، وبينما تتقدم هي، يعشقها هو في أحلامه ويفلح في أن تعشقه هذه المرأة الرائعة. يعاني الكاتب ويتمتع كثيرا بهذه العلاقة، وكان هذا العشق من الكثافة بحيث أنها حين تقترب منه في المطعم - لأنه هو من كانت تبحث عنه - ينتبه الكاتب إلى أن العلاقة الواقعية مع تلك المرأة لن تعود تضيف إليه شيئا. سيكون الواقع رمادا أمام نار ذلك الحب المتخيَّل".

وكان يخطط لأن تصور ثاني روايات هذه الثلاثية حكاية كريستوفر كولومبوس بالمعكوس. إذ يتوصل فلاح هندي في إحدى قري الإنديز إلى الاعتقاد بأن ما تقوله الصحف ليس كله كذبا؛ وفوق ذلك، يمكن أن تكون أوروبا موجودة وعليه اكتشافها. ووضع عنوانا للرواية هو : **الإكتشاف الحقيقي لأوروبا**.

وكان من المقرر أن تجري الحركة الثالثة من هذه المعزوفة في أياكوتشو بجبال الإنديز لنشهد عمليات الدرب المضيء.

وبين **الحرب الصامتة** و**النار والرماد**، كان يعتزم نشر مقال صرح في حواراته بأن سيحمل عنوان: **الأدب، أول أرضٍ مُحـرَّرة في أمريكا اللاتينية**. إذ أن للأدب صوته الخاص، وله نماذجه التي لم تقدمها السياسة، فليس هناك، مثلا، معادلٌ سياسي لرواية **مائة عام من**



t.me/qurssan

**العزلة**، ولا لرواية **باراديسو**، ولا **لبدرو بارامو**، ولا لكتب إرنستو ساباتو ولا بورجس.

بدا أن **الرقصة الساكنة** (فبراير 1983) ترسم قطيعة جذرية مع روايات **الحرب الصامتة** في منظورها وفي أجوائها، وبدا أن سكورثا قد دخل في فورة عارمة من الإبداع ستخرجه من أدب الشهادة الذي يسجنه فيه النقاد إلى الفضاء الرحيب للأدب الإنساني. لكن كان للقدر رأي آخر. ففي طريقه لحضور الملتقى الثقافي الهيسبانو - أمريكي في بوجوتا الذي نظمته أكاديمية اللغة الكولومبية، وقبل أن تهبط طائرة الخطوط الجوية الكولومبية في مدريد قادمة من باريس، تحطمت، في 28 نوفمبر، ليلقى حتفه على الفور ضمن 56 راكبا و25 من طاقم الطائرة. ولقي حتفه معه الروائية الأرجنتينية مارتا ترابا، وزوجها الناقد الأوروجوايي آنخل راما، والروائي المكسيكي خورخي إيبارجوينجويتيا، وعازفة البيانو القطالونية روزا ساباتر. ومن المفارقات العجيبة أن يصادف تاريخ وفاته نفس يوم وفاة مواطنه الكاتب العظيم خوسيه ماريا أرجيداس المدافع عن ثقافة السكان الهنود، بطلقتين اطلقهما على صدره في مكتبه عام 1969.

## حصاد الرحلة

ترك مانويل سكورثا خمسة دواوين بخلاف أشعاره المنشورة في مجموعات شعرية مع آخرين ومجموعة أشعاره غير الكاملة: **اللعنات** (1955)؛ **والوداعات** (1960)؛ **خيبات أمل المجوسي** (1961)؛ **قداس جنائزي لجنتلمان** (1962)؛ **فالس الزواحف** (1970). وخمس روايات في سلسلة الحرب الصامتة: **قرع الطبول من أجل رانكاس** (1970)؛ **جارابومبو، اللامرئي** (1972)؛ **الفارس المؤرّق** (1976)؛ **نشيد أجابيتو روبليس** (1976)؛ **مقبرة البرق** (1978)؛بالإضافة إلى روايته الأخيرة



t.me/qurssan

الرقصة الساكنة (1983). كما ترك مجموعة ضخمة من المقالات والحوارات.

## أدب، أدب شهادة، أدب سكان أصليين؟

تسبب الانتشار الواسع لسلسلة الحرب الصامتة في شيوع أفكار تبسيطية تنظر إليها باعتبارها كتبا سياسية تنتمي إلى أدب السكان الأصليينindigenista أو طبعة جديدة من أدب السكان الأصليين. وبذلك تصنّف سكورثا مع ثيرو أليجريا وخوسيه ماريا أرجيداس، كممثلين لأدب الشهادة الملتزم اجتماعيا.

وبينما يعتبر سكورثا أرجيداس أعظم روائي بيرواني، يطالب بحذف نسبة هذا الأدب إلى السكان الأصليين لأن ذلك ينطوي على اختزال واحتقار يكشف عن عنصرية أدبية. يشدد على وجود قدر كبير من سوءالفهم بشأن الروايات التي تُكتب عن عالم الهنود. فخلال زمن طويل وُجد سوء فهم البيض الذين يكتبون روايات عن الهنود ، من الخارج، دون أن يعرفوهم. مثلما وجد أدب الرحلات الأوروبي عن إفريقيا، أو آسيا، دون معرفة بسكانها. وبالمقابل وجدت، منذ الفتح وحتى العصر الحديث، شهادات فنية بالغة الندرة تُكتب عن الهنود من داخل المجتمع الهندي ذاته. وفي هذه الحالة الأخيرة يعتبر أن أرجيداس يأتي في المقام الأول، وأنه الثاني. يعتبر، مثلا، أن التيمة العميقة لكتب أرجيداس هي الكائن الإنساني بشكل جوهري، والبحث عن الأب، وأنها في مرتبة كتب دوستويفسكي. ويصرّ على أن رواياته هو تشكل واقعا حُلميا وأسطوريا يجد خاتمته واستيقاظه في مقبرة البرق. "مقبرة البرق هي كتاب ملحمي بأعمق معاني الكلمة، أنضج كتبي، وربما أفضلها. فيه بلغت الشخصيات حد الوصول إلى ما



t.me/qurssan

هـو ملحمـي، لكـن انطلاقـا مـن الروايـة الغنائيـة والحلميـة؛ وكل شيء في خدمـة التراجيديـا؛ فـما يرتسـم فيـه هـي تراجيديـا عـلى أسـس كلاسـيكية".

"مـا هـي السـمة الأساسـية **لمقـبرة الـبرق**؟ تكتشـف الشـخصيات انهـا شـخصياتٌ منسـوجة، تكتشـف أنهـا شـخصيات كانـت قـد وجـدت، لا في الواقـع، ولا حتـى في كتـاب، بـل في نسـيج منـذ البدايـة، وعـبر كل الكتـب، بواسـطة هـذه النسّـاجة؛ بحيـث أن **قـرع الطبـول مـن أجـل رانـكاس، والفـارس المـؤرِّق، وجارابومبـو، اللامـرئي، ونشـيد أجابيتـو روبلِـس** ... كانـت كتبـا تخيلتهـا ونسـجتها العميـاء. وهـذه حقيقـة تتيـح **لمقـبرة الـبرق** أن تُغيِّر قـراءة الكتـب الأربعـة الأسـبق. ولـذا فإنـك حـين تقـرأ **مقـبرة الـبرق** تـرى الكتـب السـابقة كأوهـامٍ عـن أوهـام، كمرايـا مرئيـة مـن خـلال مـرآة أخـرى؛ لأن العميـاء هـي القـدر، اليـد التـي كانـت تقـود البـشر عـبر كل الحكايـات".... "هـذه الروايـات هـي رحـلات في اللاوعـي، في مـا هـو حلمـي؛ ولا علاقـة لهـا بالواقـع وبالمنطـق".

" أنـا رجـل مندمـج في المخيلـة الجماعيـة لأمريـكا اللاتينيـة". .... "أتدري كيـف يبـدو لي روائي مثـلي، أو مثـل أرجيـداس؟ إننـا مثـل رجـال كنـا نحلـم ذات ليلـة انقضـت منـذ مائـة عـام، مائتـي أو ثلاثمائة عـام، ولفورنـا ايقظونـا وشرعنـا في الـكلام. هـذا الخطـاب الهذيـاني بالكامـل والمبالـغ فيـه بالكامـل هـو رواياتنـا. عـلى الأقـل بضـع صفحـات مـن رواياتي".

مـا علاقـة هـذه الروايـات الحلميـة والأسـطورية إذن بالواقعيـة السـحرية، خصوصـا وقـد ظهـرت **مائـة عـام مـن العزلـة** عـام 1967، فيـما انتهـى سـكورثا مـن كتابـة **قـرع الطبـول** بعـد ذلـك بحـوالي العـام. ردا عـلى سـؤال بهـذا الخصـوص يقـول : " بالنسـبة لي لا وجـود لمـا هـو سـحري، يوجـد مـا هـو حلمـي. وحـين أكتـب كتبـا لا أطـرح عـلى نفسي خلـق سـحر - فهـذه كلمـةٌ خطـرة -، بـل أحـاول أن أحلـم بالتاريـخ، أن أراه، أن أغطـس بحثـا عـن الأعـماق الحلميـة الكـبرى". ويدلـل عـلى ذلـك بـأن كل الأماكـن التـي توجـد فيهـا هـذه الروايـات الشـديدة الفانتازيـة هـي أماكـن



t.me/qurssan

واقعيـة. ربمـا يكـون قـد غـير الجغرافيـا التخيليـة لتلـك الأماكـن، لكنهـا موجـودة فعـلا؛ بـل وموصوفـة بدقـة. ولـو خطـر ذات يـوم لسـينمائي أن يذهـب بكامـيرا في يـده، لوجـد كل الأماكـن، لأنـه حافـظ عليهـا دومـا. "بمعنـى أننـي، فـوق اللاواقـع الـكلي، قـد وضعـت الواقـع المطلـق". والواقـع ليـس واقعـا وحيـدا، بـل إنـه أيضـا، وقبـل كل شيء، كل الاختلاقـات الموجـودة فيـه، التـي تجـوس فيـه، وتتضاعـف وتتناقـض.

كذلـك يـصرّ عـلى أن كتبـه تمتـلىء بالمفارقـة والدعابـة بشـكل دائـم، ملقيـا اللـوم عـلى كسـل النقـاد الذيـن أسـاؤا تقديمهـا، لأنهـا كتـب مسـلية جـدا.

لكـن ربمـا كان أهـم ملمـح يميـز هـذه الكتـب عـن أدب الشـهادة هـو تجديدهـا الشـكلي واسـتفادتها مـن كل إنجـازات الروايـة الجديـدة. ويـضرب مثـالا عـلى ذلـك تجديـد اللغـة الأدبيـة التـي تخطـت القواعـد الأساسـية للغـة. بحيـث أن عنـف النـص قـد بلـغ حـد تحريـف الكلـمات وغيّر اللهـب ترتيبهـا. ثمـة كلـمات خـارج معناهـا في اللغـة الإسـبانية، وثمـة كلـمات مُخترعـة، وكلـمات مركبـة مـن عـدد مـن الكلـمات الأخـرى، في جمـل ذات تركيـب مختلـف، تجمـع بـين ضمائـر وأزمنـة مختلفـة. تحـت ضغـط لغـة الكتشـوا التـي يتحدثهـا أبطالـه تتغـير بنيـة اللغـة الإسـبانية لتخلـق صيغـةً متفجِّـرة مـن وجهـة نظـر اللغـة.

ويـبرز هـذا غلبـة الرؤيـة الشـعرية الأساسـية في كتاباتـه كلهـا. "أعتبر أن الشـعر هـو العنـصر الأسـاسي بشـكل مطلـق في الروايـة وأن روايـات العـالم العظيمـة كانـت دومـا شـعرية". "الروايـة بالنسـبة لي متحـدة بالشـعر؛ هـي شـعر مـن الناحيـة الجوهريـة".

يرفـض تسـمية أدب الشـجب لأنهـا كلمـة باليـة، ويسـتبدلها بالطـرح الدرامـي لموقـف تراجيـدي. طـرح يجـب أن يتسـم فيـه الكاتـب بالتواضـع تجـاه الواقـع ذاتـه. لأن الواقـع سـيصحح النظريـة.



t.me/qurssan

يثـق كثـيرا في إخفـاق السياسـات؛ لأن السياسـات تخفـق باسـتمرار وتخلـق مواقـف جديـدة تمامـا.

الأمـر الأهـم بالنسـبة لـه أنـه زوّد مضطهَـدي البـيرو بذاكـرة، هنـود البـيرو الذيـن كانـوا أناسـا لامرئيـين في التاريـخ، كانـوا شـخوصا مجهولـة في حـربٍ صامتـة. والآن يملكـون ذاكـرة لا يمكـن محوهـا.

ظـل سـكورثا مؤمنـا مـن البدايـة إلى النهايـة بأنه شـاعر مـن الناحية الأساسـية، شـاعر يكتـب الروايـات. هـذا الشـاعر الـذي مـارس عليـه ثيسـار باييخـو تأثـيرا حاسـما، تحـول مـن الشـعر إلى السـرد، فيـما يـرى الناقـد أوجوسـتو تامايـو بارجـاس، وعـلى كتفـه ترسـانة أدبيـة، حامـلا ميـزة القـدرة عـلى أن يغـرس في نـثره هـذه المـادة الشـعرية البالغـة الثراء التـي لا غنـى عنهـا لتطـور مجـال روائي فسـيح. وظلـت مخيلتـه سـوريالية عـلى نحـو عميـق، وعنيفـة، وممزقـة، تُذكّرنـا بالاستكشـافات الحلميـة لبريتـون. وحتـى في ذروة نشـاطه السـياسي، ظـل الخيـال يتخلـل الذكريـات، ويتشـبع الحـاضر بحـزن عنيـف، وتمتـلئ الأشـعار بألـوان حيـة، وتبـدو الطبيعـة عجائبيـة.

## الرقصة الأخيرة

وتمـضي **الرقصـة السـاكنة** إلى مـدى أبعـد مـن الطمـوح حاملـةً كل تجديداتـه السـابقة. وتفـترض قراءتهـا مغامـرةً مذهلـة يجـري فيهـا دفـع المـوارد السرديـة إلى حـدودٍ غـير متوقعـة. إذ تكشـف الحـدود الغائمـة بـين النضـال الاجتماعـي الإقليمـي، والتنظيـم السـياسي الـدولي، والتسـويق الثقـافي العابـر للقوميـات، لتظهـر العلاقـة المتبادلـة بـين هـذه المجـالات الثلاثـة. كـما تقـدم تأمـلا ذاتيـا انعكاسـيا في خـبرات الكاتـب وتماهياتـه الثقافيـة السـابقة. وفي نفـس الوقـت تطـرح نفسـها كروايـة ميتـا - سرديـة توضّـح ظـروف إنتاجهـا وتتفحـص الإنتـاج الأدبي نقديـا مثلـما تصـدّت



t.me/qurssan

رواياته الأسبق للبنيات السياسية والاقتصادية. يتفحص سكورثا النشاط السياسي اليساري، والكتابة الإقليمية، والتسويق الأدبي الدولي مع وضعه ككاتب ضمن المشروعات الثقافية والسياسية. ويجد تقييمه أن كل هذه السيرورات تترابط فيما بينها بطريقة لا فكاك منها.

تستخدم الرواية باريس كخشبة مسرح معقدة لتفاعل الخصومات السياسية، والشبقية، والجمالية، والنصية. وتتضمن الحبكة قصة إنتاجها ذاته، في ميتا - سردية تنتقد بصورة تهكمية الانتاج العابر للقوميات لقدر كبير من السرد الأمريكي اللاتيني منذ انطلاق ظاهرة "الرواج"- Boom للروايات التي جرى تسويقها تحت تصنيف الواقعية السحرية. يبيّن مأزق كاتب العالم الثالث المرتبط بقضايا بلده ضد هيمنة المراكز الاستعمارية بينما يعتمد في النشر وخلق جمهور دولي على نفس هذه المراكز. وفيما يكشف دور باريس (وأوروبا) في شبكة تجارية من مراكز النشر تستحوذ على الإبداع الأدبي والفني الأمريكي اللاتيني، ينزع الهالة التي تتوج باريس في مخيلة الكتاب اللاتين، بمقاهيها، ومؤسساتها الثقافية، ونسائها الجميلات، بمكتبتها الوطنية، وموسيقاها الكلاسيكية، وماركات خمورها، ومطبخها الفرنسي، وعمارتها.

تكمن مفارقة، وبراعة، **الرقصة الساكنة** في محافظتها بمهارة على مسافة نقدية من الإغواء التي تمارسه الفخاخ الرومانسية الطابع لباريس على الشخصيات وعلى القارىء، وكشفها في الوقت ذاته للآليات المنافقة التي تحرك الصورة الذهنية لباريس كمثل أعلى جمالي في المخيلة الثقافية للأمريكيين اللاتين (وغيرهم من مثقفي العالم الثالث). فإلى جانب المعالم السياحية التي تلهب خيال العالم الثالث، من اللوفر، والسين، وحديقة النباتات، إلخ، تبدو عاصمة النور وكرا لجماعات سياسية متطرفة ومركزا لتهريب السلاح والأموال، وتزييف جوازات السفر. وفي هذا الجانب، يتناص سكورثا مع **كتاب مانويل** لكورتاثار، حيث ينظم أمريكيون لاتين اختطافا في المقاهي



t.me/qurssan

العماليـة في الأحيـاء الطرفيـة لباريـس، في سـخرية مـن الأحيـاء التقليديـة والبوهيميـة للمدينـة.

ورغـم أن أحـلام الكاتـب وخيالاتـه تلعـب دورا هاما في تخريـب محاولة التسـويق الرأسـمالي لروايتـة، فـإن نـشر سـكورثا لروايتـه في برشـلونه، مـن خـلال نفـس آليات التسـويق الثقـافي، يشـهد عـلى تسـليمه بواقـع سـلطة باريـس (وأوروبـا) عـلى التلاعـب والتأثـير في عنـاصر حاسـمة في تشـكيل المعيـار الأدبي.

وكجـزء مــن إضفــاء الإشـكالية عــلى سـيطرة باريــس والعواصـم الأوروبيـة عـلى الانتـاج الثقـافي الأمريـكي اللاتينـي، يضـع سـكورثا كنغمـة مضـادة مشـاهد الغابـة الأمازونيـة لتطلـق تركيبـة مـن العلامـات والمعـاني التـي تتفاعـل معهـا عـلى مسـتويات تاريخيـة واقعيـة وكذلـك أسـطورية: "مسـتوى تاريخـي واقعـي، أقـرُه دومـا مـن ذهبـوا إلى المـكان، بشـخصيات واقعيـة حيـة؛ وهنـاك أيضـا مسـتوى أسـطوري، فانتـازي، يتطلـب رغـم ذلـك توضيحـا: فأنـا لا أسـتخدم الأسـطورة كمهـرب مـن الواقـع، بـل كتوضيـح للواقـع".

في هـذه المشـاهد الأمازونيـة يقيـم سـكورثا محـاكاة سـاخرة لروايـات المغامـرات والغـرب الأمريـكي التـي تفـرض الطابـع الغرائبـي عـلى هـذه الأرجـاء المجهولـة وتعـد القـارىء بمتعـة مـن عـوالم أخـرى تنسـيه عالمـه. فيقـدم مشـاهد عجائبيـة حقـاً لكنهـا تقـوم عـلى حقائـق واقعيـة صلبـة يمكـن التحقـق فعليـا مـن كل تفاصيلهـا، تربطهـا تداعيـات الشـخصيات بحياتهـا في باريـس. ويمـزج النـص بـين الرغبـة والألم، والجـوع والعطـش، والعـذاب والمتعـة الجسـديين في كل مـن المشـاهد الأمازونيـة والباريسـية ليعـبر الحـدود المتوقعـة بـين العالمـين.

وفي التقابـل بـين العالمـين، تقـوم الأسـماء بـدور محـوري في فـك شـفرة العلاقـات المعقـدة فيـما بينهـما، كأنهـا بطاقـات تصنيـف اسـتهلاكية


t.me/qurssan

تعلن عن اندماج المدينة بالجسد، وتربط النزعة الكوزموبوليتانية البورجوازية بالنزعة الاستهلاكية الجنسية. ففرنثيسكا شخصية تمثل مجازا مرسلا لفرنسا وللنظرة الأمريكية اللاتينية لباريس، وتعد تجسيدا أنثويا للموتيفات الجنسية الباريسية، وكوليت، وماري كلير اسمان يستحضران أيقونات ثقافية (الكاتبة كوليت، ومجلة ماري كلير النسائية) ترتبط بباريس كسلع تعرضها المدينة للبيع. ولا ندري إن كانت النزعة الذكورية التي تتبدى تجاه النساء في بعض مشاهد الرواية دليلا على تحيّز أو جلافة ثورية الستينات ضد المرأة - بجعلها موضوعا للرغبة أو رمزا جماليا، لا كائنا حيا على قدم المساواة - أم رد فعل تجاه النزعة الاستهلاكية الجنسية.

لكن المدينة لا تقدم أبدا ما تفترض الشخصيات أنها تعد به، وبذلك تجرّد الرواية باريس من قيمتها الرمزية. ويؤكد سكورثا أنه يعمل باتجاه تفكيك الرواية البورجوازية، الحضرية، حتى يقاوم الحدود القاسية للمدينة وسيطرتها المهيمنة على الانتاج الثقافي: "أعتقد أن الرواية الحضرية تعني موت الرواية، لأن الحاضرة في الرواية الحضرية ستركز نفسها فيما بعد في قواعد تبلغ من الصرامة حد ألاّ تترك مجالا لشيء.

يدمج سكورثا الأسطورة، والأحلام، والفانتازيات الخيالية في خطابه الحضري ليجعل شخصياته ترقص على كثرة من المستويات الأنطولوجية. وتقيم الرواية باستمرار صدامات تغزو فيها المقولات المتعارضة مجالات بعضها البعض. وبدلا من الحفاظ على المسافة بين السياسة وبين الشعر، بين الثورة وبين الحب، بين العالمي وبين المحلي، يطرح سكورثا للتساؤل، ويحطم، القواعد التي تحدد تقليديا كيف يجب إدراج الرغبة السياسية والشبقية. ويلخص الناقد أوجو نيرا الأمر بقوله أن "سكورثا يتموقع بين سيناريوهين ثقافيين، الأوروبي والأمريكي اللاتيني، الأول يعمم والثاني يلهم، لينتهي به الأمر باحتلال



t.me/qurssan

فضاءٍ على الحدود بين كليهما، حدٍ مشتركٍ ثقافي، شكلٍ بآخذ من الهامشية".

تستحضر ميتا - سردية **الرقصة الساكنة** (التشظي والمقابسة [الباستيش]، الرواية داخل الرواية، تعدد الرواة و"المؤلفين") جماليات الكولاج في **كتاب مانويل** لكورتاثار. وتوحي الحكايات المتوازية التي يشظّيها ويبعثرها سكورثا بكتاب (أو كتب) في سبيلها إلى التكوين. وتحافظ البنية على الالتباس بشأن أي قصة أو كتاب (إن لم تكن جميعها سويا) تطرح نفسها باعتبارها المخطوطة "القصصية" التي تحمل عنوان **الرقصة الساكنة**، وذلك عن طريق إرجاء وعدم الثقة في كل خيوط الحبكة. بينما كان عمل سكورثا الأسبق يجرّب مع الأصوات السردية والميتا - سردية، فإن هذه الرواية الأخيرة تمثل مراجعة أشد جذريةً للممارسة الروائية. تقترح الرواية شكلا أدبيا بديلا، ثوريا، يُظهر الخيوط التي تنسجه وبذلك يُطلعنا على عملية نشوئه وتشكُّله كمنتج ثقافي.

وإذا كانت نظرتنا اللاحقة تستكشف السمات التجريبية المبتكرة في الرقصة الساكنة، فليست الرواية منصة تجريب باردة، بل تأتي كل كلمة فيها، كما سيتأكد القارىء، مغمورة بفيض من العاطفة يجعلها تصل إلى قلوبنا مباشرة. وتكفي الإشارة إلى خطاب سكورثا إلى وكيله الأدبي في إسبانيا بمناسبة ظهور الرواية لنتبين توجهه إزاء كتابته: "تعلم جيدا أنه ما من كتاب يولد من الذكاء بل من القلب، إذا كان ثمة وجود للذكاء وللقلب. ولسنا سوى كلمات كتبها إصبعُ أحدٍ على جدارٍ لامرئي".



t.me/qurssan

## المراجع:

يمكـن الرجـوع، عـلى الشـبكة العنكبوتيـة، إلى الحـوار غـير المنشـور الـذي أجـراه مـع سـكورثا خوسـيه خوليـو بـرلادو عـام 1979:

José Julio Perlado: Manuel Scorza "Sobre la irrealidad total, he puesto la realidad absoluta". Entrevista inédita (1979)

وكذلك إلى مقالي دارس سكورثا، خوان جونثالث سوتو:

Juan Gonzalez Soto: La memoria de los olvidos: Manuel Scorza. & Manuel Scorza, apuntes para una biografia, in biblioteca virtual universal.

وإلى دراسة الباحثة مارسي شوارتز:

Marcy Schwartz: Paris Meets the Jungle in Manuel Scorza"s La danza inmóvil. Prepared for Delivery at the 1997 Meeting of the Latin American Studies Association, Continental Plaza Hotel, Guadalajara, Mexico, April 17-19, 1997.



t.me/qurssan

# الرقصة الساكنة



t.me/qurssan

t.me/qurssan

## 1. الأضرار التي يُسبّبها الاستعمال المفرط للدببة المخملية

- البقرة المقدسة سيحضر الغداء. سيذهب مع صاحب العمل - أسرّت لي كوليت وهي ترتدي ملابسها. عشية اللقاء، وللتحقق من نوايا صاحب "مطبوعات الكون"، كنت قد دعوت سكرتيرته لتناول الطعام. افترضت أن كثرة الأطباق المتميزة المطهية على البخار التي التهمتها في لو بايي دى ليتيرنيل سوريز[1] ستعود عليّ بتقريرٍ ما، لكن كوليت لم تنبس بكلمة. عندها اقترحتُ لو جران ريڤ[2] لكن نظرات همفري بوجارت للورين باكال جعلتها رومانسية ولم يكن بوسعي سوى قضاء الليل في شقتها بشارع مسيو لو برانس.

- قطعة سكر أم قطعتان، يا مليكي؟ - أرادت كوليت أن ترشوني، باحثة عن ذرائع لعدم ارتداء ملابسها.

إن وجود البقرة المقدسة، مدير التحرير الجديد لمجموعة "العالم الجديد"، بكونه خطرا في ذاته، خطرا مملاً، لا يمكن أن يعني سوى



t.me/qurssan

أننـي، أنـا النجـم المسـتقبلي المحتمـل "لمطبوعـات الكـون"، سـأموت دون نـشر:

- يا حبّي، ألم تسمعني؟، قطعة أم قطعتان؟

البقـرة المقدسـة يكرهنـي. ففـي أصعـب لحظـات شـبابه سـاعدته دون تحفـظ. بأشـد الخدمـات صبيانيـة: أن أنتـزع مـن يـده مسـدس سـميث ويسـون 38 الـذي كان يجـب بـه لا أن أمنـع رحيلـه، بـل أشـجّعه. كيـف أنقـذُ الموقـف؟ هـل أتنـازل لـه عـن خدمـات كوليـت؟ مسـتحيل. فكوليـت تكـره البقـرة المقدسـة أقـل مـما يكرهنـي البقـرة المقدسـة لكـن بمـا يكفـي لأن تمـضي مـردّدةً أن "البقـرة المقدسـة يبلـغ مـن القبـح والخبـث أنهـم يـوم مولـده اضطـرّوا لتأجـير أمٍ لـه لأن أمـه لم تكـن تريـده". مـا العمـل؟ هـل أعـرض عـلى النـاشر روايتـي عـن اكتشـاف أوروبـا؟ هـل أحـكي لـه حبكـة قصتـي عـن الكونتيسـة؟ هـل أقـترح حكايـة مقاتـل العصابـات الـذي يعيـد تذكـر وجـوده وهـو مقيّـد إلى شـجرة التنجارانـا بينـما يلتهمـه النمـل حيّـاً؟ هـل أخـترع شـيئا بشـأن پنـت؟ أم أغلـق عينـيّ وأفتـح عينَـيِ الخِـزي متضرّعـا إلى البقـرة المقدسـة أن يكتـب لي تصديـرا؟

- قطعـة، أم قطعتـان، يـا حبـي؟ - أصرّت كوليـت، مُظهِـرةً لي نهديهـا بحجـة تقديـم القهـوة لي.

- ثلاثة.

لم تبـق لي سـوى ثلاثـة احتـمالات وكلهـا تكئبنـي. مـا العمـل؟ جلـتُ ببـصري عـلى الاحتفـال الزائف الذي كان يحتـدم في لا كوپول *La Coupole*. في وسـط المطعـم، حـول الكثـير مـن أغصـان الجلاديـولا البرتقاليـة، يظهـر جرسـونات تراقبهـم النظـرة العصبيـة لجـان پيـير، رئيـس ميـترات لا كوبـول. كانـت الأمسـية تنـذر بـأن تكـون أسـوأ مـن الظهـيرة. فخـلال الغـداء كان جـان پيـير قـد واجـه في آن واحـدٍ تقريبـا قوتـين، بعـد أن سـئمتا المعـارك في المحيـط الباسـيفيكي، تحالفتـا في باريـس للإطاحـة بحيـاد لا كوبـول.



t.me/qurssan

كالعـادة، وصـل الأمريكيـون الشـماليون في أعقـاب بـيرل هاربـور. تـم إنـزال مائـة يابـاني واثنـين مـن حافـلات وكالـة السـياحة، تقدمـوا ووضعـوا، في نفـس الوقـت، مائـة واثنتـي قـدم يـسرى عـلى رصيـف بولفـار مونبارنـاس. إضطـر الإنـزال اليابـاني إلى الانكـماش إلى طابـور مكـون مـن مائـة واثنـي سـائح دخلـوا بالخطـوة السريعـة واحتلـوا مائـة واثنـي موقـع، وضعـوا مائة واثنتـي آلـة تصويـر فوتوغـرافي وهاجمـوا مغتبطـين مائـة واثنتـي قائمـة طعـام. سـار كل شيء عـلى مايـرام حتـى الحلـوى. ولتأكيـد وضعـه غـير القتـالي أمـر جـان پيـير بطلـب خـاص يخضـع لعلَـم محايـد أيضـا: أومليـت نورفيجيـين[3]، وهـو تضـادٌ لذيـذ بـين الكعكـة الاسـفنجية والجيـلاتي المصفـح بالميرينـج السـاخن، يُعـدُّ الحلـوى الأكـثر مغـالاة مـن إعـداد مسـيو بـورج. وكخبـيرِ تـوازنٍ موهـوب، ظهـر جرسـون يحمـل، بمفـرده، الصينيـة وبهـا مـا يقـارب المتريـن مـن الأومليـت نورفيجيـين، يُتوِّجُـه علـمٌ صغـير تلتمـع فيـه الشـمس السـاطعة. أعشـت مائـة واثنتـا كامـيرا مشـحونة بالكهربـاء بفلاشـاتها الحلـوى التـي، مـن ناحيـة، كانـت تقـول، بكريمـة أشـد دُكنَـةً، بيانفنـو آ پاري[4]، ومـن الناحيـة الأخـرى، باليابانيـة، لاكوبـول. وحـين سـئموا مـن تصويـر الناحيـة الباريسـة، في حـماس الاكتشـاف، ونظـرا للاسـتحالة اللحظيـة للانتقـال إلى أرضٍ يابانيـة، أدارت اثنتـان وعـشرون يـداً الحلـوى الضخمـة، بقـوة دفـعٍ جعلتهـا تنفجـر. أُمطِـرت الموائـد المجـاورة وشـاغلوها المسـالمون بقذائـف مـن شـظايا الكعكـة الاسـفنجية أو الجيـلاتي. قـال جـان پيـير لنفسـه "إنهـم يدفعـون لي لأحتفـظ بـبرود أعصـابي"، مُسـتهلاً القهقهـة التـي، لحسـن الحـظ، حوّلـت الدهشـة، والخـوف، والإهانـة، إلى بهجـة. وكالعـادة، لم يـدُم السـلام. فعـلى مقربـة مـن الأرض التـي جـلا عنهـا اليابانيـون تـم إنـزال الأمريكيـين الشـماليين. وحتـى لايتـم التعرُّف عليهـم، دخـل الحـراس الشخصيـون الإثنـي عـشر لنائـب الرئيـس الأسـبق للولايـات المتحـدة ، مسـتر والـتر مونديـل، كلهـم في ثيـاب رماديـة، وكلهـم بـارزو العضـلات، وكلهـم بشـعر حليـق تمامـا، وكلهـم فارعـو الطـول، وكلهـم



t.me/qurssan

مرتـدون ثيـاب پيـير كاردان الغاليـة الثمـن، وكلهـم يمضغـون اللبـان. وحريصـين عـلى ألاّ يلاحظهـم أحـد، اسـتقرّوا بشـكل إسـتراتيجي عـلى ست موائدٍ تحيـط بتلـك المخصصـة لآل مونديـل. وخـلال سـبعة وسـتين دقيقـة، وهـم يهتاجـون أو يهـدأون حسـب تعليـمات الإثنـى عـشر جهـاز ووكي ـ تـوكي الضئيلـة المغروسـة في آذانهـم، احتـسى اليانـكي أكوابـا وأكوابـا مـن الكوكاكـولا. وأخـيرا، متظاهريـن بأنهـم ليسـوا آل مونديـل، دخـل آل مونديـل. اسـتقر نائـب الرئيـس الأسـبق، وزوجتـه، وابنتـه، وطلبـوا ثلاثـة ميلـون پينـو روزيـه، وثلاثـة كـوت دي بـوف آ لاَوس جريـيـه، عـلاوة عـلى پوم مينيونيـت التهموهـا، لا مـع رشـفات مـن چيفـري شـامبرتان "كلـو دو پريـيـور"[5]، بـل مـع وقفـات مرطبـة مـن الكوكاكـولا، شرارة الحيـاة. لكـن الـشرارة التـي تطايـرت كانـت شرارة أخـرى. فعـلى مائـدة مجاورة، وبسـبب التراقـص المفـرط عنـد تجهيـز فطائـر الكريـب فلامبيـه التـي طلبتهـا زوجـة المخـرج الدرامـي الشـهير رادو جريجوريسـكو، أخطـأ روبـير التقديـر عنـد إيقـاد الجـران مارنييـه: فلسـعت الـشرارة فـراء مـدام جريجوريسـكو. أخمـد روبـير اللهـب بفوطـة يائسـة لكنـه لم يسـتطع منـع أن يظـل في الفـراء الـذي لا يُقـدّر بثمـن ثقـب بحجـم فرنـك.

- Je suis vraiment navré, madame[6] - غمغـم الميـتر -؛ مـن فضلـك، لا تقلقـي. لا كوبـول لديهـا تأمـين يغطـي هـذه المخاطـر...

- *Mon petit*[7] - قاطعتـه المجاملـة الصارمـة لمـدام جريجوريسـكو -، مـن يجـب ألاّ يقلـق هـو أنـت، فنحـن أغنيـاء...

قبـل قليـل مـن *Poire Belle Hélène*[8]، نهـض نائـب الرئيـس السـابق. وفي لحظـة واحـدة طوّقـه سـتة مـن الإثنـى عـشر؛ وهكـذا محاطـا بجـدار، اصطحبـوه إلى دورة الميـاه. وهنـاك واجـه جـان پيـير مـا هـو أسـوأ مـن الحـراس الشـخصيين الأقويـاء الذيـن كانـوا يحمـون في نصـف دائـرةٍ التبـوّلَ الامبراطـورى المتقطّـع: واجـه النظـرة المسـعورة لـرادو جريجوريسـكو،



t.me/qurssan

المؤلف المشهور عالميا لكتاب "المجرّة داخل زجاجة". خرج جان پيير مندفعا إلى البار وعاد بكأس الويسكي دوبل الذي يجب أن يجده جريجوريسكو في كل مرة يأتي فيها لئلا يتبول. ففي حضور مدام جريجوريسكو، لم يكن زوجها الفائز بجائزة نوبل يشرب سوى المياه المعدنية. امتناع مثالي عن الشراب، لا يمكن تخيله دون كئوس الويسكي دوبل المتكررة التي يهرع عاملو لا كوبول لتقديمها كلما زارت بروستاتا الأستاذ المنافقة دورة المياه. ابتلع رادو جريجوريسكو كأس الشيفاز الدوبل بعينين مغمضتين وعاد إلى قاعة الطعام في نفس الوقت الذي عادت فيه مدموازيل چانيت، معاونة السنترال التليفوني، المكلفة بأن تمرّر بين الموائد السبورة الصغيرة، المكتوب عليها بالطباشير، أسماء الزبائن المطلوبين في الكبائن التليفونية. منتهزا فرصة الهدنة، قرر جان پيير أن يمتع نفسه بسيجارة. لم يتمتع بها. فمن قاعة الطعام أتت طرقعة قهقهات. خرج، ياله من يوم!، وعن طريق الإشارات اليائسة لروبير اكتشف سبب المرح، اسم الزبون المكتوب بسذاجة على السبورة الصغيرة، الذي تنادي به بسذاجة مدموازيل چانيت: مسيو فالوس[9]، تليفون ...! مسيو فالوس، تليفون ...!

ما العمل؟،تساءلتُ. جُلتُ ببصري على صخب المطعم. في المنتصف، حول الحوض الذي بلا ماء منذ الليلة التي حاول فيها كيسلينج وهو في قمة السكر الاستحمام (وتطلب الأمر صرامة مدام فرو لإجبار الرسام الشهير على ارتداء قميصه من جديد)، يتدافع سائحون تائهون جاءوا مع زوجاتهم لإبداء اللطف لجامعي تحف فنية فنزويليين بدينين، ورسامون مليحون مجهولون جاءوا بشخوصهم لتقديم أنفسهم لزوجات جامعي التحف الفنزويليين الذين لا يفكرون في شراء أي شيء البتّة، رجال أعمال بين أنواع الجبن والفواكه يكسبون أو يخسرون الملايين. كان فانسان، وآندريه، وجيلبير، الميترات[10] المخضرمون يقودون إلى الموائد فنانين مشهورين، ومديرين مهمين، وموديلات



t.me/qurssan

رشيقات، وفتيات يحلمن بأن يصرن كذلك، وشابات كن كذلك رغم إرادتهن. ما العمل؟ عبَرت السمنةُ الغارقة في العرق للبقرة المقدسة البابَ الزجاجي، وتقدّم محيياً المخلوقات الأدبية بإيماءات متكلفة أو مبتسما برقة للسيدات: وهاتان طريقتان من طرقه الأثيرة لجعل نفسه مكروها. البائس! رأيته من جديد طالبا في كلية آداب المكسيك، في الزمن الذي كان يوحِّدنا فيه الجوعُ، والرغبةُ في المجد، واليقينُ الطفولي بأن الكلمة تمثل خلاص كل شيء، الصداقة الثمينة للخاملين. لأننا كنا خاملَين ولا أحد يحبنا. وللحظة، جالساتٍ على موائد لا كوبول، مغتصباتٍ رشاقة الموديلات، جاعلينهن أفضل، بدا لي أنني أرى فتيات ذلك الزمن، في مقهى الكلية، كنَّ يستخففن بنا: أمپارو العصية البلوغ، وإستيلا الملائكية، ولولا سالثيدو الشبيهة بمنحوتةٍ والتي كان البقرةُ المقدسة يحبها بجسارة بالغة. كنا جميعا نحسدهن كلهن، عبثا. الاستثناء الوحيد، لوقت قصير، ولأسباب لن أبلغ حد فهمها، كنت أنا. فإما لأنها تكره أباها، أو لمجرد أنها تكره الجنس البشري، قررت ماريا كريستينا، ابنة عم لولا، قضاء ليلة معي. وبينما تخلع ثيابها حذرتني:"لو قلت كلمة واحدة عن هذا، رغم أن أحدا لن يصدقك أبدا، فلن أكلمك أبدا". وفي اليوم التالي، كما هو منطقي، صدّقتني الكليةُ برمتها. كما لم تف ماريا كريستينا بوعدها: بسبب الوحدة. وحتى بواب الكلية كف عن تحيتها. كان سوء حظها هو السلّمة الأولى لشهرتي كدون چوان. فبين عشيةٍ وضحاها، ودون طلبٍ مني، تحوّلتُ إلى الخبير العاطفي والملّاح الأكبر لأولئك الذين، حسب قول البقرة المقدسة، يُبحرون في "البحار العاصفة للامبالاة الأنثوية". أخضع مجدي حدودَ كلية الآداب، وتسيّد مدرجات الحقوق، ولمس كلياتٍ أخرى. فجأة رأيتني محاصرا بالأصدقاء والأعداء الراغبين في نصيحتي. وبالنسبة لدعوات الغداء والعشاء، على وجه الخصوص، لم أبخل أبدا بتعاوني النزيه. امتنع البقرة المقدسة عن تحيتي، لكن



t.me/qurssan

صمتـه الحسـود لم يـدم طويـلا. فقـد أجبرتـه كوارثـه، الانسـحابُ الـروسي الـذي كانـه حبـه للـولا سـالثيدو، عـلى إذلال نفسـه.

- هـل يمكننـي دعوتـك عـلى القهـوة - قـال لي ذات مسـاء، باذّعـاء يُخفـي وحشـته.

- ماذا بك، يا فليثيانو؟ - هذا مجاني؛ لا تخف، صارحني، يا أخي.

- اليـوم صادفـتُ لـولا وحـدث شيء أوقعنـي في حـيرة - اعـترَفَ -. كنـت آتيـا عـبر الشـارع. رأتنـي لـولا وتوقّفَـت لتنتظـرني. تخيّـل: توقفـت لتنتظـرني! هـل تنتبـه لهذا؟طفـر قلبـي. وأسرعـت. قالـت لي لـولا: "فليثيانو، منـذ أسـابيع وأنـا أود الحديـث معـك". كنـت أرتجـف كأننـي مصـاب بحمىّ الملاريـا. "فليثيانـو، بـودّي أن أطلـب منـك خدمـةً ضخمـة، جميـلاً لـن يكلّفـك شـيئا، وهـو هـذا: بـكل الإعـزاز الـذي أشـعرُ بـه تجـاه النـاس مـن أمثالـك، أطالبـك بـدءاً مـن هـذه اللحظـة ألاّ تُعـاود الاقـتراب منـي، ألاّ تُعـاود تحيتـي، ألاّ تُعـاود مكالمتـي تليفونيـا، ألاّ تُعـاود العبـور في طريقـي. أخـرج مـن أي مـكان أدخـل أنـا إليـه أو أدخـل إلى أي مـكان، لكـن في وقت لاحـق. بـدءاً مـن هـذه اللحظـة أنـا غـير موجـودةٍ بالنسـبة لـك".

تعذّب البقرة المقدسة:

- أخـي، أنـت يـا أفضـل مـن يعـرف النسـاء اشرح لي، مـاذا أرادت أن تقـول لي بذلـك؟

- فليثيانـو، الأمـر الجوهـري في الحـرب هـو معرفـة نوايـا العـدو. وقبـل أن أبـدي رأيـا، يجـب أن أتـزود بمعلومـات موثقـة. كيـف وبأيـة طريقـة قالتـه لـك؟ بأيـة إيمـاءات؟ في هـذه النزاعـات تهـم طبقـة الصـوت، الابتسـامة، أتفـه تفصيلـة...

- طلبت مني ذلك بنعومة؛ كانت تبتسم، بدت وكأنها تستعطِفني.

- آههه...؟ كانت منفعلة إذن، أليس كذلك؟



t.me/qurssan

- ابتسامتها حيّرتني.

- وحين قالت أنها لا تريد رؤيتك أبدا، هل كانت تبتسم أيضا؟

ارتعشت رقبةُ البقرة المقدسة، التي تبدأ عنده حيث تنتهي الأذنان وتنتهي حيث يبدأ الكتفان، ذلك المخروط من اللحم الذي يشمل لُغدَه كأنها فردة فخذ.

- كانت تبتسم كأنها إحدى عذراوات رافاييل، هكذا، تماما، أقسم لك، يا أخي ...

- كانت تبتسم؟

- نعم.

- هممم ... وحين قالت "أنا لم أعد موجودةً بالنسبة لك"، هل تغيّر صوتها ...؟

- كانت تبتسم أيضا. كانت تحدثني بإعزاز، كأن صوتها الخافت سيضيع ...

- منطقي! كلُّ شيء أوضح من الماء! لولا تفكر في العكس تماما. أمرٌ نمطيٌّ بالنسبة للنساء العاشقات! لكن اعذرني الآن، يا فليثيانو، ففي انتظاري استشارة أخرى...

- أخي - رجاني البقرة المقدسة -، رتّب أنت، في أي مطعم ومتى نلتقي؟

إتفقنا على اليوم التالي في مطعم لا ميديا لونا[1]. وفي ختام ثلاث وجبات غداء ووجبتي عشاء، استطعنا أن نتبين حلاً. في الاستشارة الأولى، ورغم كون ذهني غائماً قليلا بسبب الافراط في فواكه البحر، جعلتُ البقرة المقدسة يفهم أن لولا، مثل كل لولا في العالم، كانت تكذب. وفي الاستشارة الثانية فهم البقرة المقدسة أن لولا، بقولها



t.me/qurssan

أنها لم تعد تريد رؤيته، تتضرع إليه، في الحقيقة، أن تنغمس في رؤيته على الدوام. وفي الاستشارة الثالثة، ملتهمين الجمبري و البوربون huachinangos في مطعم لاس بروخاس[12]، فحصنا بتمحيص كيف سيُشبِع البقرة المقدسة توق لولا اللاواعي: أن تكون بجواره، دوما.

- يجب العثور - قلت له - على الصيغة المضبوطة التي تتيح لك أن تكون حاضرا وغائبا، التي تشبع في نفس الوقت رغباتها الظاهرة في عدم الالتقاء بك وتوقها الأصيل لرؤيتك.

بحثنا ذلك خلال الافطار المُطوَّل الذي قدمه لي البقرة المقدسة في سامبورنز: عصير استوائي، وبيض على الطريقة الريفية مع حبات الفاصوليا، وشرائح الديك الرومي، والدجاج بالصلصة الحارة، وخبز مقرمش، وأجبان واكساكا، ولبن بعسل كارلوتا من كويرناباكا، تلك الأشياء. ومدفوعا بمعاناته، ناشدني البقرة المقدسة أن نواصل الاستشارة تلك الظهيرة ذاتها[في نفس منتصف النهار ذاك] في مطعم لاس ديليثياس، لكنني كنت مرتبطا ساعة الغداء مع زبون آخر.

- وفي الليل، ياأخي؟

- أيضا، يا فليثيانو.

- وغدا...؟ ما رأيك في نوبة أكل في ليز امباسادير؟

- مستحيل!

لم أكن أتظاهر. فلن أكرر مصير البلدان ذات المنتَج الواحد: لن تأتي مواردي المعِديّة من مصدر وحيد، خطأ لا يغتفر أدي بأوطاننا الأمريكية اللاتينية المسكينة إلى حالة التبعية التي يجد البقرة المقدسة نفسه فيها. أعطيته موعدا في الأسبوع التالي، وكي نعيد الإمساك بالخيوط اللاواعية للحبكة التي نناقشها، رتبتُ أن أقابله في لا ميديا لونا. وهناك كشفت له:


t.me/qurssan

- هدية...! الحل هو هدية!

ومرة أخرى، في ليز امباسادير:

- لكن، أيّ هدية؟

والمرة التالية، في إل رينكون يوكاتيكو:

- زهـور، مطلقـا! سـتجرح شـعور لـولا! إرسـال زهـور هـو أول فكـرة تخطـر لأي مديـر.

وبعدها بأيام في لو رنديفو:

- بومبـون، ولا هـذا، يـا فليثيانـو. البومبـون، بسـبب ارتباطـه بالحـلاوة، يُفقـد الهديـة ذاك العنـف الـذي تتوقـع كل امـرأة أن تجـده في الذّكـر، ذلـك الدافـع الـذي تتـوق لـولا للعثـور عليـه عنـدك ...

وأخـيرا، في ختـام أمسـية كانـت قـد بـدأت، لتصادفهـا مـع عيـد ميلادي، بهديـةٍ عبـارة عـن مقلمـة وولاعـة ذهبيـة، وبعـد أن غـادر كل أصدقـائي، فـرادى أو أزواجـا، الحفـل المشـهود الـذي أغدقـه علـيّ البقـرة المقدسـة في شوتشـيميلكو، وحيديـن في قـارب، نجـوب القنـوات، وقـد ودعنـا عـازفي الجيتـار الذيـن كانـوا يمنعوننـي مـن نصـح البقـرة المقدسـة خـلال الـ پوس كافيـه[1]، قـرب الأصيـل، واصلـتُ:

- دبـدوبٌ مخمـلي! هـذه هـي الهديـة الوحيـدة المناسـبة والممكنـة. لماذا؟ الإجابـة مضمـرة. أيـن سـتضع لـولا دبدوبـك المخمـلي؟ في الصالـة؟ عـلى الاطـلاق! في غرفـة الطعـام؟ ولا في الخيـال! في المكتبـة؟ أي لعنـة سـيفعل الدبـدوب الصغـير الـذي تفعصـه دائـرة المعـارف البريطانيـة؟ في المطبـخ، بـين القـدور؟ لا يمكـن...! أيـن، إذن؟ دبدوبـك، يـا أخـي، سـينتهي بـه الأمـر، مثـل كل دباديـب العـالم المخمليـة، في فراشـها. تخيّـل! لـولا تخلع ثيابهـا في عزلتهـا الحميمـة، التـي تفـترض أنهـا غـير قابلـة للانتهـاك، والـدب الصغـير ناظـرٌ إليهـا! لـولا تربّـت نهديهـا، تدهـن نفسـها بالكريمـات، عاريـةً



t.me/qurssan

قبل وبعد الحمام، والدب ناظرٌ إليها! لولا تتقلب في الفراش، دافعة البطاطين ، تاركة الملاءات تسقط على الأرض، مستيقظة، والدب ناظر إليها! ومَن، مِن تلك اللحظة و إلى الأبد، سيكون الشاهد البريء على لحظات عريها؟ الدب...! ومن خلال الدب، من...؟ أنت...! لأن عيونه الزجاجية الشقية ستكون لك، ستكون لك ...

- أخي الحبيب ...!

- شيء آخر، يا فليثيانو. الدب، رغم كونه صغيرا ولطيفا، هو الرمز الكلاسيكي للقوة، للحيوية، للعنفوان... هل تتذكر الضراعة، سأقول أنا الرقة، التي تنظر بها الفتاة إلى كينج كونج للمرة الأخيرة...؟ مختبئةً في السذاجة الظاهرة لنظرة الدب، هكذا، مثل سيفٍ قضيبي، ستخترق نظرتك لولا في كل لحظة... إنها لك، يا فليثيانو!

غمغم البقرة المقدسة أنه من أجل تغطية نفقات خطوبته للولا وحفل الخطوبة الحتمي (تخيلتُ بأسى سترته الرسمية التي لا تُعقل وهي تتأرجح بجانب ذلك الجدول الشفاف الذي هو ابنة عمي العابرة)، كان قد طلب قرضاً ضخما من جده لإمه، أسقف كوسكو. وقد وافق الراعي المبجل بشرط أن يجري الزفاف في أبرشيته. مدعوما، إذن، بصدقات رعية الأبرشية الكوسكية، اشترى البقرة المقدسة الدبدوب. في اليوم التالي، أودع رسول من سيرز روباك *Sears Roebuck* في المسكن الفخم للولا سالثيدو الصندوق المحتوي على الهدية. لم تُبدِ لولا أية علامات حياة. واتباعا لنصائحي، لم يوجه لها البقرة المقدسة الكلام. "لفتح مسارٍ أمام الرغبة الحقيقية للمرأة، يجب التظاهرُ بقبول رغبتها الزائفةً".

- ألا تعتقد - قال لي ونحن نتعشى -، ألا تعتقد أن صمت لولا هو علامة سيئة؟



t.me/qurssan

- على العكس! - حمّستهُ وأنا أتذوق أعماق حساء الكابوريا المُلطَّف - منذ متى تسقط قلعةٌ من الغارة الأولى؟ يجب مواصلة الهجوم. لكننا هذه المرة سنفاجئها بشيء لا تتخيله هي ذاتها: دبدوبٌ مخملي آخر، نعم، لكنه أكبر. هكذا ستُظهِر أن حبك، أبعدَ من أن يتضاءل إزاءَ صدودِها المُتكلِّف، يتزايد ويتحول إلى شيء أقوى باضطراد.

خلال الأسابيع التالية بعثنا دباديب تزداد بدانةً باستمرار. وكان من الصعب العثور على السابع. لم يكن دبدوبا، بل دبا. "ابحثوا عن التالي في فرعنا بالقطب الشمالي"، ودّعنا، غاضبا، مدير مبيعات سيرز. لم نحتج للذهاب بعيدا إلى هذا الحد. ففي منزل خبير تحنيط حيوانات وجدنا الهدية المناسبة: وحش مُحنَّط يفوق حجمي ويكاد يصل إلى كتف البقرة المقدسة.

- ألايكون لدى سيادتك دبٌ أكبر؟ - سألتُ.

- أتعتقد أننا سنحتاج إليه؟ - انزعج البقرة المقدسة.

- دبٌ أكبر من هذا، مستحيل - قال محنِّط الحيوانات -؛ لكن لو كنتم تبحثون عن دببة، سأعطيكم معلومة: فقد تم للتوّ افتتاح متجر ألعاب متخصص في الدببة المخملية، في المربع 11 من طريق إنسورخنتس... يمكنكم الذهاب من طرفي.

أعطانا بطاقته. ولم نصل إلى حد إظهارها. فعند باب لا كاسا دى لوس أوسوس[15]، عاني البقرة المقدسة من نوبة دوار. بالفعل كان هناك دببة ... لكنها دببتنا! فقد باع نيكولاسيتو، الأخ الأصغر للولا، لمحل اللعب ذاك، بثمن بخس وبطريقة شريرة، الدببة التي تحتقرها لولا.

من التدفق العاطفي المصطنع والرضى الخبيث لابتسامته، فهمت أن البقرة المقدسة يتذكر أفضل منّي سوء تفاهم الدباديب، وأنه، أيا كان الكتاب الذي أقترحه على الناشر، فإنه، حتى قبل أن أسلمه -



t.me/qurssan

وقبل حتى كتابته - قد أصبح ميتا ومدفونا في رأي المدير الجديد لمجموعة "العالم الجديد".

لم يهدأ اللغط الأنيق لـ لا كوبول. كانت جرسونات ترتدين السواد بمئزر أبيض تقدمن السجائر والسيجار. وكانت أخريات، يبدو عليهن التعب، تمررن صينيات رائعة من الفطائر، وبروقٍ من الكريمة، وتورتات مكسّرات، وتفاح، وأناناس، وكاراميل فواكه. لم تكن إدارة لا كوبول قد تخيلت بعد وجود العربة الصغيرة ذات العجلات، الاكتشاف المذهل الذي ينتظر العام التالي. كان الجرسونات يأتون ويمضون سريعا. كان ثلاثةُ حاصلين على جائزة نوبل، إثنان في الطب، وواحد في الفيزياء، ينهون غداءهم دون أن يلحظهم أحد، كما لم يتعرف أحد على چاك مونوه[15]. دخل أزواج ريفيون. دخل اسكندنافيون يحنون إلى الهارينج بالتيك[16] بالزبدة. ومن البار خرجت إيساورا بيرون، وسالومون ريزنيك، وآنا تاكيني، ومانويل سكورثا. رآهم البقرة المقدسة، وباعتقاده الخاطيء أن الاقتراب من الأذكياء يجعل المرء ذكيا، حياهم بلطف محاولا التأخر. كان يعلم جيدا أنني أنتظره. تظاهر بأنه لا يعرف. أظهر لي أنه يستطيع فعل ذلك، وأنه يفعله. وعندئذ، عند الباب حيث يعدون الاستاكوزا الشهيرة لـ لا كوبول، ظهر الناشر، ووزع مصافحات قصيرة النظر على الجرسونات الذين أفسحوا له طريقا، متوقعين سخاءه المعتاد ساعة دفع البقشيش؛ رَمَش باحثا بين الأضواء. ومثل تلك الدمى الزنبركية، لكن مضيفا إليها الخنوع، نهض البقرة المقدسة، واصطحبه حتى مائدتي. نهضتُ. ولا أدري حتى الآن لماذا حييت البقرة المقدسة أولا وليس الناشر الذي أجابني بذلك الشرود المهذب الذي يتبّط به الناشرون أو يحاولون تثبيط عزيمة أكثر من يهمُّونهم من المؤلفين. سيجري لعب المباراة منذ البداية، إن لم أكن، قبل البدء فيها، قد خسرتها فعلا في المكسيك. إذ يمكن للكاتب أن يستشرف مستقبله، من الطلبات التي يأمر بها ناشره الميتر. فرقيّ


t.me/qurssan

الأطبـاق أو النوعيـة المنخفضـة للأنبـذة، وحتـي الطريقـة التـي يطلبهـا بهـا النـاشر، تسـتبق حكـم لجنـة القـراءة. مـن عبـارات مبتذلـة محمّلـة بالمعـاني، وقبـل النقـد بكثير، يتعـرف الميترات عـلى الشـهرة المسـتقبلية أو المجهوليـة التي لامنـاص منهـا. فلـو طلـب النـاشر، دون استشـارة الضيـف، شـمبانيا، أو أمـر، دون السـؤال عـن رأي المؤلـف المفـترض أن يكـون بـدوره مفوّهـا في تلـك الفنـون، فـوا جـرا دى كانـار أو كافيـار سـيفروجا، يتبـين للميـتر عـلى الفـور أنـه، عاجـلا أو آجـلا، سيشـاهد ذلـك المجهـول في "أپوسـتروف"، البرنامـج التلفزيـوني التكريـسي لبرنـار پيفـوه. لكـن لـو سـأل النـاشر بصـوت متجاهـل "مـا الجيـد الـذي لديـك اليـوم، يـا روبـير؟"، لامتـدح الميـتر بحـماس طبـق اليـوم. إذ يعـرف أنـه لـن يـرى المحكـوم عليـه ثانيـة أبـدا!

- ماذا سيأكل السادة؟ - سأل روبير.

- قنفذ بحر وسمك موسى مشويين - أمر الناشر.

- سأقلدك، يا سيدي - ابتسم البقرة المقدسة.

ومجيباً بهزة رأسٍ على تحيةٍ ما، أوصي الناشر:

- فواكه البحر هنا ممتازة في العادة.

نظر إليّ روبير.

- *Truffe sous la cendre*[17]، للبدء، ثم سأرى.

- الـ تروف تستغرق خمسا وعشرين دقيقة...

- لا يهم - أجبت.

كنـت أعـرف جيـدا أننـي حتـى لـو اقترحـت "الـدون كيخوتـه"، أو "مـدام بوفـاري"، أو "المحاكمـة"، أو "مائـة عـام مـن العزلـة"، فسـوف يدينننـي البقـرة المقدسـة دون نقـض أو إبـرام. ومـا دمـت سـأخسر نـاشرا، فعـلى الأقـل لـن أخـسر الغـداء.



t.me/qurssan

- وللشراب؟- سأل الـ سوميلير.[18]

- سان سير - قال الناشر.

- ماء ڤيتيل - أمر البقرة المقدسة. برغم كيلوجرامات وزنه المائة واثنى عشر ما زال يحتفظ، فيما أفترض، بالأمل في إنقاص وزنه. ما العمل؟ هل أقترح عليهما سيرة الأدميرال أم حكاية مقاتل العصابات؟ أي موضوع يجري في المكسيك، في الغابة، في الثورة، في المجرات؟ حيثما شاء الناشر، شرط تلقي مقدّم الأتعاب!

إتكأ الناشر على ظهر المقعد المخملي العقيقي اللون، وقال لي، كأنه يسأل عن أحد أقربائي:

- والـپيرو؟، هل هي على ما يرام؟

ودون انتظار إجابة:

- تلقيت رسالتك، وحوّلتها إلى المدير الجديد والمحترم لمجموعتنا الأمريكية اللاتينية، الحاضر هنا. وأنت تعرف دون شك أن سلفه، جان ملفيل، اضطر للاستقاله؛ فقد أوفِد سفيرا لا أدري إن كان إلى بلدك، أم إلى جواتيمالا، أم البرازيل. هذه خسارة لأنه يعرف أدبكم بصورة تثير الإعجاب. لكن بفضل الـكي دورسيه[19] لدينا الآن متبحّر بارز وكفء مثل الدكتور فليثيانو دياث - وأشار إلى البقرة المقدسة -. ربما تعرفان بعضكما.

- لم أتمتع بهذا الشرف - زام البقرة المقدسة. ثم انتفخ -. لقد كرست حياتي كلها للكتب، ويشرفني الآن أن أكرّسها لدار نشرنا...

خُيِّل لي أن نظرته ازدحمت بعازفي جيتارٍ جوّالين، بزوارق تكتظ بموسيقيين ملتهبين يعزفون "آديليتا مضت مع آخر". ودون أن ينظر إليّ، أخذ يعِظ:



t.me/qurssan

- يحيا قراء الأدب الأمريكي اللاتيني في مستنقعات الضلال. وحتى المبدعين، أمثال جارثيا ماركيز، وكاربنتييه، وبورخس، وبارجاس يوسا، وساباتو، ورولفو، وسبوتا، وغيرهم من قاطني لامانشا تلك الذين أفضل عدم تذكر أسمائهم، يعتقدون أنهم يعرضون أمريكا اللاتينية العميقة. وهم في الحقيقة لا يعبّرون عن البنية الدفينة، التي تتنازعها وصماتٌ تعيسة دوما. المبدعون دائمًا غير واعين. فلم يعرف ثربانتس أنه مؤلف الكيخوته...

إتجه تفكيري صوب السطور الختامية الشهيرة التي يعلن فيها دون ميجيل دى ثربانتس: "بالنسبة لي وُلد دون كيخوته وحده، وأنا بالنسبة له؛ عرف هو كيف يعمل، وأنا كيف أكتب؛ نحن الاثنان وحدنا كأننا واحد". لكنني تمالكت نفسي.

- وحتى نفس مواطنك أرجيداس - أكد البقرة المقدسة موجها كلامه إليّ - كان أيضا يجهل أن الواقع الحقيقي لرواياته ليس دراما مجتمع السكان الأصليين الجريح بل البحث عن والده. ومن يعرضون الإمكان الجوهري في مجتمع مُعطى في الفضاء - الزمن المنطقي أو الميتامنطقي (وهنا يجب الإحالة إلى فصول معينة عند هوسّرل)، ليسوا أبدا المبدعين المفترضين بل السيميوطيقيون، لأن البحث عن بنيات منطقية - مفهومية ليس في متناول الكتاب بل الذين يمارسون هذا التخصص، المسمى بالنقد. الإبداع الحقيقي، إذن، يجد جذوره في النقد...

- ما دمنا هنا - قاطع الناشر -، لماذا لا تحدثنا عن كتابك...؟

صمت البقرة المقدسة.

- أنا أكتب حكاية مقاتل عصابات يحتضر مقيدا إلى إحدى أشجار الغابة الأمازونية، يطلق عليها اسم تنجارانا...

- *tangarana vulgaris* - كذب البقرة المقدسة بصفاقة.



t.me/qurssan

- وبينما تموت هذه الشخصية، تعيد تذكّر حياتها وبالتحديد هروبها. لأنها هربت من السجن لتقتل واشيا وتنقذ بذلك رفاقها الذين على وشك أن يُسلّموا إلى الشرطة. يهبط عبر الأنهار...

- "والتهمتهم الغابة"- قاطعني البقرة المقدسة مستشهدا بحقد بالخاتمة الشهيرة لرواية "الدوامة"، التي يحاول بها "الروائيون الحضريون" أن يدفنوا بشكل نهائي الروايات الأخرى في أمريكا اللاتينية.

- ليس بالضبط - دافعت عن نفسي -. في كتابي ثمة شخصيات تقص الحكاية انطلاقا من باريس. الرواية هي تضاد بين مقاتل عصابات وبين مقاتل عصابات سابق. من منظور آخر، هي نزاع بين رجلين يجب أن يختارا بين الحب وبين الثورة. أحدهما يختار الثورة. والآخر، الحب. وعند نهاية حياتهما يعتقد كلاهما أن الآخر قد اختار أفضل. وبواسطة لعبة مرايا يحسد كل منهما الآخر على حياته.

- يخفق الأمريكيون اللاتين حين يكتبون عن باريس، - أصدر البقرة المقدسة حكمه -. ليس نفس الشيء أن تصف طفولة جرت في المدار الاستوائي، أو شبابا في ميناء زنوج، حياةً في الهذيان الأمريكي الجنوبي، ليس ذلك مماثلا لوصف مدينة بلزاك، أو زولا، أو بروست. أو، في حالتك، ببساطة، مدينة سيلين الطيب. رغم أنه أمرٌ لا يُنكَرُ ذلك الظُّرف الذي يقص به أكثركم موهبةً صدماتهم الطفولية...

- في الطريق إلى نضال مقاتلي حرب عصابات، تقع أحدى الشخصيتين بطريقة يائسة في حب امرأة. ثمة، إذن، أبطالٌ يحيون الحكاية انطلاقا من باريس. وباريس هي المكان الذي يجب فيه على الشخصيتين الاختيار بين الحب وبين الثورة.

نظر الناشر خلسة إلى ساعة لا كوبول.

- أكتب كذلك قصة عن كونتيسة فرنسية عجوز.

تدخّل البقرة المقدسة:



t.me/qurssan

- حكاية عن طبقة النبلاء الفرنسية مكتوبة بقلم أمريكي جنوبي دون ألقاب... لم لا؟

- ورواية أخرى - أصررت -، إن كان من المؤكد أنها لاتجرى في باريس، فإنها تشير إلى أوروبا أكثر مما لو كانت تدور فيها. الشخصية المحورية هي عبقري، مجنون يطلق على نفسه ذات يوم لقب الأدميرال و...

- هممم - أعرب البقرة المقدسة.

رأيت أنه قد أنهى زجاجة الڤيتل وتحسّرت بإخلاص على أن إهمال روبير لم يقدم له زجاجة من نفس الماركة التي أجبروا سقراط على تجرعها.

- لكن ربما كان من الأفضل أن تروي لنا حكاية مقاتل العصابات - اقترح الناشر.



t.me/qurssan

## 2. نظرات نيكولاس ثِنتِناريو

القومنـدان نيكـولاس ثِنتِناريـو، مقاتـل العصابـات نيكـولاس ثنتناريـو، ينظـر إلى نظـرة الرائـد باسـوركو، لم يعـد رائـدا، النقيـب باسـوركو لا أكثر، يـا حثالـة، بسـببك فقـدت الترقيـة، ينظـر إلى نظـرة النقيـب باسـوركو، أغصـان النباتـات المتسـلقة وهـي تمـرّغ كبرياءهـا عنـد بدايـة أشـجار اللوپونـا البيضـاء، أشـد الأشـجار طـولا في الغابـة، عائلـة مـن طيـور الجواكامايـو[20] مُتوقِّفـة في الريـح انتظـاراً لـشيءٍ مـا، النقيـب باسـوركو يهـين ببذاءتـه الظهـيرة، يرفـع القومنـدان ثنتناريـو عينيـه لا يريـد رؤيـة الأشـجار، بـل يفضّـل وجـوهَ الجنـود الذيـن يحيطـون بـه عـلى طـول المِدقّ المحفـوف بالجـذوع الرماديـة لأشـجار الهـواكاپو، لكنـه لم يعـد يسـتطيع تجنبهـا. هنالـك تقـف شـجرة التنجارانـا المغضّـنـة!، شـجرة متوسـطة الطـول، عـشرة أمتـار عـلى الأكثر، مـن الداخـل مثـل إسـفنجة، في تجاويفها يسـكن نمـلٌ آكلٌ للحـوم، هـو نمـل التنجارانـا. يرتجـف نيكـولاس ثنتناريـو: إنـه يعـرف هـذه الشـجرة، يعـرف أنهـم حـين يطرقـون جذعهـا، يطفـر النمـل،



t.me/qurssan

على الفور، من بين شقوقها الطبيعية، بآلآلاف، وجاهزاً للهجوم، وعلى الفور يكسو لحاءها بوحشية أخري، لم يعد الرائد باسوركو، نقيبٌ لا أكثر يا حثالة، النقيب باسوركو لا يقول شيئا، ولا الجنود المُنحنون الآن ليس تحت ثِقَل البنادق وحدها، منذ أعوام، منذ زمن طويل، يتذكر القومندان ثنتناريو سِجنه الأول، واليوم يراه بوضوح، فقد شهد عقاب إيسيدرو پاوكار، كانوا يلقِّبونه پاوكارثيتو تحبُّبا، الپاوكار طائر يأكل الموز، وكان سجّانوه يلقون إليه الموز المتعفن، كُلْ خراء، ويسخرون، الپاوكار يُقلّد غناء كل طيور الجبل وحتى كلام الناس. قف!، يأمر النقيب باسوركو، في تلك الحقبة كان نقيبا. الآن ستُغنّي، يا قحف الخراء! وأخذ پاوكار يُقلّد مُنهنهاً غناء الطيور الحرة، السيپا هو مستعمرة اعتقال، لاتتطلب أسوارا، لماذا؟، لأنها تحرسها غابات، وأنهار، ومستنقعات لا يمكن عبورها، وأفاعي قاتلة، ونمور سوداء ضخمة تسمى أوتورونجو، مُستغلّا نوبة سُكرٍ للحامية، هرب إيسيدرو پاوكار في زورق خدمة، وقرب أتالايا قبضوا عليه من جديد والآن سترون، يا زبالة، ما يحدث للفارِّين، بكعوب البنادق ساقوه قرب شجرة التنجارانا وكلكم جميعا، يا لصوص، يا لوطيين، ياأولاد القحبة، ستشهدون العقاب، إنزع قميصك، أمر النقيب باسوركو، وقد فرّ الدّم من وجهه. ابتسم پاوكارثيتو، وفوق هذا تضحك، ياحثالة؟، إربطوه، فأطاع الجنود. أصبح إيسيدور پاوكار ملتصقا بالشجرة، ضربوا الجذع بكعوب البنادق، وعلى الفور أخذ النمل يخمش جسده، عوى پاوكارثيتو، لطّخ نمل التنجارانا جسده بالدم، قرَض صراخه. - قف!، يأمر النقيب باسوركو. يبدو لثنتناريو أن السحب، والأنهار، والطيور، والشمس تتوقف. في الوهج يتبيّن، ها هي الشجرة!، صف المساجين المجبرين على المجيء، لرؤية ما يحدث لمقاتلي العصابات الذين يهربون، يا حثالة! الآن لا تقرِضُ پاوكارثيتو شغّالات النمل وحدها، فحشد من التنجارانا ينزل، يصعد، يهبط



t.me/qurssan

عبر صرخته»، النمل يقتل ببطء، يأتي الموت أخيرا بعد ساعات وساعات من النضج في أشكال الحمّى، كل قرضةٍ حمّى، ينتفخ الجسم، يسمن بينما ينتزع نمل التنجارانا اللحم الممزق، حتى تتعلموا، يا زبالة!، يتشفى النقيب باسوركو، موجها ركلة صوب خصيتي تشارول الذي أغمض عينيه، تشارول، الفائق البراعة في استخدام المطواة والمحنك في شجارات المرافيء والحانات لا يتحمل رؤية پاوكارثيتو، ذلك الجسد، تلك الصرخة التي صارت دون صراخ، وتصيبه ركلة أخرى في مؤخرته. إفتح عينيك، يا حرامي يا مخنّث، ويا مخنّثين كلكم، الويل لمن يتجاسر على إغماضها! أريدكم أن تروا هذا برمته. پاوكار لم يعد پاوكار، فجسده هو ذاك اللاأحد الذي ينقله نمل التنجارانا فتفوتةً فتفوتةً إلى عشه. هذه نهاية من يعتقدون أن بإمكانهم الهرب مني! لا أحد يهرب من السيپا، يا زبالة، ومن يهرب لا يحتاج إلى تابوت! والنهار بطوله هناك تحت الشمس المزدوجة للسماء وللرعب، ناظرين إلى شراهة النمل حتى لم يبق سوى الهيكل العظمي النظيف لپاوكارثيتو، ماريونيت من العظام مربوطة بمزاجها إلى الشجرة، من أجل ماذا الآن. يرفع القومندان ثنتناريو عينيه، هناك مازالت طيور الجواكامايو، لا يريد النظر إلى تيار النهر العكر، ودون رغبة تنزلق عيناه على غابة من شباب هنود الأپاشاراما، ووراء الأجمة لا يمكنه ألاّ يرى الجبانة، صلبان الأغصان وقد شققتها الشمس، يفكر في صليبه حيث سيكتب أحدهم نيكولاس ثنتناريو، وتاريخ ميلاده، وتاريخ موته، لكن ليس وضعه، قومندان الجيش الثوري للبيرو، إي إرى پي، الذي سقط في المعركة، وستمحو الشمس والقمر شاهد قبره، ينظر نيكولاس ثنتناريو إلى نظرة النقيب باسوركو، إلى صف أشجار الهواكاپو، إلى الجنود العرقانين، ولا تستطيع عيناه تجنّبها، فها هي شجرة التنجارانا! الجذع الذي يفور فيه النمل الذي سيلتهمه حيّاً. من الأفضل أن أفكر في أبي، يراه ينزل من الترام، يهبط مع



t.me/qurssan

الغسق، في آخر محطة، وقد خيّم الليل، الجنود يقطرون عرقا، يعرقون خوفا، وكذلك جبهة النقيب، تنظر إليه فتيات الأپاشاراما بورع، ولا تنظر الأشجارُ، يكرهني ليس فقط لأنه خسر الترقية، بسببك سأظل مرمياً في هذه الحامية الخرائية، يا حثالة، بل لأنه يكره فيّ وجه المستقبل الحتمي، إنزع القميص، يصيح النقيب باسوركو، عندها يقرر، قومندان الجيش الثوري للبيرو، اللعنة، أن ينظر إلى الشجرة، خصيتاه مضمومتان كلوزتين، من الأفضل أن أفكر في فرنثيسكا، ويلفه الإسم مثل تنفُّس جيلٍ من الورود، يحس بنهدي فرنثيسكا صلبين كثمرتي مانجو، تلك الليلة في باريس، تلك الابتسامة التي تركتُها واعياً أنني أرحل، فضلا عن البيرو، إلى الموت الذي ينتظرني مرتديا الزي الرسمي لباسوركو الذي ينزُّ كراهيةً تحت الشمس المجنونة للغابة الأمازونية. أبوه، الراكب الأخير، يهبط من الترام، يجري نيكولاسيتو صوب ذراعية المنهكتين، ثماني ساعات يعمل بنّاءً، يحاول التفكير، يفكر في السلاح الذي أفلحوا في نقله خفيةً عبر بحيرة تيتيكاكا، في آخر زجاجة نبيذ شربها في فرنسا، في صناديق الأسلحة المرصوصة في الجزائر، في أشجار جبال سييرا كريستال، إنزع القميص!، يأمر الرائد باسوركو، لم يعد رائدا، نقيبٌ لا أكثر، ياحثالة، بسببك فقدتُ الترقية، كان يجب أن ألبّي، وقد لبّيتُ، وها أنا أواجه الموت. ينظر نيكولاس ثنتناريو إلى نظرة النقيب باسوركو، لم يعد نيكولاس ثنتناريو، بل القومندان ثنتناريو، يا حثالة، تقاطعُ نظراتٍ مرعوبة، فتيات الأپاشاراما واقفات في الريح، يا نقيب الخراء! الآن سترى، يا حثالة، ما يعنيه قومندانٌ في الجيش الثوري للبيرو. يفك بنفسه أزرار القميص، ينظر المساجين المصطفون أمام الشجرة إلى صدر القومندان، الآن تنساب من جديد مياه نهر السيپا، وتحلق الطيور، وتتقدم السحب، لا أحد يهرب من مستعمرة اعتقال السيپا... هو هرب.



t.me/qurssan

# 3. إمرأة تُقاطِع الحكاية

عند باب لا كوبول ظهرت عندئذ إمرأة. توقفت تماماً باحثةً عن شخصٍ ما، جالت ببصرها في الصالون الصاخب، ربما لم تجد أحداً لأنها ولجت قاعة الطعام بخطوة حازمة. أوقفني جمالها، أعني: أوقف مسار حياتي. منذ لحظة كنت أتحادث مع الناشر والمدير الأدبي لـ"مطبوعات الكون". بدا أن الناشر ينعس، أكثر مما يستمع إلى التقلبات العاثرة لشخصياتي. استيقظ فجأة، وألقى تعليقا كان يجب أن يثير اهتمامي. لم استمع إليه. المطعمُ الصاخب وزبائنه، الناشر، البقرة المقدسة، الجرسونات، المجموعاتُ التي تدخل، الأزواج الذين يخرجون، واصلوا الوجود جميعا داخل الجدران التي اخترقتها المجهولة، لكنهم واصلوه الآن كشخصياتٍ في فيلمٍ صامت. عمَن تبحث؟ أيُّ كائنٍ بشري يمكن أن يستحق النظرة التواقةَ لتلك المرأة؟ هل أفلح پيكاسو شابٌ مجهول مؤقتاً، لكنه واثقٌ من عبقريته، في إشعال جذوتها؟ هل هو مقاتل ثوري، ذكَر موشومٌ بالبطولة، غير عابِىء بالخطر، عارفٌ بأن موته سيكون دوما حياة للآخرين؟ هل هو، باختصار، كائنٌ لا يُقاوَم؟



t.me/qurssan

على الموائد فتّشتُ عن ذلك الوجه المنحوت من الحديد والرقة في آنٍ واحد، عن ذلك الذَّكَر الذي يعود منتصرا من المعارك، من الاضطهادات، من الكمائن، لمجرد أن يقدم نفسه لها كطريقٍ مختلف، كشيءٍ لن يكون في وسعنا بأية حال أن نقدمه لها نحن البشرُ الفانون، نحن مجرد صائغي الحروب الكلامية، النزاعات اللفظية، التي نطرحها على مائدة يتحدّد عليها مصير كتابٍ يمكن الاستغناءُ عنه وليس المصير الذي يبعثُ الرجفة لقارةٍ بأسرها. واصلت المجهولة تقدمها. وذاتُ الجرسونات المعتادون على النساء الجميلات تباطأوا، تلكأوا ليُمعِنوا النظر إليها. غمغم الناشر شيئا. فوجود امرأة متوهجة الجمال، في مطعم أو في أي مكان، دائماً ما يثير الاستياء. وكم من مرة، كنت أنا نفسي، في لا كوبول، شاهدا على الاضطرابات التي تثيرها تلك النماذج الرفيعة للجمال البشري! فحين تدخل واحدةٌ من تلك النساء (والغريب أنهن يفعلن ذلك وحيدات على الدوام تقريبا، كملكاتٍ يحكم عليهن بروتوكول خفي بالسير دون صحبة. فمن هو الجدير باصطحابهن؟)، يفتش الرجال عن ذرائع لتأمُّلهن، يتظاهرون بضرورات طارئة للذهاب إلى دورة المياه، يخترعون مكالمات تليفونية لا تقبل التأجيل، ينهضون لتحية أصدقاء لم يحيّوهم أبدا من قبل، لمجرد المرور أمام تلك المائدة حيث يزدحم الميترات المجاملين. وقد أبرق الجرسونات الحدث إلى المطبخ، فاهتاج كلُّ العاملين، واصطف الرجال والنساء، الرجالُ للإعجاب بها، والنساء للبحث عن عيوب فيها: "فمها أصغر مما يجب"، "عمليا ليس لها نهدان.."، " خسارة أن امرأة بهذا الجمال لا تعرف كيف تُصفّف شعرها"، "ولا كيف تلبس، أيضا..".، ناهيك عن التعِس الذي أمام عينيه الأعوام العشرون من السأم من زوجته، وخلفها، على مائدة قريبة، والوجه تجاهه، ذلك الكائنُ الذي كان يمكن أن يُثير في أحد شوارع عصر النهضة شحوب ليوناردو لاكتشافه السيدة عذراء الصخور. الزبون محظوظٌ، حقا، لكن نصف حظ، لأنه محكومٌ عليه بالفالج البصري: عينٌ محايدة، زجاجية تقريبا، تنظر إلى



t.me/qurssan

زوجته، والأخرى كوكبيةٌ،من نارٍ، مصوَّبه تجاه المعجزة. ثمة أيضا بين تلك الحالات ذلك المحكومُ عليه بالنظر دون مواربةٍ إلى زوجته، لأنها تُدير ظهرها إلى المرأة التي ترسم العيون الزوجية الحاسدة ملامحها بالمقلوب. هذا إذا تغاضينا عن أولئك الذين يتذرعون بتيبُّس الرقبة ليديروا وجههم بشكل مفرط، وفي إحدى تلك المرات لن يجدوا مدعوتهم. يعرف الميترات أن تلك العشاءات لن تنتهي أو ستنتهي نهاية سيئة. فالنساء المنزعجات ستلغين الحلوى، متذرعاتٍ بالصداع النصفي. تكون لوائح الحساب معدّةً فعلا لدى الميترات، لكنهم أحيانا لا يتمكنون حتى من تقديمها. ففضيحة الحسد تتخلل فضيحة الجمال، مثل تلك المرة التي أحسّت فيها ثلاث فتيات بالانسحاق لظهور برونا نجري، فنزعن بلوزاتهن وأظهرن نهودا ربما كانت، في مناسبة أخرى، لتثير الهرج، لكن ليس على الإطلاق هناك، في تلك اللحظة التي كان كل شيء فيها مُغْفَلاً باستثناء عيون وشعر وجسد وإيماءات برونا نجري التي لا تُصدّق. إن روايةً عن الكفاح المسلح الآن حيث... دوّى نائياً صوتُ الناشر. كانت المرأة التي دخلت ترتدي ثوباً من الحرير الهندي منقّطاً بأزهار قرمزية، بساطةٌ يعوّضها (مما أدهشني أكثر!) عقدٌ من اليُشب سابقٌ على كولومبوس لا يقدّر بثمن، كانت أيدي أسلافي قد لضَمَته منذ قرون، من أجل هذه الرقبة، من أجلها، فكرتُ بالألم الذي يبعثه ما لا يمكن بلوغه.

لم يكن ما أمرضني، ما جعلني أعاني، هو السيمترية غير المفهومة لجسدها ولا جمالها المخيف، بل رغبةٌ عبثية ومتوحشة، رؤيا لحصانٍ يمضغ أزهارا، فالمرء يعاني لأنه خائنٌ دائمٌ لرغبته ذاتها. بالحكم على ما استمعنا إليه، أعتقد أن دار النشر ... عاودَت التوقف، فجأةً سقط نصفُ مطرِ شعرها الأسود فوق عينيها الإعجازيتين الزرقاوين. واضحٌ أن من الأفضل عدم تناول موضوعات سياسية معينة ... ورغم أن من المؤكد أن الوضع الاجتماعي لقارتك فضيحة، فإن الحديث الآن


t.me/qurssan

عن الكفاح المسلح... بدا أنها قد تعبت. لم يكن تعبا: كان قوة دفع الجسد الذي يستعد لاختراق الزحام. في رأيي سيكون من المناسب أن... كنت استمعُ بدرجة أقل باضطراد. لا أدري لماذا، وأنا أنظر إليها، تذكرتُ هيئةً مكتملةً أخرى... فمنذ أيام، في مواجهة العجز عن التعبير عما لا يمكن التعبير عنه بالنسبة لي، قررتُ زيارة "حديقة النباتات" [چاردان دى پلانت]، القريبة من الشقة التي أسكن بها. كان الجو لا يزال باردا. وكان الأصيل شفافا. لم أرِد العودة للبحث عن شيء يدفئني. بدا من الأفضل لي أن ألوذ بالحرارة الاستوائية "لحديقة الشتاء"[چاردان ديڤير]. وبينما أسير صوبها، رأيت، فوق واجهة المبنى الرئيسي، لوحةً تُعلن عن معرض قواقعٍ بحرية. دخلت. ولأن خشونة الضوء تُعيق تقديرَ الظلالِ الدقيقة للقواقع دون شك، إختار المنظّمون الغبَش. أبرزت أضواءٌ اختيرت بعنايةٍ مباهج قاع البحر بشكلٍ أكثر اكتمالاً. بدأتُ جولتي في المعرض عندما اجتذبتني بنيةٌ معمارية مكتملة، في خلفية القاعة. كانت، كما اكتشفت فيما بعد، صورةً بالأشعة لقوقعة. وعرضت لوحةٌ شفافة ذات ثلاثة أمتار على استحياءٍ الحلزونَ الذي تلتفُّ حوله القواقع. استغرقتُ وقتا طويلا، أطول مما ينبغي، في الغبش، في الإعجاب بتعرجات تلك السُّكينة. ولابد أنني ابتعدتُ باستياء وفقط لأن الحرّاس ذكّروني بأنهم سيغلقون. عندها، على جانبٍ من اللوحة المكبّرة، تبيّنتُ نصاً يفيد بأن تلك، مثل كل القواقع التي تملأ المحيطات، قوقعةٌ تلتفُّ وفق معادلةٍ حسابية ثابتة حول منحناها الداخلي. كان حلزون القوقعة، وهو منحنى قطبي، عبارة عن حلزونٍ لوغاريتمي. كان الشكل الذي بهرني يتم التعبير عنه في صيغة حسابية هي:

$$
\begin{array}{c} o \\ n \\ P = e \\ n \end{array}
$$



t.me/qurssan

إرتجفتُ. فجأة تخيّلت أن قاع البحر ليس مأهولا بكوكباتٍ من القواقع بل بمجراتٍ من الرموز. وليست القواقع وحدها. فنجوم البحر، وقنافذ البحر، وسرطانات البحر، والاخطبوطات، وحتى الاسماك المألوفة كلها كائناتٌ يكسوها لحمٌ ينمو وفق أشكال هندسية، كلها يتم التعبير عنها من خلال معادلات دقيقة ونموذجية! بدلاً من كونه مفروشاً بأشكال مدهشة أوغامضة، بدا لي قاع البحر مكسواً بكوكبةٍ من الصيغ الحسابية التي، ربما - فكرت بألم عدم المعرفة -، يتم التعبير عنها، بدورها، بصيغة وحيدة. كل البحر، كل البحار، كل أسرار البحار منكشفةٌ في معادلةٍ وحيدة! وشككتُ أن الإنسان ذاته هو استعارةٌ يكسوها اللحم مؤقتاً. هل الإنسان لحمٌ يكسو استعارةً، أم استعارةٌ تُغلّفُ اللحم؟ فيما وراء الرياضيات الشائعة، خارج متناولنا الغبي في الوقت الحاضر، هل تفسّر رياضيات ساميةٌ بوضوحٍ الخفايا الوضاءة للرغبة، للغيرة، للذكري، للخداع، للنسيان، للتلاعب، لتعويض الخسائر، لتنازلات وانتقامات الحب والكره، تلك الأحاجي التي تعذُبنا؟ في النسق الكبير للكون، بالنسبة "للرياضيّ الأعظم" الذي يتسلّى بجعلنا نعتقد أننا أكثر من مجرّد تبدياتٍ، مجرد رموزٍ محكومٍ عليها بأن تُطيع لا محالة اتجاه حلزونها، هل تجدُ مشاعرُنا التعبيرَ عنها في معادلاتٍ بسيطة بصورة باهرة؟ وبألم، بحب، برغبة تساءلتُ ماذا يمكن أن تكون المعادلةُ القادرة على أنْ تفتح لي طريقاً صوب حب تلك المرأة.


t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 4. خصائص التوپا،
# الخشب المثالي لصيد التماسيح

يرتجف نيكولاس ثنتناريو، الظلمةُ تحميه، بالمعول الذي أخفاه أوريخاس في سلّة ملابس قذرةٍ يكسرُ قفلَ عنبر التأديب. لا يسمع الحرّاس الجمهوريون الصرير. فهم في كشك المراقبة، سكارى ضائعون، يشكّلون كوراًلاً خلف الصوت الصمغي للوتشو جاتيكا، في البوليرو الشهير ساعة منتصف الليل. يزحف بين الأجمات، يعبر أمام الأصوات التي تفوح بالكاتشازا[21] البرازيلية. أيتها الساعة، لا تسجلي الساعات لأنني سأجنّ، يغني حارسٌ بصوتٍ نشاز. مقابل ثلاثمائة سول تمكّن جريجوريو من جعل أوريخاس يَعِدُ بتجهيز طوفٍ من خشب التوپا، وهو خشب كستنائي، خفيف، مثاليّ لتعجيل إبحاره. ستمضي هي إلى الأبد حين يبزغ الفجر من جديد، يشكو لوتشو جاتيكا في الجراموفون. هل سيكون أوريخاس قد وفى بوعده؟يتقدم نحو الخليج ذي المياه الهادئة. هل سيكون الطوف بانتظاره؟ أيتها الساعة أوقفي سيرك، اجعلي هذه الليلة سرمدية. الخلجان لا اسم لها: تظهر مع الأمطار،



t.me/qurssan

وتختفـي في أيـة لحظـة. إنهـا النجمـة التـي تـضيء كيـاني، أنـا دون حبهـا لاشيء، فرنثيسـكا. تجرحـه الأشـواك، يمـد رقبتـه. هـا هـو الطـوف! وفَي أوريخـاس بوعـده. وفـوق ألـواح التوبـا المربوطـة بجدائـل السـعف، محميـةً بقطـع مـن البلاسـتيك: قطـعُ خبـز، ويـوكا[22] مقليـة، وثمـارُ خبـز، وثمـار كايميتـو[23]، ومـوز مسـلوق، وخمـس عـشرة ورقـة نقـدٍ مـن فئـة عشرة سـول. "مقابـل كل ورقـة نقـدٍ تفـي بوضعهـا، أعطيك اثنتـين، يـا أوريخاس"، عـرض جريجوريـو، يجـد أيضـا سـاطوراً وقائمـا للتجديـف، غصنـاً صلبـا ومقشـورا ذا أربعـة أمتـار، بهـذا العـود سـيدفع الطـوف بحـذاء حافـة النهـر. أنـا لاشيء! - بعيـدا ينـوح النقيـب باسـوركو. تنفتـح السـماء بغتـة، ويبـدأ المطـر، تنقـر الميـاه أسـقف الصفيـح المكسـو بالزنـك التـي تسـكر تحتهـا الحاميـة. كـم يمصمـص الجيـشُ البـشر! يُصفّـر حتـى يتشـجّع، يقفـز فوقـه، يقذفـه التيـار إلى وسـط النهـر، تـزأر ميـاه نهـر السـيـبا، يمسـك بالقائـم ويوجّـه الطـوف نحـو الضفـة الأخـرى، وملتصقـا بـه يهبـط صـوب نهـر الأوروبامبـا. قَتـلُ الـواشي! خـلال خمسـمائة مـتر سيتفادى أول موقـع مراقبـة. هـل سـيتفاداه؟ هـل سـيهزُّ أولئـك الحـراسُ المناوبـون رؤوسـهم سـكارى بدورهـم؟ إنـه عيـد الميـلاد. ليـس ثمـة حـراس! يمـزج السـيبا والأوروبامبـا مياههـما المضطربـة. الجسـد الأن، وقـد تحـول إلى ذراع خالص، يغـرس ويغـرس القائـم في طـين القـاع. إذا فشـل، سـيجعل التيـار القـويُ الطـوفَ يقفـز. وحتـى لايصطـدم بالضفـة، يُنشـب القائـم في حافـة طينيـة. وأخـيرا، وقلبـه في فمـه، يلتقـي طوفـه بتيـار الأوروبامبـا. خـلال خمسـة كيلومـترات سـيصادف موقـع المراقبـة الثـاني، دارٌ وبـرجٌ ضخـم مسـقوف بالزنـك، بحـراسٍ ليـل نهـار. في ديسـمبر تنتفـخ أنهـار الغابـة بالفيضـان لتصبـح غـير قابلـة للعبـور. وفي مركـز الميـاه المشـبَعة بالطمـي تتقـدم جـذوع الأشـجار قاتلـةً. يحتـك غصـن هـواكايو عملاق بالطـوف، الهـواكايو، شـجرة ملعونـة، تـزن كالحديـد ولـذا تتقـدم تحـت المـاء، غـير مرئيـة، الهـواكايو يُغـرق سـفناً ضخمـة، ولنشـات ضبّـاط مُقدّمـين، فكيـف لـن



t.me/qurssan

يُغرِق الطوف الصغير لتافهٍ مثله، ضحك متألماً. قَتلُ بودار! هو لا يشعر بالخوف، جسمهُ يفعل. يسمع رعداً، ليس رعداً: إنه زئير الأوروبامبا وهو يفتِكُ بسياج، بذاك الحشد من الجذوع الذي يأخذ في التراكم في البرك وينتظر بألف حربةٍ منتصبة تحت براءة بوصٍ وحشائش الضفة. شعري، وعيناي، وصدري، وجسمي تشعر بالخوف. أنا لا. يتضاعف الفازَون في النهر، لا تتحرك ذراعان، بل عشرةُ أذرع. يغرس القائم، يفتّش عن الضفة لكنه يلمح أضواء موقع المراقبة فيُجبر الطوفَ على الخوض من جديد في التيار العنيف، تفلت منه ربطة الفاكهة، يسمعها تسقط، يسحبها التيار باتجاه موقع المراقبة، جسمه يشعر بالخوف، هو لا. يمر الطوف ملامساً الموقع: مع فتيات مجلوبات من إقليم السيباهوا يرقص الحراس الثقيلون رقصات البوليرو ملتحمين، هائجين، عرقانين، يلقي بنفسه فوق ألواح الطوف. لحسن الحظ أن اليوكا والخبز في جوال آخر. يعيد تثبيت الربطات الناجية. يكسو الليلُ ارتياحه. وتكتكتك تذّكرني بألمي الذي بلا شفاء، يفكر في فرنثيسكا ويشتعل ببهجةٍ بلا شفاء. لو خرجت حيا من هذا، سأعاود رؤيتها، يتخيل العجُة وهي تتذهَّب في تلك القلاية، الشتاء الثلجي لباريس تُدفئه عينا فرنثيسكا، يسمع "باخياناس" فيلالوبوس، يفكر في آخر ترام، يرى أباه يهبط، ينظر إليه ويقدم له أول بقشيش في حياته، لأنك حصلت على درجات جيدة يا نيكولاسيتو، بعينين لامعتين تقرأ أمه من جديد: القشتالية: 17. الحساب: 16، الجغرافيا: 17، فخورون بك يا نيكولاسيتو، لم يشتر حلوى بل كتابا، لو كان بدل ذلك الكتاب قد استسلم لإغواء الحلويات لكان اليوم شخصا آخر، لكان مثل الآخرين، لما وجد نفسه الآن فوق هذا الطوف، الخوف يجعلني أفكر في حماقات. ويرتجف من جديد. يفكر في موقع المراقبة التالي، يفكر هل وصلت إلى البيرو أموال جنيف، يفكر في ضيعة "بويرتو إنكا" وفي صاحبها، مالك الأراضي الإكوادوري كروث، وفي ابن كروث العجوز، من



t.me/qurssan

منهـما وشى بالهـارب الـذي سـبقه؟ ومـن وشى بالطابـور الأول؟ كانـت المخابرات تعـرف الموقـع الـذي سـيعبرون منـه سرا. انتظرتهـم القـوات. مـا أن عـبروا الحـدود حتـى مزقوهـم بالرصـاص. مـن التفكـير في الـواشي، لا يسـتطيع النـوم. أو ربمـا نـام. يحـاذي الطـوف جـزرا كبـيرة تكسـوها الغابـات، ومنعطفـات نهـر تفترشـها رمـال المراعـي، يتفـادى العنـاق القاتـل لميـاه نهـري التامبـو والأوروبامبا،يندمـج في بـراح الأوكايـالي الـذي ينبُـع هنـاك، يتحسـس كيـس البلاسـتيك الـذي يحتـوي أوراق العملـة التـي يختلـط لونهـا البرتقـالي مـع الفجـر الـذي يرسـمُ بخربشـاتٍ بيـوتَ أتالايـا غـير الواضحـة المعـالم. في ثـوانٍ، قضـت رخـات رصـاص القـوات عـلى الطابـور الأول. تسـعة قتـلى! عـامٌ مـن الإعـداد عبثـا! كان هـو في منـزل ميشـيل في باريـس. اسـتدعوه عـلى عجـل إلى هافانـا. شـعري، وجهـي، ذراعـي المخدوشـان، أظافـري القـذرة، جسـدي الـذي يعـرق ضـد الهـواء البـارد، تشـعرُ بالخـوف. أنـا لا. بزغـت أتالايـا: حـوالي كيلومـتر مـن الضفـة مبـذورة بالبيـوت وربمـا بعيـون "الحـرس المـدني". وحتـى لا يكتشـفوه، يربـط الأكيـاس حـول رقبتـه بحبـل، ينزلـق إلى المـاء، يخبـيء رأسـه بـين ألـواح التـوبا، ويتشـبث بلـوحٍ بأصابـع تشـعر بالخـوف. لا ينتهـي الطـوفُ أبـداً مـن العبـور. "أتعـرف فعـلا أنهـم باغتوهـم وقضـوا عـلى الجميـع، يـا نيكـولاس؟" "يـا قومنـدان؛ كان رأيـي دومـا أنـه لا مـكان العبـور ولا طريقته كانـا ملائمـين ...دخـول البـيرو بأنـاس مرتديـن الـزي العسـكري كان خطـأ. كل بلـد لـه واقعـه الخـاص، وواقعنـا مختلـف عـن واقعكـم، يا قومنـدان..". "مـاذا تريـد، يـا نيكـولاس؟ المعرفـة الثوريـة تولـد مـن التجربـة. نحـن قمنـا بالإنـزال مرتديـن الـزي العسـكري وشـاهرين السـلاح، وكانـوا ينتظروننـا نحـن أيضـا وكادوا أن يهلكونـا، لكـن مـن نجونـا واصلنـا الثـورة..". "كان الأمـر مختلفـا، يـا قومندان...كانـت تربتكـم قـد تـم تمهيدهـا، وتسـميدها بعمـلٍ سـياسي تمهيـدي نشـط، كان الشـعبُ ينتظركـم، كان يعـرف أنكـم تجلبـون نهايـة الطغيان...أمـا الرفـاق الذيـن سـقطوا لتوهـم، فلـم تكـن



t.me/qurssan

تنتظرهم حتى الأشجار..". "نيكولاس: لعمل الثورة يحتاج الأمر في الأساس إلى رجال خصياتهم في مكانها الصحيح" "لدينا، يا قومندان، لكن فضلا عن الخصيات من الضروري التفكير". " ورجالك كيف حالهم، يا نيكولاس؟" "عبرنا الحدود جميعا دون جديد، يا قومندان ..". بعد هبوط كيلومترين آخرين، بعد تجاوز الأسوأ، ما زال نيكولاس لا يجرؤ على الخروج من الماء لكن الشدُّ العضلي الذي يتهدّد أصابعه يجبره على الصعود إلى الطوف. من وشى بهم؟ علاوة على بودار، هل هناك خائن آخر؟ في ليما كان الجميع يتّبعون بدقة قواعد الأمان، ويمارسون تقسيما حديديا للمهام، وكانوا يتحركون في أتمّ سرية، ولم يكونوا يُطلّون من النوافذ حتى بالليل، ورغم ذلك أمسك بهم رجال أمن الدولة ذلك الفجر واحداً واحداً، مخبأً مخبأً، في كل أرجاء المدينة. وضعوهم في سجن مديرية الأمن الصغير. والغريب، دون تعذيبهم، ودون استجواب أيٍ منهم - كأنهم يعرفون كل شيء! -، ومع الفجر وضعوهم على متن طائرة دي سي 3 هبطت في مستعمرة اعتقال السيبا دون إخطار باللاسلكي. أراد النقيب باسوركو، مدير المستعمرة، الاحتجاج، لكن رجال أمن الدولة قاطعوه: نحن نتصرف دائما عن طريق المفاجأة، أيها النقيب، وزير الداخلية يبعث إليك هؤلاء السجناء بصفة وديعة، وقّع لنا الإيصال، نحن في عجلة، نريد الانصراف قبل أن تتلبّد السماءُ من جديد. تفحّص النقيب باسوركو السماء المرقّشة، وأدار عينيه عن رجال أمن الدولة، وأخيرا نظر إليهم. "يا زبالة، الآن ستعرفون الفرق بين السجين وبين الوديعة! السجين يظهر في تقرير، ويمكن المطالبة به؛ أما الودائع فلا وجود لهم، أستطيع أن أفعل بكم أي خراء يروق لي!" عزلوهم تحت سقف من الزنك ترفعه أربعة قوائم، تطوقه الأسلاك الشائكة، كان المطر يدخل مائلا، وهم محشورون معا في أربعة أمتار مربعة، عند أقدام أشجار مانجو وحشية ضخمة. وكان سجينٌ عاديّ يحضر لهم الطعام، بين الحين



t.me/qurssan

والآخر: دلوٌ من الماء الرصاصي تطفو فوقه حباتُ فاصوليا، وبعوضٌ مختنق، وقطع يوكا. بالأمر أو بالإهمال، كان السجين يقطع مسافة الكيلومتر الذي تبعد به قاعة طعام المساجين العاديين بالدلو مكشوفا للحشرات، وللمطر الذي يتناثر من الأشجار العالية بعد موجات الريح القوية. وأحيانا كانت عواصفُ لا يمكن عبورها تمنع وصول السجين، ويمر يومان أو ثلاثة دون طعام، وهم مُلقَون فوق أكوامٍ عفنة من قش الأرز. حتى أبلغهم أوريخاس، أوّلُ من تعاطف معهم من السجناء العاديين وكان يحمل لهم دلو الطعام مغطى بأوراق الموز، بالخبر السعيد: "النقيب باسوركو يصرّح لكم بالاشتراك في الأشغال، بقطع الأخشاب مع المساجين العاديين، يمكنكم مغادرة هذا السقف اللعين". خرجوا سعداء نحو العبودية، من الآن فصاعداً، باللبهجة!، سيمكنهم أن يعملوا دون أجرٍ ولا مواعيد في قطع الأشجار من أجل النقيب باسوركو ومن أجل أن تخرج زوجة النقيب باسوركو للتسوّق. "هناك في "البازار الأزرق" بإيكيتوس رأيتُ بعض الحراير الفرنسية التي تميتُ، يا حبُوبي". وبينما يقطعون الأخشاب مع السجناء العاديين، عرف جريجوريو بعدها بأيام من فم أوريخاس أن "مقاتلي العصابات سيطلع دين أمهم فالشرطة تعرف تماما أين ومتى سيعملون". "ومنذ متى تخرج علينا بأنك تعرف أشياء عن السياسيين، يا ابن عمي[24]؟"، تهكم تشارول، وهو ساكنُ جبالٍ يكاد من وساخته، حسب أوريخاس، أن يكون أسود. واصل أوريخاس: "أنا أعرف، أعرف من يخونكم". متظاهرا بعدم الاهتمام، واصل جريجوريو تسوية جذع الماهوجني بالفأس. وفي الليل تُعلن الدوّامات عن نفسها، على البعد، بالهسيس، ثم بالفرقعة، وبالنهار بالجذوع التي تتمدّد قبل أن تغطس، مثل أقلام رصاص عملاقة ومرهوبة. أيتها الساعة لاتستجّلي الساعات لأنني سأجنّ: "هو شخص سمين، قصير، يشبه الصينيين، له شارب صغير - واصل أوريخاس الكلام - : هو من باع مقاتلي العصابات"، أما



t.me/qurssan

جريجوريو فقال كأنما دون رغبة، وهو ينظف بفأسه دون أن يلتفت: " شخص له شارب صغير على طريقة پدرو إنفانتي[25]؟" "ربما أتذكر لو أعطيتموني سيجارة"، ابتسم أوريخاس. "نصفها"، قال جريجوريو وهو يقسم سيجارة إنكا شائعة. شرعوا يدخنون. "أنا محكوم عليّ بخمسة وعشرين عاما، ماذا يهمني الإبلاغ - قال أوريخاس -؛ علاوة على أنني دائما ما كرهت الخونة..". "ما شكله؟"، اهتم جريجوريو صراحةً. لن أقول لك ما شكله فحسب بل كذلك من هو - قال أوريخاس - ومجانا، دون أن أتقاضى منك شيئا..". " ليس إلى هذه الدرجة"، ابتسم جريجوريو مُقدِّما له قلقه مع بقية علبة السجائر. أيتها الساعة أوقفي سيرك، اجعلي هذه الليلة سرمدية. يرقص باليه الجذوع المرعب قرب الدوّامة. جسده يشعر بالخوف، هو لا. أشعل أوريخاس سيجارة كاملة. "سأتولي أنا حصة كليكما"، قال تشارول مُسارعاً القطع في جذع الماهوجني الخاص بجريجوريو. وأردف أوريخاس: "في ذلك الوقت كنت أتاجر في جلود السحالي، ولبيعها سافرت إلى بعثة القساوسة الفرنسيسكان؛ وعن طرق الخطأ دخلتُ غرفةً بالضبط لحظة أن كان القسيس الأمريكي الشمالي الذي كنت أبحث عنه يتصل باللاسلكي بليما، وأذكر بوضوح تام أنه كان يقول ويعيد ويعود فيقول ويعيد: "يُبلِغ بودار أن شحنة أسلحة جديدة قد وصلت إلى منزل الجرينجو..". "بودار؟"، تجمّد جريجوريو. في مواجهة دوّامةٍ يعتمد كلُّ شيء على الحظ، فالدوامة إما أن تبلعك أو تلفظك. تتركه الدوامة يقترب، يقترب، يقترب، وفجأة تلفظه. "بودار؟"، ارتجف. يعرف هذه الشجرة، يعرف أنهم حين يخبطون لحائها، يطفر النمل بالآلاف، على الفور، جاهزاً للهجوم، وفي ثوان يغطي لحاءها بلحاءٍ آخر من الوحشية. انقضت ثلاثة أيام، بلا نوم. ربما ساعة. حلم بأنه يتقدم في سهل يعوقه نسيج العنكبوت وتتجادل في أشكاله المعمارية الشريرة طيور بشروش ضخمة. بلغ جبلا. بدأ يصعد وهو يعاني. أخذت شباك



t.me/qurssan

العنكبـوت تـزداد عنـادا باسـتمرار، وطيـور البـشروش تـزداد ضخامـة باسـتمرار. صعـد جارحـا نفسـه تـلا عاريـا مـن الخضرة، وهبـط إلى غوطـةٍ ذات أعشـاب سـوداء. سـار بمحـاذاة بركـةٍ مياهُهـا سـاكنة. فجـأة صـار طائـرَ بـشروشٍ يسـقطُ صـوب البركـة. لم تكـن بركـة: كانـت ظلـمات عـين بـودار. حلّـق فـوق وجـه بـودار، ضائعـا فـوق أجـمات شـارب بودار".ولـو، سـأقتله"، أيقظتـه صرختـه. وتكتكتـك ُتذكّـرني بألمـي الـذي بـلا شـفاء. يدخـل الفجـر متحسّـساً أساوره مـن الطيـور. يتبيّن قريـة. عينـاه تشـعران بالخـوف، هـو لا. مـن شـكل السـقوف لابـد أنهـا قريـةٌ لهنـود اليامينـاهـوا. أيكـون لديهـم طعـام؟ حتـى لـو لم يكـن لديهـم، يفكـر، وبتصميـم يقـودُ الطـوف إلى أجمـةٍ مـن البـوص عـلى الضفـة، يرسـو، يقفـز إلى فرجـة مـن الأعشـاب الجافـة، يربـط طـرف الحبـل بغصـن سـميك، سـأقتله في كل الأحـوال، يصعـد نحـو الأكـواخ. يسـتقبله، متحفّظـين، رجـال، ونسـاء، وأطفـال، تكسـو وجوههـم طبقـة كثيفـة مـن الألـوان. "هـل يمكنكـم أن تهـدوني بعـض الطعـام؟"، يتوسـل. لا يفهمـون القشـتالية. بإيمـاءات لعابيـة يـشرح لهـم أنـه بحاجـة إلى الطعـام. تنظـرُ إليـه استراباتٌ ملونـة بالأحمـر: لـون الأتشـيوتي[26] المقـدس الـذي يلـون أجسـادهم. يهدونـه يـوكا مطبوخـة، ومـوز عـلى الفحـم، وللـشرب يعطونـه شرابـا مـن الماسـاتو[27] المُسـكِر. جـال نيكـولاس ببـصره عـلى المناضلـين المتجمعـين تحـت شـجرة المـوز. "لـديّ خـبرٌ خطـير جـدا يجـب أن أنقلـه لكـم، يـا رفـاق. في المنظمـة خائـن: هـو بـودار. يجـب تحذيـر القيـادة القوميـة مهـما كلـف الأمـر". "مسـتحيل!، الشرطـة لا تـدع حتـى النمـل يمـر، يراقبـون كل المراسـلات ولايبعثـون سـوى الرسـائل التـي تناسـبهم". "أنـا سـأحذّر"، قـال نيكـولاس. "كيف؟" "سـأهرب لأحـذّر". "هـل أنـت مجنـون؟، لا أحـد يهـرب مـن السـيبا". أنا هربـت. تمـر جـذوع الهـواكابو وهـي تصفّـر، كيـف لـن تُغـرِق طـوفَ أحمـقٍ مسـكين! لا تقلبـه. يطلـع النهـار قـرب قريـة بولونييـزي. يعـرف بـودار مـكان المسـتودعات الرئيسـية وشـفرات الاتصـال بهافانـا. يجـب أن يمـوت! إمـا



t.me/qurssan

هـو أو نحـن!" أنهـا النجمـة التـي تـضيء كيـاني". أثنـاء نومـه يسـقط في النهر. توقظـه خبطـة المـاء، شبهَ غـارقٍ يُخـرج رأسـه، يسبح نحـو الطـوف الـذي يخـترق شـبّورة كثيفـة. "أنـا دون حبهـا لاشيء..". مختفيـاً بفعـل الشـبورة، يمـر أمـام موقـع المراقبـة. عنـد هـذا الحـد لابـد أن لـدى كل المواقـع صورتـه، وقامتـه، علاماتـه المميـزة التـي تشـعرُ بالخـوف، لكـن أنـا لا. وراء الشـبورة تمطـر بـلا انقطـاع، قطـرات كالسـهام تفسـد بقايـا الثيـاب. "سـأهرب لتحذيـر القيـادة القوميـة". "لا أحـد يعـبر هـذه الغابـات، يانيكـولاس!" "لـن أذهـب عـبر الغابـة، سـأذهب عـبر الأنهـار. لـن أرتكـب مـن جديـد خطـأ التقليـل مـن شـأن معلومـة. كفانـا مـا حـدث مـع كاسـتانييدا ابـن العاهـرة ذاك الـذي اخترقنـا وسـلّم الطابـور الأول! بسـببه أخفـق ذلـك الفـوج وشربنـا نحـن عامـا مـن السـجن". شـك سـانتياجو ان كاسـتانييدا عميـلٌ محـرّض. ونقـل شـكوكه إلى القيـادة. شـعر ويـلي بالإهانـة: "مـا هـي براهينـك؟" "براهـين، لا، لكـن مـؤشرات، نعـم". "أيـة مـؤشرات؟"، تجهّـم ويـلي. كان هـو مـن جنّـد كاسـتانييدا في الحركـة. "منـذ قليـل ذهبـت لزيـارة نيكـولاس - قـال سـانتياجو -، ولم أجـده. دخلـت غرفتـه لأنتظـره وفاجـأت كاسـتانييدا يفتـش في وثائـق. "أهـلا - قـال لي -، لقـد تـاه منـي جـواز السـفر". تشـق الشـمسُ جسـده الخامـل. مـع هـذه الشـمس لا تعـرق: إنـك تتكلـس، هـذه الشـمس تجففـك، تـتركك مثـل لحـاء محـترق، هـذه الشـمس خـراء، ولحمايـة أنفسـهم يسـتخدم الهنـود عبـاءات حتـى أقدامهـم، بدونهـا لـن يقاومـوا. مـن أحـد المنعطفـات يبـزغ فجـأة زورقُ قاطعـي أخشـاب. يقتربـون، ينظـرون إليـه مهلهـلاً، فاتـر الهمـة، واهنـاً، ويلقـون إليـه حبـلا. "مـاذا جـري لـك، يـا صاحبـي؟" فيرد:"أنـا أيضـا قاطـع أخشـاب، أغـرق التيـار زورقـي، وفقـدت عمـل سـتة أشـهر". يهدونـه دقيـق منيهـوت، ولحـما مقـددا لسـاخينو، فهكـذا يسـمون الخنزيـر الـبري... "حظـا سـعيدا، يازميـل!" وعنـد الأصيـل يتبـين دخانـا. "كاسـتانييدا لا يعـرف شـيئا، لا يعـرف شـيئا عـلى الإطـلاق في الماركسـية -



t.me/qurssan

واصل سانتياجو -. ولا حتى العناوين! ذاك اليوم استشهدت بكتاب الإمبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية. ولم يكن كاستانييدا قد سمع أبدا حديثا عن الكتاب. هل يعقل أن رفيقا لا يعرف حتى العنوان؟" هذه قرية هنود كامبا. إذا وُجد الدخان، وُجد الطعام. يرسو، يربط الطوف. يقدم نفسه: "أنا قاطع أخشاب". يقدم له الكامبا حساء سلحفاة مغلي مع قطع من اليوكا. هم أيضا قاطعو أخشاب. في الليل يقول له الزعيم: "إن كنت قد خسرت كل شيء وتريد العمل من جديد، يمكننا عقد صفقة. إذا تشجعت للبقاء معنا فلن تقطع جذوعا، بل ستساعدنا على تسويق خشبنا مع البيض. غدا يصل زورقي ذو الموتور قاطرا جذوعا للبيع..". زورق بموتور؟ انزعج: إن كان لهم زورق فهم هنود متأسبنون[28]، ومالك اللنش لديه لاسلكي ومن لديه لاسلكي يعرف أنهم يقدّمون مائة ألف، مقابل القبض عليه. يتظاهر بقبول العرض، ويعطونه مكانا ينام فيه. حلم من جديد بأنه طائر بشروش يطير بين تماثيل بشروش؛ أخافه ذلك: تماثيلٌ تطير. قبل طلوع النهار وضع الطوف في التيار. ستة أيام بالتمام. وتظهر أطراف السابع. يتناثر الماء على العباءة المسروقة التي تكسو جسده المجفف. اليوم سيصادف قرية ماسيسيا. ألم تأت ماسيسيا من قبل؟ أم أنه قد عبرها؟ عند مدخل ومخرج ماسيسيا مواقع حرس مدني. على سبيل الاحتياط يهبط قبلها بكيلومتر. محُمَّصاً وملفوفا بالعباءة يبدو هنديا، ليس بحاجة إلى التظاهر. يدخل إلى القرية، يختلط مع التجار الذين يقيمون أكشاكهم حول "ميدان السلاح"[29] الذي هو اليوم، الأحد، في نفس الوقت، ملعب كرة قدم. يتبادلُ الأخبارَ القديمة مسافرون يتوجهون إلى أو يصلون من أتالايا أو سيپاهوا، رجال يتحدثون قشتالية بنبرة برازيلية مختلطة بكلمات من الكتشوا. انتهت الأعوام الثمانية لدكتاتورية أودريّا[30] بين عشية وضحاها، أفرجوا عن كل السجناء السياسيين، لم يكن أمام الحكومة مخرج آخر، واقترح ويلي، المتعجل



t.me/qurssan

لملاطفة امرأته، "هيا إلى منزلي"، ضاجع ويلي الهائج إلبا، بينما كان المدعوون، باللهياج!، يعدّون شرائط المكرونة، من الأفضل أن نذهب، ابقوا، قالت إلبا مبتسمة، وهي تطل من وراء الباب، لكن إن أصررتم على الذهاب هاهي أربعة آلاف سول يبعثها ويلي إليكم، الحلوة متوردة، ذات وجه مليح، ما كانت تريده هو ما يريده الجميع، سوى أن باستطاعة إلبا وويلي مالا يستطيعه أيهم، عندها مضى العزّاب لشرب البيرة في مطعم پاليرمو، واقترح كاوبي الذهاب إلى ماخور. أعرف واحدا راقياً جدا في بالكونثييو؛ فتحت لهم الباب إيفون، بفستان منقط بالزهور، وعقود وأساور وخاتم وقرط من الذهب، ورائحة عطر رخيص تفوح بقوة من السمينة المرحة: ادخلوا، ياأعزائي، هنا الجودة! ، وعلى الفور مضت إلى صندوق الموسيقى"، حيث يزوم صوت لوتشو جاتيكا: أيتها الساعة لا تسجلي الساعات لأنني سأجن، إنها النجمة التي تضيء كياني، أنا دون حبها لاشيء ... اندفعوا إلى الهجوم: في الغبش المحمرّ والمليء بالدخان التمعت منصة البار باسمة بالفتيات، أيتها الساعة أوقفي سيرك، واجعلي هذه الليلة سرمدية. ألقى جوستابو نفسه فوق سمراء شهية، وارتبط كاوبي بشقراء بشعر مؤكسد، وإيبان بالسمراء المثيرة التي أصابته بذلك السيلان التي لم يستطع الرفيق خيمينث القضاء عليه أبدا. "سبعة أعوام في جامعة لينينجراد بلا فائدة!"، واختار هو صينيةً كانت تبتسم له، بإطار من الشعر الأسود حول الوجه الهائج. كيف الحال، يا نيكولاسيتو؟، جمّدته الصينية. لم يدر بماذا يرد. "لم تعد تذكرني، يا نيكولاسيتو؟ في المكسيك كنت تلتهمني بعينيك، وذات يوم ونحن نرقص ملتصقين شعرت بك، لكنك هربت مني..". عرفها: حقا، كانت زوجة كاستانييدا! "ماذا تفعلين هنا، يا أمپاريتو؟"، غمغم. أعمل كالمعتاد، في عملي المعتاد: فأنا عاهرة وأفتخر". ظل مبهوتا. "لماذا لم تتجاسر في المكسيك؟" "كيف كنت سأقترب منك، يا أمپاريتو، وأنت زوجة الرفيق كاستانييدا؟"



t.me/qurssan

تقلّص وجه أمبارو: "لا تذكر لي اسم ذلك الكلب... عليك أن تعرف أنه لم يخنكم، جميعا؛ الحمقى الذين تثقون فيه، وحدكم! ففي نهاية المطاف كان عمله هو الوشاية؛ من أجل هذا كان شرطيا ومن أجل هذا كانوا يدفعون له جيدا جدا. الوحيدة التي لم تقبض كنت أنا. حتى أنا خانني، تركني ملقاةً دون فلس واحد في بنما، وهرب بالألف دولار التي أعطاها له السفير البيرواني من أجلي..". "بمعنى أنكِ أنت أيضا كنت تعملين لدي الشرطة؟" "لا - دافعت أمبارو عن نفسها -، عاهرة نعم، وعاهرة جيدة، لكن خائنة، مستحيل... الخائن كان كاستانييدا، لقد تعاقدوا معي لأتظاهر بأنني زوجته. عرف جهاز أمن الدولة في ليما أنكم تجهزون فوجا وقرر اختراقكم. ماذا تشرب؟ بيرة؟ ولي نعناع، يا إيفونشيتا... اختارت الشرطة كاستانييدا لأنهم اكتشفوا أنه قد درس الثانوية مع ويلي. كان مغتربا معكم في المكسيك: فقد سافرنا أنا وكاستانييدا إلى المكسيك..". "وكيف وجدونا؟" "كان كاستانييدا يعرف جيدا أين تقيمون، لكنه فضّل السعي إلى لقاءٍ عرَضي، لا يثير الشكوك، حسب كلامه. وثمة مكانٌ تلتقي فيه بالمنفيين عاجلا أو آجلا: مكتبُ البريد. خلال أيام كثيرة، من التاسعة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر، كنا نزرع أنفسنا في مكتب البريد. حتى ظهر ويلي، زميل دراسته، وبالتعاستكم... والآن تعال، سأريحك من الرغبة التي تحملها لي منذ المكسيك". في ماسيسيا لا يعرفون خبر هروبه، والاحاديث تدور حول وصول صيادي التماسيح[32] القادمين من ماناوس. يجوب البرازيليون الميدان للتعاقد مع مساعدين. يدفعون أجرا جيدا. حتى لو كان أجرا سيئا، يقول لنفسه ويقرر الانخراط. "هل تعرف الصيد؟" "منذ الطفولة"، يكذب. "هل يناسبك مائة سول لكل تمساح؟" "يناسبني". يركب معهم. أربعة مراكب مليئة بالصيادين دون أسلحة - ولا طلقة: ممنوع إيذاء جلد الفرائس - يتفرقون في الشواطيء حيث يختمر نعاس التماسيح السوداء. "لا نصطاد التماسيح



t.me/qurssan

بالقنص، بل بالسنارة بخشب التوبا، يرشده زميل. التوبا خشب شديد الطفو، أفضل من الفلّين. يجهز الصيادون الطُعم: قطع كبيرة من ظهور الغزلان، من أفخاذ التاپير[33] الدامية المحشوة بالتوبا. تهرع التماسيح، بأفواهٍ ضخمة تلتهم قطع التابير أو الأكاراهواسو، وهي أسماكٌ ذات جلدٍ يشبه النمر ويحتل رأسُها نصف جسمها. يقف خشب التوبا في حلوقها، ويجبر التماسيح أن تظل أفواهها مفتوحة. ببطء تغرق، وتغطس تحت المياه الرمادية. وبعد برهة، تطفو التماسيح،ترفعها خفة التوبا. ويندفع المساعدون، هو نفسه، إلى الماء للقضاء عليها بالعصي. "وكلّكم، يا لصوص، يا لوطيين، يا أولاد القحبة، ستشهدون العقاب، إنزع قميصك - أمر الرائد باسوركو، الآن رائد فعلا - اربطوه!" يطيع الجنود، يخبطون الجذع بأعقاب البنادق: وعلى الفور يغطي النمل جسده.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

## 5. قرب زهور الداليا، تظهر المجهولة من جديد

هبطت في شارع كوڤييه. لم لا أزور "حديقة النباتات" [چاردان دى پلانت]، التي في مقرها تأمّلتُ الحلزون الذي لا يُنسى؟ دلفت عكس اتجاه حشد الأمهات والأطفال الذين، بانتهاء ألعابهم، كانوا عائدين إلى بيوتهم. وفي وسط المبنى المركزي الباذخ تبيّنت ربّة العِلم تحيط بها ميداليات حجرية كبيرة عليها صور الحكماء الذين كشفوا بصورة خالدة غموض الكثير من ألغاز الكون. على اليسار: جي دو لا بروس، وفاكون، وبوفون، وكوڤييه، وچوفروا سانت - إيلير. وعلى اليمين: لامارك، وبروجنياس، وچوسيو، وهاڤي، وجاي - لوساك. وتحمل الشوارع الموازية أو المؤدية إلى الحديقة أسماءهم. دون أن أتوقف للنظر إلى تمثال بوفون، تقدمت عبر طريق كوڤييه، الموازي لممشى أشجار الحور المركزي الكبير، وتظلله أشجار الموز، البالغة النضارة والعطر خلال الأصياف.



t.me/qurssan

إحمرّت السماء. تمرّد الغسقُ فوق سقوف باريس. دخلتُ ممشى الحور الكبير. واستسلمت لغواية حريق زهور الداليا الصفراء، والبيضاء، والحمراء، والقرنفلية في الحدائق المركزية. وعند بلوغي زهور الداليا القرمزية التي تطوّقها هالة زهور الداليا البنفسجية، ويُبرِزها البهاءُ الرقيق لزهور الداليا البرتقالية، رأيت من جديد مجهولة لا كوبول. أبطأ الذهولُ سيري. كانت تمشي مستغرقة. هذه المرة بدت لي أصغر حجما. كانت ترتدي جونلة من القطيفة البنية. كان يمكن للجَيبَين الضئيلين لقميصها الاسكتلندي بلون النبيذ، المجاورَين للحزام الجلدي الأحمر الذي يطوّق خصرها النحيل، أن يكسباها هيئة غلامٍ لو لم يتسيَّدهما النهدان خلف نسيج الكاروهات. لا، لم تكن أصغر حجما: فقد بدا أن الجونلة تجعلُ هيئتها أنحف. رفعت عينيها الزرقاوين. في يدها لمحت كتاباً، أيَّ كتابٍ عن تشيلي، لأنني تبيّنت على الغلاف كلمة "أليندى". اقتربتُ. وبشجاعة جندي أوكلت إليه مهمةٌ انتحارية، بابتسامة هادئة ولامبالية، ففي هذه الحالة، ما الذي يمكن أن يخسره جندي؟، كذبتُ:

- كنتُ في سانتياجو حين سقط أليندى...

توقفت هي، وواصلت أنا:

- أردنا أن نصنع كل شيء في آن واحد، دون أن نعرف أنه يتوجب على الثورة معرفة كيف تضع لنفسها حدودا...

- هل شهدت قصف قصر لامونيدا...؟

- لم أشهده: فقد عانيته - قلت لها وعيوني مغرورقة بالدموع، التي أثارها جمالها لا جريمة بينوشيه، هي، لا المشهد الدرامي للحطام الذي تأملتُه، مثلها، في الصحف.

- ماذا حدث حقيقةً؟ - سألتني.



t.me/qurssan

- الأفظعُ لم يكـن القصـف... ولا الخيانـة المتوقعـة مـن العسـكريين الذيـن أقسـموا عـلى احـترام الانتخابـات الديموقراطيـة...

صارت زرقة عينيها داكنة.

- الأفظـعُ جـرى بعـد ذلـك. الاغتيـالُ الجماعـي للسـجناء، للأبريـاء، لأنصار أليندى، عمليات اغتصاب طفلات قرى هنود الكايامـبا. عمليات القتـل بالرصـاص، وبالمشـنقة، وعمليـات الإعـدام السريعـة في جزيـرة دوسـون، وفي مديريـات الشرطـة، ومعسـكرات الجيـش، في المـدارس، وفي استاد سـانتياجو القومـي. عمليات الدفـن السريـة، آلاف الجثـث المشـوهة والملقـاة في الخنـادق في مجهوليـة الرمـال...

اقتربنـا مـن مخـرج شـارع كوڤييـه. كانـت أمهـات متأخـرات تخرجـن دافعـاتٍ عربـات أطفـال، تتعرفـن عـلى أخريـات، وتتوقفـن لتبـادل الحديـث. كانـت الشـمس تشـحب فـوق منـزل كوڤييـه، الـذي تـكاد تكسـوه الكـروم. واصلنـا عـبر شـارع چوسـيو.

- ربما أفرط أليندى في الحلم؟ - سألتني.

- لا يمكن أبدا الإفراط في الحلم.

- لا يمكن صنع السياسة والشعر في آنٍ واحد - حدّدت هي.

- بالعكـس: لا منـاص مـن صنـع السياسـة والشـعر. فحـين لا يكـون الثـوري شـاعرا ينتهـي بـه الأمـر أن يصبـح دكتاتـورا أو بيروقراطيـا، خائنـا لأحلامـه ذاتهـا...

مررنـا أمـام المبنـى البائـس لجامعـة باريـس السـابعة. كان طلبـةٌ متعجلـون يهبطـون الـدرج، مُطلقـين النـكات أو مودّعـين فتيـات دون وجـوه، فبالنسـبة لي لم يعـد يوجـد سـوى وجـه وحيـد. نظـرت إليّ كأنهـا تعـود مـن بعيـد:



t.me/qurssan

- حين سافر ماو تسي تونج لحضور استسلام قوات الكومنتانج،كتب قصيدة في الطائرة.

بلغنا إشارة مرور شارع فوسي دى سان برنار. كانت الريح تبرّد أرجاء الليل وأنا أرتدي مجرد قميص.

- ربما سينعشك شايٌ - قالت.

دخلنا ليتوال دور. في الداخل اكتشفنا قاعةً صغيرة بموائد من الخشب نجت من الصعود الكارثي لأثاث الفورمايكا في كل بارات باريس تقريبا. وفي الخلفية، أمام مرآة ضخمة، وجدنا موائد خالية. طلبت شايا بالروم، وطلبت هي شايا فقط.

- أحيانا - قلت - تُجبِر السياسةُ على التخلي عن الأحلام. فالشعب الذي يناضل في ظروف معاكسة لا يمكنه تقديم تنازلات. عليه أن يستخدم كل قواه في المعركة الكبرى. ليس وقت القصائد...

- الوقت دائما وقت قصائد - قالت -، رغم أن السياسيين ينسون ذلك أحيانا، وحين يفعلون، ينسون الثورة. في ذهني الآن ماياكوفسكي. هاهو ذا رجل عرف كيف يكون في نفس الآن مقاتلا وشاعرا ...!

التمعت عيناها وتلت:

المجد لرفاق المستقبل!

الذين ينقّبون الفضلات المتحجرة ليومنا

ليكشفوا ظلمات أيامنا

ربما يتساءلون أيضا من أكون!



t.me/qurssan

أحدث فرط الانفعال فرجةً في قميصها. نظرتُ إلى أطراف نهديها؛ حافةِ الجلد التي لم تلوّحها الشمس، التي أنقذها بيكيني الصيف الفائت، والتي أظهرت لي اللون الحقيقي لجسدها. أحرقتني رغبة نفّاذة.

- لم يفهم لينين ذلك - واصلَت - في إحدى المناسبات قاطع بفظاظة حفل إلقاءٍ لمایاكوفسكي... لينين، زعيمُ الثورة البروليتارية الأولى، التجسيدُ الإنساني للمثال الذي كان يتغنى به مایاكوفسكي، استفظع جسارة أشعاره، فقاطعه وطلب علنا أن يلقوا أشعارا مفهومة، كلاسيكية...

- من وجهة نظره، كان لينين على حق - أجبتُ - فأمام جمهور أميٍّ بكامله تقريبا، مُشكّلٍ من عمال مُتعبين من العمل والقتال، أمام حشدٍ مازال قلبه متعوّدا على الشعر المقفّى، كان من الأفضل بالتأكيد إلقاء بوشكين. كان الجمهور ينتظر الجوهر الثوري لأشعار مایاكوفسكي، لكنهم ربما لم يفهموه بسبب جوانب جسارته الشكلية. كانوا سيفهمونه لو كان مایاكوفسكي قد عبّر عن نفسه في الأشكال الكلاسيكية الأورثوذكسية ، التقليدية لأشعار بوشكين.

هزّتني الرغبة من جديد. كنت قد استطعت الاقتراب منها، حقا، وكان عضوي المتصلّب يرتجف من التوق المدمّر، لكنها واصلت مهتمةً فيما يبدو بنقاشٍ كنت أنا قد بدأته بنية لا أن أواصله بل أن أنهيه سريعا. بمزاج متعكّر نظرت من جديد إلى الربْوتين اللتين تندفعان تحت قميصها الاسكتلندي. طلبت الحساب من الجرسون.

- بديهيٌ أن مایاكوفسكي ولينين لن يتفقا أبدا على القصائد التي يجب إلقاؤها...

عبَر وجهها ظلٌ، وفي نفس اللحظة تقريبا، عبرت ثغرها ابتسامةٌ بدا أن شيئا من الطفولة يتضرّع فيها.


t.me/qurssan

- هل يمكننا أن نتعشى سويا؟ - سألتُ.

فوق المرآة التي تُعيدُ صورنا، وجمهرةَ الزبائن، والمحادثاتِ المختلسة، بدا لي أن إصبع طباشيرٍ دون يدٍ يخطّط شيئا من قبيل الشفرات، أو الحروف، ربما رموز المعادلة التي تكون محصلة مصيرنا فيها رمزا وحيدا، وتُظهر اللوغاريتمات السرية التي تحكم طفولتها، وشبابها، ومستقبلها، والأرقام الملغزة التي تتماوج في نظرتها. خرجنا. تقدمنا صوب جسر هنري الرابع. واصلنا حتى ميدان الباستيل. تقدمنا عبر فوبور سانت أنطوان. لمحنا الأضواء المتعددة الألوان لمطعم لو پاپيروس. كان طهاةٌ متعجلون يضعون اللمسات الأخيرة على مأدبةٍ وشيكة، لأن مدخل وداخل المطعم كانا مُتخمين بأغصان الأزهار وخلف الواجهة، التي يتزاحم أمامها الفضوليون، يتقلّب مشوي شهي: خروفٌ بأكمله، متبّلٌ بالأعشاب، جذبتنا رائحته، يدور ويدور، تُذَهِّبه الجمرات، ويخترقه سيخ رفيع من الصلب. كان مطعما باهظا ولم أكن أستطيع أن أدفع، لا فيه ولا في أي مكان آخر، ثمن الطعام الذي يليق بلقائنا.

- هل ندخل؟ - سألتُ.

و دون انتظار جوابٍ عبرّت الباب. ولم نكد نعبره حتى قدّمت لنا فتاتان باسمتان أزهاراً. اقتربت سيدةٌ مليئة بالحيوية وأنيقة ورجلٌ سمين وأنيق أيضا، مديران دون شك، وبابتهاج غير معهود، قبّلانا في خدينا. فهمتُ بوضوح تام أنهم يخلطون بيننا وبين المدعوين الذين يجري تزيين المحل على شرفهم. وفاقم من الخلط ثلاثة عازفي كمانٍ طوقونا بموسيقى يونانية، بينما قادنا الزوجان من ذراعينا إلى المائدة الرئيسية. وكانت هي مشرقة، لا يخطر ببالها أننا في الحقيقة كنا على حافة الكارثة. وقرّب جرسون، أشد مجاملةً، دلواً فضيا ونزع سدادة زجاجة شمبانيا لم نطلبها. وفي محاولةٍ لتجنّب الأمر المحتوم، أدرت بصري إلى السيدة:



t.me/qurssan

- عفوا، يا سيدتي، أظن أن ثمة خطأً هنا...

- فات الوقت! كان الجرسون يقدّم زجاجة الـ مويت إي شاندون والمرأة تقدّم وردة لرفيقتي العديمة المسئولية، بينما عازفو الكمان العديمي التقوى يُصرّون على مضاعفة الحساب بأنغامهم الفينيقية.

- ماذا يطلب السيدان؟ - ابتسم الميتر.

- إختر الأفضل - قلت مُسلماً أمري للكارثة وللسعادة.

أحسست بامتلاءٍ غامر. ليَحدُث ما يحدث، فأنا حيٌّ، جالسٌ بجوار المرأة التي صارت كلَّ شيء بالنسبة لي. ماذا يهمني أن ينتهي بي الأمر في قسم شرطة؟ امتلأ المطعم بأزواج عشاقٍ بثياب الأحد، أزواج عشاق شباب وتجاوزوا سن الشباب، ضيوف الشرف الحقيقيين لليلة.

- لن أسمح لشيء ولا لأحد بأن ينغص عليّ بهجتي - قلت لها. وأظهرت هي لي أنها تعرف كل شيء:

- الإنسان يأكل حين يجوع، لا حين يملك النقود.

رفعَت كأس الشمبانيا، ونظرَت إليّ. اجتهد الجرسونات في تقديم المقبّلات. لا أدري كم من الوقت انقضى. وحين رجعتُ من شرودي، سمعتها تقول:

- ... هناك حيوانٌ واحد قادرٌ على أن يموت جوعا دون أن يجرؤ على لمس الطعام، رغم أنه في متناول يده. كل الوحوش تهجم وتموت مقاتلةً من أجل غذائها. الإنسان وحده يهبط إلى درك الموت من الجوع والبرد دون أن يحطم واجهات أي متجر من أجل البقاء حياً.

- الإنسان الذي لا يُطيع رغبته، يموت. يقول هيجل أن التاريخ هو مجموع الرغبات المرغوبة. وإذا كان التاريخ هو مجموع الرغبات المرغوبة، فإنه تاريخٌ غير متحقق. بهذا المعنى، فإن تراكم الرغبات المرغوبة لكنها غير مُشبَعةٍ هو شذوذٌ جماعي.


t.me/qurssan

- المشـكلة الجوهريـة لمجتمـعٍ مـا ليسـت العـدل، - قالـت -؛ إنهـا المتعـة. لكننـا بتشـوُّهنا نتيجـة مـا تسـميه أنـت التاريـخ الشـاذ، فـإن البشريـة ليسـت قـادرة عـلى امتـلاك متعتهـا.

- الإنسـان هـو حيـوانٌ لا يمكـن أن يُشـبِعه الواقـعُ وحـده. لا يتغـذّى بمجـرد الطعـام. فغـذاؤه الأسـاسي هـو الرمـوز. ولـذا، فـإن تدمير الرأسـمالية لأسـباب تتعلّـق بالعدالـة وحدهـا، سـيكون ضروريـا لكنـه محـدود. العدالة عـلى هـذا النحـو لا يمكـن إلاّ أن تقـود إلى إعـادة توزيـع الـثروة، إلى إعـادة توزيـع الرغبـة المتحجـرة...

- الثـورة لا تُعيـدُ توزيـع الـثروات فحسـب؛ بـل تخلقهـا. والمخـرَج الوحيـدُ مـما تسـمِّيه أنـت الرغبـة المتحجـرة هـو إشـباع تلـك الرغبـة في سلسـلةٍ لامتناهيـة مـن الرغبـات الحيّـة. ولا يمكـن أن يحـدث ذلـك أبـدا ضمـن حـدود مجتمـع باطـلٍ، ماضـوي، وبـلا حـراك.

- مُتّفقـون. الدرامـا هـي أن الثـورات تكـرِّر المؤسسـات. ليـس الأمـرُ خلـقُ دولـةٍ جديـدة، ولا جيـشٍ جديـد، ولا كنيسـة جديـدة، ولا عائلـة جديـدة. الأمـر يتعلـق باخـتراع مجتمـع لا توجـدُ فيـه لا الدولـة، ولا الجيـش، ولا العائلـة، ولا الكنيسـة.

- في هـذه الحالـة، هـل سـيكون الفـرق بـين الرأسـمالية وبـين الشـيوعية هـو الفـرق بـين رغبـةٍ متحجـرة وبـين رغبـة في سـبيلها للتحقـق؟

- قـوةُ الثـورةِ التـي لا تُقـاوم هـي وعدُهـا بالفـردوس. نظريـا، تطـرح الثـورةُ تدمـيرَ المجتمـع الـذي لا تتحقّـق فيـه الرغبـات واسـتبداله بآخـرٍ تتحقّـق فيـه الرغبـات. ومـن هنـا ليـس ثمّـة إغـواءٌ أسـمَى، ولا أشـدّ إبهـاراً مـن الثـورة. مشـكلة الرأسـمالية أنـه عـلى الجـدار الملطّـخ بـدم ملايـين الثوريـين الذيـن أعدِمـوا رميـا بالرصـاص، عـلى الجـدار الأخـير، سـيظل مكتوبـا وعـد سـان جوسـت: "لا يجـب أن تتوقّـف الثـورةُ إلاّ عنـد السـعادة".



t.me/qurssan

- لا يجب أن تتوقف حتى عند السعادة - قاطعتني ، وقد اتسعت عيناها لا إدري هل بسبب الموسيقى، أم الشمبانيا، أم الوعود الكبرى، وتوردت وجنتاها، و استبدت قوةُ دفع النهدين بالقميص الكاروهات.

كنا قد بلغنا منتصف الليل. وشى بطءُ الجرسونات بنهاية العشاء. كيف سندفع ثمنه؟، عاودني القلق. حسنا! لكن، أيّ ثمن يمكن أن يكون لليلةٍ كهذه؟ شعرتُ بقدَري خفيفا. كم من مرةٍ يتوقف الرجال عند ناصيةٍ ويترددون بين شارعين، دون معرفة أنهم لو أخذوا الشارع على اليسار سيصادفون، ربما في مقهى أو تحت بوابة، المرأةَ التي ستُحيل وجودَهم أعجوبةً أو تُدمِّره؛ ولو أخذوا الشارع على اليمين سيسعون إلى بارٍ بلا اسم، إلى مشاجرة سكارى، إلى الطعنة الأخيرة؛ بين السعادة والشقاء، هل سأختار أنا الشارع الصواب؟ مُتوقِّفا في ذلك المفترق الخيالي قررتُ، حتى أظلَّ معها، أنه لن يهمّني، بل ولم يعد يهمّني فعلا، أي شارع.

- المزيد من الشمبانيا - أمرت.

هرع الميتر لإحضار زجاجة مويت إي شاندون أخرى مصحوبةً هذه المرة بتشكيلةٍ فاخرة من الحلوى. ومُتذكرا أن لينين قال أن السجن أفضل مدرسة للثوريين، طلبت الحساب.

نظرت إليّ عيناها العجائبيّتان.

- إسمي ماري كلير. برج الثور وماركسية، تيّار جروشو.[35]

- إسمي سانتياجو. برج الحوت. وماركسي. تيار ماري كلير.

اقترب مالكا المطعم باسمين ووضعا الحساب تسحقه زهرةٌ، في صينية فضية صغيرة.

- أيها الصديقان العزيزان، اليوم افتتحنا مطعمنا. وكنتما أول زبائننا. وكفألٍ سعيد من أجل ازدهار منشأتنا، التي نعرف أنكما



t.me/qurssan

ستعودان إليها باستمرار، نرجوكما أن تعتبرا نفسكما ضيفينا. تمنّيا لنا حظا سعيدا. هذا كل ما هناك.

اصطحبَنا عازفو الكمان المباركون حتى الباب. التمع قمرٌ غير معقول فوق باريس، غير معقول ووضّاء بدرجة أقل من النظرة التي قالت لي بها:

- الصدفة كانت تحتفظ لنا بهدية العرس.



t.me/qurssan

# 6. يظهر ديڤيد پنت، الزعيم اليانكي ومقاتل العصابات الكامپا

ينظر إرهاقُه، فوق الماء، إلى الجماجم الغادرة لأخشاب الموينا، والپالو - تورنييو، والتشيهواهواكو، والماهوجني وغيرها من أشجار لا يستطيع تحديدها: جيش الجذوع المرهوب، غابات قضت نحبها تتقدم وقممها كخوذات جنود مدفونين في الماء البنيّ. الرؤوس الفخورة للأشجار الشاهقة الارتفاع، التي كان يُتوّجها منذ قليل صراخ القردة والببغاوات العصبية، وهي الآن جذوعٌ مقشورة، ترفع جبهاتها الميتة ثم تعاود إخفاءها، وهي أكثر فتكا، على عمق كفٍ من السطح المُزبِد. قفزت الذكرى وابتلعت رقبة زجاجة البلاك آند وايت. وإذ يُعضعِضُ النهرُ جروفَ الضفاف، تتهاوى، انهياراتُ تربةٍ سوداء، وحمراء، ومصفرّة، تشكل جزراً كبيرة سوداء، وحمراء، ومصفرة، وتُقيم أسوارا من الحراب المشوّهة في انتظاره. هاهو سياجُ الجذوع من



t.me/qurssan

جديد يجذبه بعيونٍ من الخشب الميت! قفز المستقبلُ من الكأس وصار وردةً من جديد. يجدّف صوب الضفة اليسرى. انقضّ حشدُ الأصفرِ على اعتزاز النحاس. تمكنت ذراعاه المتيبّستان من بلوغ منتصف النهر. منتصفُ النهار. منتصفُ العمر. الموتُ قبل بلوغ الثلاثين؟ يدعُه سياجُ الجذوع يمضي. أيدعه يمضي؟ ينظرُ بخيبة أملٍ إلى دَفق القطيفة. بالنهار يمكن التنبؤُ من بعيدٍ بتقدم جذوع التشيهواهواكو، التي من خشبٍ يبلغُ من صلابتة أن الغافلين على الأرض يحسبونه جداراً من الصخر؛ وبالليل لا يمكن تخمينه إلاّ بالدويّ الذي تُحدِثه الجذوع عند تقدمها في وسط الماء. انقضت ثمانية أيام. يشعر بسياج الجذوع في الظلام. يأتي الزئيرُ من جهة اليسار، يجدّف صوب اليمين، يرسو حيثما استطاع؛ أرضٌ صخرية، هناك ينتظر طلوع النهار. يبلغ به التعب أن يسقط في النوم وهو يمضغ اليوكا قبل الأخيرة. يعود في الحلم ليصبح طير بشروش. رأيتُ سواد ريشي، ساقيّ الطويلتين الصلبتين، بلون الزمرد، أغمق من جزيرة الريشات الخضراء الصغيرة التي تزيّن جبهتي. شعرت بالفخر لكوني ترومپيتيرو[16]، ذلك القريبُ البالغ السرعة للبشروش. لم يكن سوادُ ريشي ما رأيتَه بل حدقتيّ فتاة. تعرّفت على نفسي في ذاك السواد الفاحم. حينها فقط انتبهت إلى أنني لست طير بشروش حقا بل طير بشروش مرسوم تنظر إليه الفتاة في لوحة. في ألوان عمق اللوحة الذي تتأمّله الفتاة تحلق طيور بشروش. كنتُ أتقدم السرب الثاني. ظلت الفتاة وقتا طويلا تنظر إلى السماء الملونة. لم تستطع الانفصال عن الرؤية. نفد صبرُ مرافقيها، حاولوا بمودة إبعادها عبر ممر تحيط جانبيه دفقات من القطيفة المتعددة الألوان مثل ريشي. لكن الفتاة لم تُرِد الذهاب. كانت نظرتها تبعث الحرارة في المنظر الطبيعي: خضرة الأجمات التي نحلق فوقها، مياه النهر الأصفر، الرياح التي تحملني. أجبرتها أيدي مرافقيها بمحبةٍ على الابتعاد. وعند الباب استدارت، ونظرت إلى اللوحة للمرة الأخيرة. تأملتني بتركيزٍ بلغ حدّ أن أذابت رقّتها اللوحة، الألوان



t.me/qurssan

التي أحيا سجينا فيها. هربتُ. ومُستهلاً جناحيّ اندفعت صوب ... يستيقظ في الماء. لا، ليس الماء، إنه على الأرض. نعم إنه الماء: المدّ الذي ارتفع خلال الليل، يوشك أن يسحب الطوف. يجذبه أكثر ناحية الأرض. يكتشف كِسرَتين من اليوكا. أعاد له النوم عافيته، وأعادت له اليوكا حيويته. يدفع الطوف إلى النهر ويجدف ملتصقا بالضفة. المدهش أن التيار يُطلق الطوفَ بسرعةٍ مذهلة، يُغرِقه، يرفعه، يغرقه، يرفعه، يغرقه، يرفعه. عضّ 16 أغسطس 5 يناير، ضحك 6 أكتوبر بصفاقة. يصعد ويهبط، يصعد ويهبط، يصعَيهبط. بهذه السرعة يستحيل التجديف. حتى التنفُّس مستحيل: لايدخل الهواء من الأنف. كل ما يبقى أمامه أن يتشبّث بالألواح ويبتلع الماء. فجأة يشعر بانعدام قواه. ينظر إلى بودار. الواشي الذي يشغّل وراء ظهره جهاز لاسلكي، لا ينتبه إلى دخوله. "وصلت إلى معسكر الجرينجو[37] ستة مواتير للقوارب ماركة جونسون وخمسون بندقية (فال)، حوّل". من الغرفة المسقوفة بالزنك يتصاعد بخارٌ خانق. يمرّر بودار مرفقه على جبهته العرقانة، ويعدّل وضع السماعات. شكرا لهذه المعلومات، يا بودار - يجيب اللاسلكي -، لكننا مهتمون أكثر بمعرفة لقب من تسميه الجرينجو. نكرر: لقب الجرينجو". "لا أعرف، حوّل". "نحتاج أيضا إلى معرفة المكان الدقيق الذي ستبدأ فيه العمليات، أكرر: المكان الدقيق للعمليات. حوّل". "حتى اللحظة لم يتقرر الأمر بدقة. بعض البيانات تشير إلى أن العمليات الرئيسية ستنطلق في ساتيپو وتتواصل في پوكوتا. حوّل". "نؤكد - يقول اللاسلكي -، نريد معرفة في أي مكان بالضبط من منطقة پوكوتا. حوّل". يبدو لي أنهم يخفون عني شيئا - يقول بودار -. لا أعرف بعد المكان الدقيق للانطلاق". عندها شعر بماسورة البراونينج في رقبته، استدار، لم يبلغ حد رؤية انفجار نتف مخه في الهواء الجيلاتيني. قفز 7 سبتمبر إلى الترابيز حيث كان ينتظره ذراعا 8 يناير. أفلحت سرعةُ الماء في إرعابه. هو لا يشعر بالخوف، جسده نعم. طفولته، مراهقته، ذكرياته، لحمه، كلها تشعر بالخوف، هو لا. لحسن



t.me/qurssan

الحظ يلمح قطعة الحبل التي في قاع الطوف مربوطةً إلى رقبته. تبطيءُ أصابعه في الإمساك بطرف الحبل، وتبطيء أكثر في تطويق خصره بالحبل، وأكثر في عقده، وأكثر في ربط الطرف الآخر بالطوف. بكى الحريرُ، والقلمُ الرصاص اللامبالي مثل المشغولات الفضية النائمة، عضَّ مزمارَ القِرَب. ليس تيارا واحدا، بل تياران يتقدمان ليتلاطما. سرعان ما ستتحطم جبهة نهر التامبو على الخصر المقدس للأوروبامبا، النهر المقدس. مربوطا، يشعر بالأمان. ولا يبقى سوى تحمل النَفَس. سيغرقه عناق النهرين. كم من الوقت؟ يتذكر كيف عرف الجرينجو بنت. أصدر جيبرمو تعليماته لهما: "أنت وأرتورو ستسافران لرؤية ديفيد بنت. ستهبطان خمسة ايام في نهر مانتارو، وتواصلان بالطوف عبر نهر التامبو، وفي اليوم السادس أو السابع ستصادفان مساحةً رملية هائلة ثم شلالاً. هناك يعيش ديڤيد بنت، من السهل اكتشاف بيته ذي السقف الزنك، فهو هائل الضخامة". وبعدهما بتسعة أيام، عاريَين تماما، فقد جرّدهما الماء من المؤن، والسواطير، والأسلحة، والثياب، لمحا منزل بنت. هبطا وقد خارت قواهما. هبط جرينجو طويل، ممتلىء، بشكلٍ طبيعي لاستقبالهما، مبتسما. كان يشهر بندقية متأهبة. وإلى جواره، متأخرا، كان يتبعه رجل قصير، بدين، له عينان ضئيلتان، ذبابة ميتة: بودار. شككتُ في بودار منذ البداية، هذا ما يقال حين يكون الوقت قد فات، دائما ما يُعرف الأمر حين يصبح كل شيء بلا جدوى. "مساء الخير"، حيّاه أرتورو. "مساء الخير"، ردّ ديڤيد بنت. باستثناء حروف الراء، كان يتحدث قشتالية غاباتٍ حقة. "عمن تبحثون؟"، تهكّم عارفا بكل شيء. فقد كان هنود الكامپا الذين يعملون معه قد أبلغوه أن غريبين يهبطان من طوف. كان جلده داكنا كجلد هندي. ومع ذلك الجلد يصبح فضيحةً ذلك الشعر الأشقر الطويل، المتموّج بعض الشيء، والعينان ذاتا الخضرة المتحوّلة اللوزية، المفتوحتان عند قمة طوله البالغ مترا وخمسة وثمانين. كان غير مُبالٍ بمظهره، الذي تقلل منه، بالتأكيد، إيماءاته الخرقاء. نبحَ الزجاجُ،



t.me/qurssan

وتبوّلت الشمسية رماداً يغنّي نشيد المارسييز. نظر إلينا ديفيد پنت عاريَين، مخدوشين، جائعين، مُدمّرين. "لماذا خلعتما ثيابكما مادام الحر ليس شديدا؟"، سخر. "بعثنا القومندان من فوق"، قاطعته صرامة أرتورو، الذي لا يستسيغ الهزل. "إتركا الطوف وادخلا"، أمر ديفيد پنت. يسمع هسيس دوامة أخرى. يرى أضواءً نائية. يغرس المجداف في قاع النهر ويدفع، يدفع، يدفع صوب الضفة. يهرب الطوفُ لامساً الدوامة! يدخل مياها هادئة. مربوطا دوما بالحبل المنقذ، يتمدد فوق الألواح، ينام، ينام؟ لا، لم تتبقّ يوكا. لا يوكا ولا ضوءُ خنزيرٍ بري ولا مرآةٌ بطيخ: أيتها النجمات الصغيرات، النجمات السائرات، المثلثات الباردة التي تعرّقُ نظريات، الطائراتُ التي تمُسك بها ببغاواتٌ من السيلوفان! في حلمي عدتُ لأصبح مانشاكو، أحدَ طيور البشروش البنّية تلك التي تبلغُ حجمَ رجل. تمددت ساقاي الحمراوان - السوداوان تحت ريشي. رأيت لانهائية البحر الذي نحلّق فوقه، المحيط اللامحدود الذي لم يفرغ إرهاقي من عبوره. بلغ تعبي حدّ أن بدأت ساقاي تخونان جهدَ جناحيّ، وعندها، بارتياح، استشرفتُ شواطيء بيضاء ينتهي عندها البحر. خار جناحاي، لم يستطيعا المزيد. وفي هذه الأثناء رفعت يدٌ، يدٌ تستعصي على الإدراك، الأفقَ، وبرعبٍ، بعدم تصديق، رأيتُني وسط بحرٍ آخر، من المستحيل لي الهبوط فوقه. كان عليّ أن أعبر المحيط من جديد وعبرته مرة أخرى، ومرة أخرى تراجع الأفقُ أمامي، فعبرته مرة أخرى فأخرى. بعدها فقط انتبهت إلى أنني لستُ أنا ولا البحرَ بحرٌ ولا البشروش بشروش بل صورٌ في كتاب تتصفحه شاردتين يدا طفل صغيرتان. يفاجئه ضوء النهار قرب لاجارتو- پويبلو. عند حافة النهر يرى أشجار نخيل، وبيوت، وفتيات تحملن جرار ماء فوق رؤوسهن، أناساً يمكن أن يتعرفوا عليه. يوجّه الطوف نحو المنتصف. يسحب التيار أغصانا. يلتقطُ جريدَ نخيل، ويختبيء تحت السعف الكثيف. تهبط لنشات الشرطة الأنهار مستفسرةً عنه. وحسب ما يرى السكان، سيقولون: "مرّ رجل فوق



t.me/qurssan

طـوف" أو مجـرد "مـرّت جـذوع". في تلـك الفـترة، عـبر النهـر، بعـرض كيلومـتر، لم تكـن تتجـول سـوى أطـواف. لا تصعـد القـوارب: ففيضـان نهـر الأوروبامبـا يُوهِـن عزيمـة الجميـع، وحتـى الصياديـن المحنكـين لا يتشـجّعون عـلى عبـوره، ولا يفعلـون إلاّ للطـواريء. يأمـر القباطنـة بإلقـاء المرسـاة في الخلجـان غـير مبالـين بمطالبـات التجّـار، وينتظـرون هبـوط الميـاه وهـم يلعبـون الـورق. قـدم لهـم الجرينجـو پنـت طعامـاً طبيـخ هوانجانـا بالطماطـم، لحـم الخنزيـر الـبري ذاك، خنزيـر بـري آكل للحـوم وخشـن الطعـم، وللحلـو شريحـة فاكهـة أنانـاس ضخمـة. بعدهـا فرّجهـم عـلى المخزونـات، صفـوفٍ مـن صناديـق الديناميـت، وبنـادق ذات كعـوبٍ مسـوّدَة، وموتـورات مراكـب. "هنـاك أيضـا مدافـع رشاشـة". "قليلـة"، قـال پنـت. "والذخـيرة؟"، قاطعـه أرتـورو، الصعـب الإرضـاء. خرجنـا إلى الغابـة، وتقدّمنـا في المـدقّ ديـڤيـد پنـت، وأرتـورو، وأنـا. وخلفنـا عينـا بـودار. أخذنـا پنـت إلى المسـتودع. تحقّقنـا مـن أن المخـزون الـذي يرعـاه يُناظـر مـا نحملـه في ذاكرتنـا. وبـودار ينظـر إلى كل شيء، ويُحصي كل شيء، ويتجسّـس عـلى كل شيء. عاودنـا تمويـه المخزونـات بالأغصـان والبـوص. "حـوّل وانتهـى"، قـال اللاسـلكي. في طريـق العـودة قابلنـا ثـلاث هنديـات كامـپا شـابات، واثنتـان أخريـان عنـد بـاب المنـزل، وخمـس أخريـات في المطبـخ تنتفـان ريـش الدجـاج: كـن جميعـا يقطعـن أعمالهـن لينتشـين ناظـراتٍ إلى پنـت. لم تنظـر أي منهـن إلينـا. كانـت نظراتهـن وابتسـاماتهن لـه وحـده. لسـن هن فحسـب بـل كل هنديـات الكامـپا في المنطقـة، الطِفلات، والمراهقـات، والنسـاء، كـن يحلمـن بقضـاء تلـك الليلـة، وبقيـة لياليهـن، مـع الجرينجـو ديـڤيـد، إلههـن المتعـدّد الزوجـات، الزعيـم اليانـكي ومقاتـل العصابات الكامـپا. انقضت عشرة أيام. النهر ينساب الآن بهدوء.



t.me/qurssan

# 7. المعركة التي يصرعُ فيها المهزومون المنتصرين

أخيرا صارت عارية. القمر الذي كان ينسلّ من بين شقوق الشيش الخشبي أظهر جسدَها منتصبا، وظهرها إلى الفراش، في مواجهتي. اختفت يدي اليسرى في شعرها. وصعدت اليمنى عبر ذقنها حتى العينين المغمضتين؛ ودون رغبةٍ التقت بيسراي في تجويف الرقبة حيث يبدأ في التمايل العمودُ الفقري، خطُّ استواء هذا البلد الذي يرتجف. ربما تخيّلت الأصابعُ الخمسُ المستكشِفة لليد اليسرى التي كانت، خائفةً من المجهول، تستشرفُ تلك الأرجاء، أنها وحدها، لكنها في فرجةٍ من الأجمةِ الفاحمة التي تسقط فوق الكتفين. هناك حيث ظنّت أنها تاهت لبرهة طويلة، التقت بالبقية. توجّس المستكشفون العشرة من بعضهم في الظلام، تعثّروا، تعرّفوا على بعضهم، جروا ليتعانقوا ببهجة اكتشافِ موضعٍ خالٍ من الكمائن في أرضٍ معادية. هدأوا فشرعوا سويا في هبوط الالتفافات التي توقفت عند الخصر، وواثقين من الأرض التي عرفوها، واصلوا الهبوط ببطءٍ، ببطء



t.me/qurssan

شـديد، عـبر هُـوّاتٍ وأخاديـد تجعـل مـن الصعـب أو مـن المسـتحيل أي رجـوعٍ. قبّلتُهـا، قبلتهـا، قبلتهـا. عـاودت أصابعـي الصعـود، تفرّقَـت إلى مروحـةٍ مزدوجـة صـوب الكتفـين. بعـد أن كسـبت المنحـدرات انزلقـت، وتدحرجـت قليـلا، ثـم تمالكـت عنـد سـفوح تلّـينِ متماثلـين. لاهثـةً مـن المجهـود، ومـن عـدم يقـين جهلهـا أي بلـد يمتـد خلـف هذيـن الجبلـين، تأمّلـت القمـم. بـدا أن الأرضَ تهتـز. لكنـه لم يكـن زلـزالا. كان خوفهـا ذاتـه الـذي لم يفارقهـا. صعـدَت المسار واسـتولت، وهـي تلهـثُ الآن مـن الفـرح، عـلى قمتـي النهديـن، وجـدت بُسـتانَين، عضعَضـت صيفـاً مـن الكـرز. جعلتهـا الطزاجـةُ غـير المتوقعـة تسـتردُّ عافيتهـا. مشـتعلةً راقبَـت مـن الأعـالي سـهلا خامـلا. طوقَـت المنبسـط، أمسـكتُها مـن إليتيهـا، سـتهاجم الأصابـعُ بغتـة، ربّـتُّ عـلى الاسـتدارات، كان الأفضل عبور الأرض المكتشَـفة بسرعـة، فالسـهول أكـثر خطـرا، لمـس نفَسُـها عنقـي، لم يكـن ثمـة صخـرةٌ للاحتـماء، استسـلمت رأسُـها فـوق كتفـي، في الأراضي المكشـوفة يكـون الخطـرُ دائمـا، أراد جسـدُها السـقوطَ، الانهيـار، التراجـع، دفعـي إلى المتعـة، المـوت يترقـب في الأراضي المكشـوفة، لم أتركهـا، سـندتها، ضممتهـا إليّ، أخـيرا خلّفـت الأصابـعُ وراءهـا عـدم يقـين الأرض المسـتوية، اقتربـتْ مـن غابـة، ومتخيلـةً الاحتـماءَ اسـتولت عـلى الشـجيرات الأولى، شـلّت يـدي اليـسرى حركتَهـا ملتصقـةً بظهرهـا، شـعر المستكشـفون الباقـون بطقطقـة أغصـان، هـل هـو العـدوّ؟، اصطـادت يـدي اليمنـى شـعرَ فرجهـا المبلّـل، اقتربـت الطقطقـاتُ، احتدمـت. هـل هـو العـدوّ! لحسـن الحـظ عـثروا عـلى مـلاذٍ مؤقـت، انغمسـت يـدي بـين مياههـا، لم يكـن سـتراً بـل خندقـا، لم يكـن خندقـاً بـل فخـاً، خرجـت يـدي مـن بـين فخذيهـا، صعـدت مُبلّلـةً بطنهـا، وسرّتهـا، وفرجهـا، ونهديهـا، ورقبتهـا، وذقنهـا، وفمهـا. بلّلـت شـفتيها بلعـاب لعابهـا. احتضنَـت هـي قفـاي، تهـاوت، تهاوينـا ببـطءِ التصويـرِ في حلـم. سـقطنا، واصلنـا السـقوط. تمالكـت نفسـها، فتحَـت عينيهـا النديّتـين، التقطَـت أنفاسـها وأمسـكت وجهـي بيديهـا.



t.me/qurssan

- أحيِني، أحيني! - قالت بصوت مخنوق -. حتى الآن كنتُ أُوجدُ فحسب. أودُّ أن أُولد...!

كان القمر ينثرُ دقيقه فوق أثاثٍ قليل: منضدة صغيرة، وخزانة ريفية بثلاثة أدراج ملونة بلون بنفسجي يسوِّده الضوء، مقعد منجّد بقماش بنّي ناحل، وخلفه، على الحائط، الألواح الخشنة التي تتزاحم فوقها صفوف الكتب. وفوق الرفّ الرخامي للمدفأة، يرسم الضوءُ الخافت ملامحَ الفوضى الرائعة للصخور والمعادن التي تم جمعها خلال رحلاتٍ تبخرت. وُجِدت، في تلك الساعة، دون شك، في باريس، شققٌ باذخة، بأرائك، وسجاجيد، ومشغولات عاج، ومقاعد وثيرة، وفازات ثمينة، وحوائط مكسوة بالأخشاب واللوحات التي لا تقدر بثمن، وأبسطة تُضفي النعومة على مقار فخمة. إلاّ أن أياً منها لم يكن يُقارن بتلك. فالآن، فوق تواضع هذا الأثاث، كان قد استقرّ تنصيبُ لحظةٍ فريدة.

- نعم، نعم، نعم...

في الفراش، نظر جسدانا إلى بعضهما كجيشين يتواجهان بتوقٍ وخشية. شمسُ يومِ المعركة تُشقّق الظلمةَ الأخيرة. أخيرا تُظهر الشبورةُ، على البعد، الأشكالَ المرهوبة للعدو، مُغبَّشةً لا تزال. تُتوِّج المسافةَ بالصُّلب، بالخطر، بالموت أو ربما بالنصر. يشتّت إحساسٌ بالدهشة الصفوفَ التي ستتحمل وطأة الهجوم. واثقين في الخيالة، التي تتبختر، سليمةً ما زالت، وبتكاسلٍ مُصطنع، يستعد رماةُ السِهام. تبدأ الشمسُ في رسم ميدان المعركة الذي، قبل الغروب، ستُبيّضه العظامُ. ورغم الكُره، لا يستطيع الخصومُ منع أنفسهم من الإعجاب بالشمس التي تلتمع ملضومةً في الحِراب. وأشدُّ ثِقلا ورعبا من أي انعكاس، تبرقُ، في السيوف المرفوعة، ظلمةُ الموت. في جذب الأعنّة المباغت تحدِس الخيولُ أن هذه المرة لن تكون تبخترا بل عدْوا سترفس في ختامه عذابات. ناظرا إلى جيشه المصطف، وعرباته



t.me/qurssan

الحربيـة، ونظـام الخيالـة، بـكي قـورشُ العظيـم لأنـه بعـد مـرور مائـة عـام لـن يكـون أحـدٌ مـن محاربيـه الرائعـين عـلى قيـد الحيـاة. قبّلتُهـا، قبلتهـا، قبلتهـا. ببطء تشـهر العربـاتُ الحربيـة الرمـاحَ. وأثنـاء مرورهـم يسـتجمع الفرسـانُ حماسـة عدْوهـم. تُسـمع صيحـاتُ قـادة السرايـا. لكننـي بكيـت لأننـي بعـد مائـة عـام، تحـت الأرض، سـأظل أتذكرهـا. قبّلتنـي، قبلتنـي، قبلتنـي. حتـى يكونـوا مثـلا وموضـع ثقـة لأتباعهـم، يُحـرِّض القُـوّادُ بصدورهـم حـراب الخصـوم. وبقـدر مـا يبـدون خاملـين لعيـون رجالهـم، بقـدر مـا يبـدون لا يقهـرون. وهـم كذلـك. امتـزج لعـابي مـن جديـد مـع لعـاب لعابهـا، حيـوان زاحـف وطائـر، دمعـة وعسـل بحـر. طـوّق لسـانها أذني، وهبـط بطـول الرقبـة، صـارت حـرارة صـدري لا تطـاق. بنظـرة تسـتعصي عـلى الفهـم، اسـتعرض الجـنرال سراياه، الضبـاط المتوتريـن، ورمـاة القنابـل تغطيهـم قلانسـهم مـن جلـد الـدب، وخـوذات النحـاس الأحمـر والنسـر تتوجـه الريشـة القرمزيـة. معاطفهـم تنتفـض، وتخمـد. تـدوّي الأبـواق. يهبـط القـادة الميدانيـون عـدْوا وهـم يوزّعـون الأوامـر. عـاودت إغمـاض عينـيّ. يبـدأ الفرسـان المدرّعـون التقـدم. ينتقـل الفرسـان، في رعـدٍ مـن المهاميـز، مـن الخبَـب إلى العـدْو، جاثمـين فـوق سروجهـم، صاعديـن وهابطـين، هابطـين وصاعديـن، وكل حيويـة الجسـد متجمعـةٌ في اليـد التـي تشـهر الحربـة، التـي تـودّ لـو تطيلهـا، تجعلهـا تنمـو، أكـثر مـن أي حربـة للخصـم. ابتعـدت هـي، وضعَـت ظهـري عـلى السرير،حاولـتْ الصعـود. خادشـاً الشـمس بحرابـه، مُمزّقـا النهـار بـلا منـاص، مُخلّفـا سـحابة غبـارٍ مـن ذهـب، يعـدو العـدو، هابطـا وصاعـدا، صاعـدا وهابطـا، هابطـا وصاعـدا. وضعتُهـا عـلى ظهرهـا، فرّقـتُ شـعرها بفمـي، عضضـت قفاهـا، بـدأتْ تتـأوّه. بفرقعـة حـرابٍ، صُلـبٍ في مواجهـة صلـب، حيويـة في مواجهـة حيويـة، شـبابٍ في مواجهـة شـباب، تصطـدم الطلائـعُ. رجـالٌ كانـوا منـذ لحظـة ينظـرون إلى الشـمس، يتأملـون الليـل الـذي بـلا عيـون. صـدورٌ لا تُـروَّض، خصـورٌ مـن الحديـد، أفخـاذٌ لا تعـرف التعـب، تـدور محطمـة. ولجتُهـا أكـثر. يمتـزج لعـابُ أفـراسٍ كُميـتٍ محتـضرة بلعـاب



t.me/qurssan

فرســان محتضريــن. تمتــلىء الغرفــةُ بصرخــات فرســان هوســارٍ صرعــى، وســيقانٍ ممزقــة، وبطــونٍ مبقــورة، وسرايــا مشــتتة.

وعــلى اتســاع ميــدان المعركــة حيــث يــصرعُ المهزومــون المنتصريــن، انطلقــت صرخاتنــا، صرخــات مــن وُلِــدوا لتوهــم.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 8. يقول سپينوزا أن كلّ حزنٍ هو خصمٌ من المرء ذاته

ليس الهاربَ الوحيد! ففي ديسمبر، حين تهطل الأمطار العظمى، تسمن الأنهارُ مثل جثث آلهة: تنتفخ مثل المياه التي تتدفق من الأنابيب، مثل المنحدرات الممتلئة بسيول المطر، وتقتحم التياراتُ بعنفٍ بالغ جانب الأوروبامبا حتى أنها تعبره أحيانا حتى الجانب الآخر. وماءُ الروافد الجديدة أقلّ دُكنةً من دفقه الأصيل الذي، تغذيه تياراتٌ دخيلة، يواصلُ طريقه غير مبالٍ حتى تحالفه مع المارانيون. يبلغ الماء حدّ أن يغمر عشرة، عشرين، ثلاثين كيلومترا من الأراضي المنخفضة، وتتباعد الضفتان حتى تغيبا عن الأنظار. والغابات التي كانت تنتصب في العشية على الضفاف تقف في منتصف النهر، تظهر منها بالكاد أغصانٌ بنية. يباغت صخبُ الفيضان حشودا من الحيوانات وحتى من البشر. وبفضل الأغشية في أقدامها، فإن حيوانات الرونسوكو[38]، وهي ذواتُ أقدامٍ ملتحمة، ضخمة مثل خنازير صغيرة، هي أكبر قوارض في العالم، تنجو من الاضطرابات، لكن قري حيوانات



t.me/qurssan

المدرّع[39] البطيئة، وتجمعات الظربان[40] العصبية، والقردة الليلية الأنانية والضخمة التي ترى قمم مساكنها العالية تسقط تحت الماء، وقبيلة السلاحف المتحيرة، تهرب، جميعا، تحاول الهرب من المياه المهتاجة. ليس الهارب الوحيد! يعبر عينيه هلعُ الحيوانات التي تحاول النجاة، خنازيرُ برية غارقة، رباعيات أيدٍ تغرق، أشجار منتزعة. وتهرب الأسماك المفزوعة: أسماك أكاراهواسو ضخمة مرقشة، وأسماكٌ مجنحة، وجاميتاناس[41]، وأسماكٌ قافزة ، ودرافيل، وأسماك سِلُور[42] تصاب بلوثة بين تلال مزبدة. تحاول الحياةُ الهربَ من ذلك الجيش من الجذوع بارتفاع مترين، ثلاثة، خمسة، الذي يأتي ساحقا المياه. يتراقص الطوفُ مثل لولبٍ مكسور. عبثا يجدف: فلا يمكنه السيطرة عليه. بمعجزة، حين يسحقه تقدّم الجذوع، يخرج من التيار، ويرسو، يتهاوى لاهثا فوق أرض عشبية؛ مرتجفا، يرى كتائب وكتائب من الجذوع تتتابع وتتلاحق دون هدنة. سينقضي قريبا موكب الجذوع. يجلس وينتظر. حين يهدأ النهر، يفكر، سيتابع، سيجد أكواخا مُحسِنةً، هنودا سيمنحونه الطعام. يفتش جوعه عن غصن مثمر؛ يكتشف پانديشو، شجرة خبز. "پانديشو، پانديشو - ينفعل لكن هذه الثمرة لا تؤكل إلاّ مطهية -. قطعة صغيرة. قطعة صغيرة لن تؤذي"، يفكر. يبتلع ثلاث ثمرات خبز لا تكاد تتجاوز حجم لوزة. تتتابع الجذوع دون هدنة. بعد أن أنعشته الشجرة يصر على الانتظار. يجعله تعبه ينام. يوقظه تقلُّص أمعائه. بلا ضرورة، بحكم العادة، يبحث عن سِتر شجرة. يتبرّز بلا نهاية. أشدّ تعبا مما كان يستلقي على العشب. تغمض عيناه، ينام، لكن توقظه مرة أخرى تقلّصات أمعائه. يظل موكب الجذوع يمر ويمر. مر اثنى عشر يوما. مرت سبع وعشرون سنة. الموت. كيف سيكون الموت؟ هل سيكون للموت وجه...؟ "الأمر السيء أن رفاق خاوخا[43] قد استبقوا الموعد - قال ديفيد پنت -. وقد نبّه عملهم السابق على موعده الجيش وقلّل فرصنا في المنطقة. بعد ثلاثة أيام من نسف الجسر، بتفجير ديناميتٍ هائل أوقعوا بالحرس المدني



t.me/qurssan

هنـاك، لكنهـم لـن يوقعـوا بالجنـود هنـا. كان أمامـي سـتة أشـهر لإكـمال الإمـدادات. وقبـل كل شيء للفـراغ مـن إقنـاع الزعـماء الكامـپا. كان عـشرة آلاف رامـي سـهام سـينتفضون معنـا! الآن أرى ذلـك صعبـا". "لدينـا المزيـد مـن الأسـلحة في بوليفيـا"، رد أرتـورو. "عـبر كـم رحلـة يمكنكـم نقلهـا؟"، تسـاءل پنـت. "ثـلاث رحـلات، إذا حصلنـا عـلى شـاحنة جيـدة". اتسـاع النهـر لا يتيـح تبيّن الضفـاف. الأمـازون الأعـلى يبـدأ عنـد أتالايـا. الجـوع يجعلـه يتوحـش. يبلـغ مـن الجـوع حـد أن يقـرر الجلـوس عـلى الطـوف، مكشـوفا، اللعنـة، لـو أمسـكوني سـيطعمونني. فـوق المـاء يتبـين جـدارا آخر مـن الجـذوع فيبتعـد بحـماس عـبر بولفـار سـان جيرمـان، حصلَـت ميشـيل عـلى سـكن! عجائـبُ باريـس لا أعرفُهـا سـوى في الصـور الفوتوغرافيـة. وجبـاتي الكاملـة الوحيـدة شـاهدتُها في مجلـة مـاري كلـير، مجلـة الفقـراء. وجبـات أسـطورية! وجبـات العشـاء تلـك ليسـت لـلأكل، بـل للنظـر: أسـاطير. نحـن كنـا نـأكل أكلا سـيئا، وننـام نومـا سـيئا، ونعيـش عيشـة سـيئة. في باريـس عانيـت الجـوع، مـا يسـمى جوعـا حقـا، مـرت ثلاثـة عـشر يومـا. مـرت تسـع وعـشرون سـنة. فيـما بـين بولفـار سـان ميشـيل وبولفـار سـان جيرمـان هنـاك مطعـم خدمـة ذاتيـة. مـن بـين كل المطاعـم، فـإن مطاعـم الخدمـة الذاتيـة هـي أكثرهـا سـادية: إذ تعـرض لعيـون الجائعـين مـا لا يسـتطيع الجائعـون أكلـه. النهـر ينسـاب الآن في أرجـاء مسـالمة، غـير مأهولـة. تفـترش الطـوف طيـورٌ غريبـة، تتقافـز قفـزات صغـيرة بهـدوء، غـير عابئـة بوجـوده، وإزاء حركاتـه تنقـر ريشـها. الطيـور لا تخشـاه. فسـكان تلـك الوحشـة لا يعرفـون بعـد قسـوة البـشر. الحيوانـات لا تشـعر بالخـوف، فـلا أحـد يلاحقهـا. ينـام. يسـتيقظ. مـا زالـت الطيـور موجـودة. إنهـا تحمينـي. كي يهـديء مـن نفسـه يتحـاورُ مـع الطيـور، يحـكي لهـا أشـياء لم يكشـف عنهـا لأحـد أبـدا. تنصـت إليـه الطيـور بانتبـاه، تنظـر إليـه كأنهـا تفهـم حياتـه الموحشـة، سـنواته كمقاتـل بـدون امـرأة. امـرأتي كانـت أخـوّة الحركـة، تعلُّـم الماركسـية في غـرف الجـوار في حـي "إل بوربنير"[المسـتقبل]، دون حتـى القـدرة عـلى الإطـلال مـن النافـذة لشـهور



t.me/qurssan

بطولها، التدريب على تكتيكات حرب عصابات المدن، إعداد المتفجرات في مقاطعة سوركييو تلك أو العرق شهورا بأكملها في معسكرات كوبا في ظل الانضباط الصارم للمدربين، شهورٌ دون الخروج من البيوت الآمنة في ماريانـاو، مناهج التلقين المذهبي، والحملات، تركيب، وفك البنادق، والمدافع الرشاشة، إعداد الكمائن، والمتفجرات، وصعود النقطة صفر ميتين من العطش. رفاقهم، هل سيكونون قد ماتوا بالفعل؟، هل سيكونون في طريقهم للاحتضار في هذه اللحظة؟ الببغاوات القزمة تأكل بقعَ البريق التي يودِعها لعاب النهر على الطوف. "الحقيقة، أيها الرفاق الببغاوات، أنني قد عشت دائما وحيدا، ونظرت بحسد إلى حياة الرفاق الذين يعيشون مع رفيقة". يواصل إهمالُ النهر إيداعَ الجنادبِ، والعناكبِ المائية الصغيرة، وعنكبوتٍ رمادي هائل يعيده هو إلى الماء بطرف المجداف. "أيها الرفاق الجنادب: عاهرات قميئات فقط، والاستمناء، في الظلام، استمناء القبيحين، التعساء الذين يحلمون ألف ليلة وليلة في منارات لذةٍ وحيدة". ألقت له نطحةُ النهر أفعىً سوداء بأساورٍ صفراء أجبرها بدورها على الرجوع إلى الماء. "أيها الرفاق الجنادب: لقد عشت دائما وحيدا حتى تعرّفتُ، قبل رجوعي إلى البيرو بقليل، في باريس، على فرنثيسكا. لم أجرؤ على النظر إليها. لماذا؟ لماذا أحبها عشيّة المعركة؟ لكنني أحببتها، أحببتها حتى الموت. جعل وجودُها عالمي أفضل. أيها الرفاق الببغاوات: أحبّتني هي أيضا. جعلتني سعيدا. لأول مرة في الحياة شعرتُ بما يسميه سانتياجو الانتماءَ إلى الشمس وعائلتها الذهبية، هذا ما قاله كيبيدو، وطالما كنت أعيش معها كنتُ أحدَ أقارب الشمس". اشتبك المستقبلُ بشَعر آلة الهاربْ، وقطعها بمقصٍ من نورٍ، فبكت آلة الهارب. يهذي. كان مطعمَ خدمة ذاتية يتردّد عليه أمريكيون لاتين. لم يقاوم الجوع. قرر الدخول. أن يأكل أي شيء، بأية طريقة. كان طلبةٌ، وموظفون، وسياح يشكلون طابورا. سمع الحديث بالإسبانية. سراويل بلو جينز ومعاطف جلدية تتناقش بلغته. وضع



t.me/qurssan

يـده في جيبـه ليخـرج الـشيء الوحيـد الـذي بقـي لـه، قطعـة كارامـيـل. اقـترب مـن الإسـباني الملتحـي الـذي يُـصرُّ عـلى أن بيليـه أحـرز ثلاثـة أهـداف، في المباراة النهائيـة ضـد الـسويد، وقـال لـه: "سـجل ڤاڤا هدفـين، وبيليـه هدفـين، وزاجالـو هدفـا. أبادلـك قطعـة الكارامـيـل هـذه بكـسرة خبـز". نظـر إليـه الإسـباني مندهشـا. ربـت عـلى كتفـه وقـال لـه: "أنـا أدعـوك إلى طبـق". قفـز هيراقليطـس برأسـه في تيـار الديالكتيـك. وتقيـأ يونـسُ الحـوتَ. مستشـفي مجانـين القـرود يُعلِـنُ عـن مطـرٍ آخـر. لكـن البرازيـل تـرد. الطعنـة اخترقـت الأبجديـة. القـربُ والبُعـدُ يرتجفـان داميين. جـول للبرازيـل! في الدقيقـة التاسـعة يتعـادل ڤاڤا. لكـن أعـلى مـن صيـاح القـردة تـرنُّ ضحكـة ميشـيل التـي تبتسـم مبتهجـة. " حصلـتُ عـلى شـقة يمكنكـما أن تحتلاهـا طـوال الصيـف: أربـع غـرف، ومطبـخ، وحـمام، وشرفـة، هـل تتخيـلان؟" " لا يمكـن، أنـت تمزحـين، ياميشـيل" "لا أمـزح، الأمـر مؤكـد - أصرّت هـي -، أحـد أسـاتذتي في الـسوربون سـيقضي الإجـازة في اليونـان لثلاثـة أشـهر. سـيقطع والأوديسـة في يـده طريـق عوليـس. ولسـوء الحـظ لا يسـتطيع أن يأخـذ معـه أكـثر كائـن يحبـه: قطـه أچاكـس تيلامونيـو. شريطـة أن تُطعـماه وترعيـاه خـلال غيابـه يـصرح لكـما البروفيسـور باحتـلال الشـقة". "لا شيء أكـثر مـن أن ترعيـا لـه قطـه؟" "ليـس قطـا: إنـه أحـبّ كائـن إليـه في العـالم. العـام المـاضي، حـين ذهـب البروفيسـور لقضـاء الإجـازة، عـانى أچاكـس تيلامونيـو مـن اكتئـاب كاد أن يقـضي عليـه". ليسـت ضحكـة ميشـيل بـل قهقهـات الدرافيـل، درافيـل النهـر التـي تغمـسُ وتُخـرج أجسـادها الرماديـة الضخمـة، وتلعـب وتنفـث طـول الليـل. عنـد الـشروق يلمـح دخانـا، ويسـمع طبـولا، ويتبـين بيـوت سـكانٍ محليـين رثـة. مـرت ثلاثـين سـنة. سـاقاه لا تقويـان عـلى حملـه. أنـا أقـدِر. هـل سـيكون للمـوت وجـه؟ يرسـو. بهجـةُ طبـولٍ ونايـاتٍ تُطـوّق رقصـة. "يـا ابـن بلـدي!"، يحيّـي. " يـا ابـن بلـدي"، يجيبـه المحليـون هنـودُ التشـاما، مُسـتثارين بفعـل خمـير الماسـاتو. يقدمـون لـه خمـر يـوكا في شراب، قبـل أن يتـاح لـه الوقـت لطلـب طعـام. يراقبونـه. إذا شرب بمتعـة،



t.me/qurssan

فإنه "من العائلة". وإذا لم يفعل، فليواصل طريقه في النهر. يعرف أن الشراب سيُسكره، كم يوما ومعدته خاوية. لكنه إذا رفض سيعيدونه إلى الماء. يُجبِر نفسه على رشف السائل البلغمي الذي ما زالت فيه نتف من اليوكا مخمّرة باللعاب. يُغرقه الماساتو في حلقات الدوار. الأصفر والأحمر يشتبكان في صراع حتى الموت أمام الآس الذهبي. لأن حياتي تنتهي: إنها النجمة التي تضيء كياني وأنا دون حبها لا شيء. " أيها الرفاق الجنادب: كنت أعرف أنني لن أستطيع النسيان أبدا، ورغم ذلك تركتُها. الأن يتمرّد جسدي عليّ. لم يعد لحمي قادرا على مُغالبة الحنين للحمها، لا تفيدني الثورةُ في شيء، خطواتي بحاجة إلى قدميها، يداي بحاجة إلى إليتيها، فمي المتشقق بحاجة إلى لعابها، قضيبي يموت دون عصير فرجها، كل أجسادي تموت من أجل فرنثيسكا". أنا دون حبها لاشيء...تعالى صوت النقيب باسوركو. لا، أنا لاشيء. يتذكر عبارة لسبينوزا تعلمها في فصل تأهيلٍ إيديولوجي: "كلُّ حزنٍ هو خَصمٌ من المرء ذاته". كلام! "أنا حزين، يارفاقي الجواكامايو، أنا حزين حتى الموت، يارفاقي الدرافيل، أنا حزين حتى مابعد الموت، يارفاقي الأشجار". نام. حلم بفرنثيسكا، بصورة واحدة لفرنثيسكا، ثابتة كصورة فوتوغرافية لدوامةٍ مثلجة تلمسه. يستيقظ: ليست دوامة، إنه لا يحلم. بجوار ذراعه اليمنى، بجوار ذراعه اليسرى، قرب قدميه ورأسه، تتماوج عشرات الأفاعي بصورة بطيئة، مخاطية، قاتلة. أفاعي سامة![44] أفاعي برية سامة، لا يمكن. أفاعي مائية سامة، ولا هذه. لكن حقا، ففي محاولةٍ لإنقاذ نفسها من الفيضان، تصعد الأفاعي المائية إلى طوفه. كذلك الأفاعي البرية التي تأتي وراء أعشاشها التي سرقتها المياه، تصعد بدورها إلى الطوف مستسلمة، متوحشة. ما العمل؟ ببطء، ببطءِ عجوزٍ في المائة، يسحب الساطور من بين تشابك أفاعي قاتلة[45] سوداء ومسنونة. تغيم عيناه. أهي أفاعي قاتلة أم أفاعي ذات جرس...؟



t.me/qurssan

# 9. مخاطر الميلاد
# تحت حكم هنري الرابع

لم نخرج من غرفة النوم طوال أيام. كنا نتغذّى على لاشيء وعلى كل شيء، على الخبز، والجامبون، والطماطم، وبضع بيضاتٍ تحوّلها ماري كلير إلى مباهج. جبن ماعز صلب وكسرات خبز باجيت ناشف: هذا كل ما أكلناه في اليوم الخامس. على كل شيء وعلى لاشيء. وعلى لاشيء قبل كل شيء. كان جسدانا يعتقدان، يعرفان، بسيطين كالماء، أن لحمهما، لحمنا، لايحتاج، لا يمكن أن يحتاج إلى غذاءٍ سوى متعته.

حوالي الظهر، نهضت ماري كلير نشيطة من الفراش:

- ثمة شيء ناقص هنا.

تماوج في الغرفة عُريُها، الذي يسترهُ بالكاد بلوفرٌ أزرق داكن، مضت إلى المائدة، وفتحت درجا وأخرجت ورقةً وأقلام فلوماستر ملونة أظهرتهما منتصرة:



t.me/qurssan

- هل كنت تعرف أن بلزاك، في ظروفٍ مثل ظروفنا، لكنها بالنسبة له لم تكن ظروفًا لأنه لم يكن سعيدا، بلزاك العظيم وجد نفسَه ذات مرة وليس لديه سوى رغيف خبز للعشاء؟ وهل تعرف ماذا فعل؟ حول رغيفِه الوحيد، فوق المائدة، رسم بالطباشير الأطباقَ الفاخرة لوليمةٍ خيالية: رفاهيات مُخترعة مكّنته من تحويل رغيف المحتاجِ الوحيد إلى رفيقٍ في مآدب راستينياك المنتصر...

اختارت ماري كلير قلم فلوماستر ورقّشت المفرش بنقاط صفراء. ابتسمت من جديد:

- هاهي المجرات. كل نقطة صفراء هي شمس. كان يمكن أن يحدث أن نوجد أنت وأنا، سانتياجو وماري كلير، في مجرتين مختلفتين، تفصلهما ملايين السنوات الضوئية.

شخبط قلمُ فلوماستر آخر دائرةً حمراء.

- لكن كان من حظنا أن نولد على نفس الكوكب. هذه هي الأرض...

ملأ قلم فلوماستر آخر حواف المفرش بأرقام زرقاء.

- هذه الأرقام تسعُ كلَّ الزمن. هذه الأرقام هي كل السنين، كل القرون. فرغم تصادفنا على الأرض كان يمكن أن أولد أنا في الهند تحت حكم أشوكا[46]، وأنت في باريس، هنا، تحت حكم هنري الرابع. لكن لا. شاء الحظ السعيد، بعد تصادفنا على الأرض، أن نولد في هذا القرن. أن نعرف بعضنا في هذا العام، أن نحيا هذه اللحظة...

والآن بكل الألوان في يدها اليمنى، مغطيةً بقوس قزحِ المجرات، والشهب، والنجوم المتساقطة، والأرض، والحِقَب، غطت ماري كلير المائدة تماما بالورود، بزهور الماجنوليا، والجيرانيوم، والنباتات المتسلقة،



t.me/qurssan

وزهور الأوركيديا المستحيلة. عانقتني وهبطت دون أن تفلتني، ركبتاها على الأرض وعيناها غارقتان في الدموع:

- هذا هو امتناني لأننا أحياء أنت وأنا، ولأننا هنا، الآن أنت وأنا، هنا أنت وأنا، سويا...

ألقت أقلام الفلوماستر في الهواء، ونزعت البلوفر، وقبلتني. ومرة بعد مرة أخذنا نتدحرج ونتدحرج إلى مهاوي لذتنا. وبعد أشهرٍ من القبلات، أعوامٍ من المؤخرات، قرونٍ من النهود، ألفيّاتٍ من التأوهات، كانت لحظات، اشتبكنا في أحبولة نومٍ طويل. لكن جسدينا لم يناما. فبينما كنت أحلمُ أنني قابلت في باريس امرأة رائعة وأحلم أنني أنام معها، وأنام معها، لم يُسلِّم جسدي وجسدها المؤرقان بالراحة، وواصلا البحث عن بعضهما، والعثور على بعضهما، والميلاد، والموت. كان إلحاح المتعة يوقظنا ويوقظنا. صعدنهبطنا من النوم. نمناستيقظنا. ومن جديد مُتنَعِشنا، كرهناحببنا، حلمناستيقظنا، تلاشيتَوُجدنا. ومن جديد تعاركنحلمنهدأناستيقظنا، سعداء بوقاحة.

شعر الجرسون بالإهانة لأننا طلبنا قطعة سكر أخرى. وكي نهدئه طلبنا المزيد من الكرواسان. عبثا: ظل ينظر لنا بكراهية. نهضت لأشتري سجائر چيتان. أمام فْترينة العرض، كان رجلٌ شرقي اللون، لا يكاد يتكلم الفرنسية، يحاول توضيح أنه يبحث عن علب كبريت مزينة بفراشات ملونة. پاپيون كانت الكلمة الوحيدة المفهومة التي يقولها. وكان المالك يصرخ فيه عبثا أنه لو كان يريد فراشات فعليه الذهاب إلى "معرض حديقة النباتات"، أو بالأحرى: إلى إفريقيا. لكن السائح لم يكن يفهم أو يجعل نفسه مفهوما. سألته إن كان يتكلم الإنجليزية. نعم، كان إيرانيا، وكان يريد أن يأخذ علب الكبريت تلك كتذكار من فرنسا لأصدقائه. وأخيرا، بفضلي، اشترى علبه المزيّنة بالفراشات واشتريت أنا سجائري. عدت. رأيت ماري كلير واكتشفتُ في



t.me/qurssan

وجهها وجهاً مختلفا، جمالا مفرط التجهم. فوق تقاطيعها المستغرقة فجأة في التفكير مرّت قافلةٌ لا يمكن فكّ رموزها. اقتربتُ. نظرَت إليّ. وعلى الفور عادت السحنة والابتسامة اللتان أعرفهما.

- حين عاد لورنس العرب، وقد صار مشهورا، إلى انجلترا - ابتسمت لي ماري كلير -، أراد زميلٌ قديم من أوكفسورد أن يراه. بينما كان لورنس يخوض الحرب، كان هو قد تحوّل إلى أستاذ جامعي بارز. أراد أن يراه من جديد وطلب منه حوارا، لكن لورنس، عشية عودةٍ جديدة إلى الشرق، لم يكن لديه وقت. أصرّ الصديق: طلب التحدث معه ولو للحظة. فدعاه لورنس إلى الإفطار في اليوم التالي. تحادثا أقل من ساعة، ما يكفي لأن يفهم الاستاذ الجامعي أن حياته مبتذلةٌ بصورةٍ بائسة في مواجهة حياة صديقه المجيدة. سأله، "في أي ساعة تركب السفينة؟". "في الثالثة بعد الظهر". "أيمكنني السفر معك؟" "لماذا؟"، استغرب لورنس. "وأنا أنصت إليك انتبهت إلى أن حياتك حياة، وأن حياتي مجرد وجود. أيمكن أن أرافقك...؟"

- وذهب معه؟

- نعم، رافقه، وبعدها كتب سيرة رائعة للورنس.

ابتسمَت. قرّبت رأسي من رأسها سوداويةٌ خفيفةٌ، بدّدها سرورٌ لحظي. تخلّلت يداها شعري وجذبتاني صوبها.

- في أي ساعة ترحل سفينتك، ياحبي؟

نظرت إلى ساعتي. فكرت أنني قريبا سأرحل، حقا، لكن ليس مع ماري كلير بل مع

زملائي، مع رفاقي، لنناضل حقا.

- سفينتي تغادر الآن - غمغمتُ.

- لا - قالت هي -. سفينتك خرجت منذ ستة أيام!



t.me/qurssan

- وإذا كانت سفينتي تذهب بدورها إلى الصحراء؟

- لا يهمني. أريد أن أرافقك.

- إذا كان من حظي أنك عديمة المسئولية إلى هذا الحد، اذهبي إذن لتحضري أغراضك الآن فورا.

- ليس لدي ما أحضره. أنت داري.

هل كنت دارها؟ كنت قد قابلتها في صدفةٍ حديقةٍ، لكنها خرجت من ماضٍ. أيّ ماضٍ؟ إمرأة كهذه هي شهاب يعبر السماء، وبعدها بمائة ألف عام تظل صورتُه تلمع في عماء البشر البائس. أنا نفسي، ماذا كنت أنا، ماذا يمكن أن أكون بالنسبة لها؟ قريبا سأرحل. في أية لحظة ستأمرني الحركة بترك باريس. وسأختفي. وبدل أن أكون مُمتنّاً للعيد الذي كانتهُ والذي دخل حياتي بخميلته من الأعاجيب والألغاز، أخذتُ أتشكّك. وكأنما تنصتْ إلى أفكاري، قالت ماري كلير:

- أنت، الأمريكي اللاتيني، ألا تعرف أن المايا القدماء كانوا يهجرون مدنهم كل 52 سنة؟ هل تجهل أنهم كانوا كل 52 سنة يتركون بيوتهم، ومتاجرهم، وألعابهم، ومعابدهم، ويرحلون إلى مكانٍ آخر ليشيدوا مدينة جديدة؟... يوم أن رأيتك في "حديقة النباتات" اكتملت 52 سنة بالنسبة لي. هل تودّ أن تؤسّس معي المدينة الجديدة؟

- ليس ثمة ما أريده أكثر في هذا العالم - كذبتُ عليها.

كذبتُ عليها وأنا أعرف أن المدن الوحيدة التي يمكنني أن أدخلها هي أكوام الحطام، خرائب النجوع المقصوفة التي يتصاعد منها الدخان ، القرى الجبلية التي سواها بالأرض النابالم الذي يحوّل إلى محارقٍ مُولولةٍ الرجالَ، والنساء، والأطفال، النابالم الذي يمحو به العدوُ الحياة.



t.me/qurssan

ورغـم ذلـك، أضعفتنـي عيناهـا الزرقـاوان، تحسسَـت يدُهـا صلصـالَ وجهـي، رأيـت سـاحة المعركـة يغطيهـا رجـالٌ مزّقتهـم الرشاشـاتُ إربـا، رأيـت سـيقانا بـلا أجسـام، انفجـار قنابـل يدويـة، وبلغنـي صوتهـا نائيـا:

- مـن أجلـك أهجـر مدينتـي، وأهرامـاتي، ومعابـدي، وحيـاتي - همسَـت -. الـشيء الوحيـد الـذي أطلبـه منـك هـو ألاّ تسـألني أبـدا عـن مـاضيّ. ولن أسـألك أنـا أيضـا عـن ماضيـك. موافـق؟

ودون أن تنتظر جوابا تلت:

أنا، نتسهوالكويوتل، أسأل:

هل نحيا حقا بجذورٍ على الأرض؟

لن نبقى على الأرض للأبد:

إنها مجرد هنيهةٍ هاهنا،

حتى اليُشبُ يتحطّم،

حتى الذهب ينكسر،

حتى ريش الكتزال، يُنتَزع،

لن نبقى على الأرض للأبد:

إنها مجرد هنيهة هاهنا.

- أتتكلمين الإسبانية، يا ماري كلير؟ - اندهشت.

- أُدرك السرّيّ، الخفيّ.

النابالم الذي يمحو به العدو الحياة... وكررت هي غارقة في الدموع:

- مثل رسمٍ سننمحي...

- لماذا تبكين؟



t.me/qurssan

- لأننـا شـابان، سـعيدان، جميـلان، حـزّان، ورغـم ذلـك، مثـل رسـم سـننمحي.

نظـرت إليّ. نظـرت إليهـا. تقـتُ إلى ألاّ يمـرّ الزمـن بـين هـذه اللحظـة وبـين لحظـة رحيـلي. وتخيلتُنـي أحيـا مـع مـاري كلـير، أتعـذب مـع مـاري كلـير، أتمتـع مـع مـاري كلـير، أحـزن مـع مـاري كلـير، أسـعد مـع مـاري كلـير، أشـيخ مـع مـاري كلـير. خرجنـا مـن المقهـى. عدنـا ونحـن نضحـك. في ميـدان مونـج كان يطـنّ سـوق الأحـد. طلبـت منـي مـاري كلـير أن أنتظرهـا في المنـزل، فعلينـا أن نتـزوّد بالمـؤن، وسـوف تتسـوق هـي، وتـأتي خلفـي. "في الجراموفـون، يـا حبـيّ، سـتجد الكانتاتـا 84 ليوهـان سباسـتيان موضوعـة".

صعـدتُ إلى الـدور الخامـس. وعنـد بدايـة الطابـق، قابلتنـي الابتسـامة الحمقـاء للاينيـث جالسـا عـلى الـدرج.

- يـا صاحبـي، حتـى أجـدك يجـب أن أكـون في إصيـص، مزروعـا أمـام بابـك - تهلّـل.

جعلته يدخل. نظر إلى الفراش المنكوش وعاود الضحك:

- آه؟ إذن فقد جرت معركة...؟

جـذب كرسـيا، وأداره، جلـس متكئـا بمرفقيـه عـلى ظهـره. أخـرج مظروفـا سـميكا مـن جيـب الجاكتـة. سـلّمه لي.

- هنـا مائـة ألـف دولار. عدّهـا. إبحـث عـن مـكان أمـين لحفظهـا. لبضعـة أيـام فقـط.

- هل أخفق شيء؟

- نعم ولا - أجاب لاينيث -. وعلى كل حال، الأمر لا يخصك.

- هل يتعقّبك الفليك[48]؟


t.me/qurssan

- نعم ولا.

أثار وجه لاينيث قلقي.

- بدأ الفرنساويون[49] يتغيرون - قال -. انتهت حرب الجزائر. لم يعد لدى الفرنساويين جزائريين ليتجسّسوا عليهم، ويعترضوهم، ويعذبوهم، وينكحوهم. يوجد أكثر من عشرة آلاف تليفون مُرَاقب في فرنسا، لم يعودوا لجزائريين بل لأمريكيين لاتين، وأفارقة، وآسيويين. ولمراقبتنا بشكل أفضل، جلب الفرنساويون ابن عاهرة، قاتل، لا أقل من رئيس الأمن الذي أدار التعذيب والقمع ضد الشعب الفنزويلي خلال دكتاتورية بيريث خيمينيث[50]... هل تعرف من أحد مساعديه؟ إنه الخراء كاستانييدا، الذي وشى بنا في المكسيك وبعدها ذهب ليعمل مع شرطة بيريث خيمينيث!

قاطعنا احتكاك المفتاح في الكالون. اندفع لاينيث منزعجا نحو الباب، واصطدم بالحائط.

- إهدأ - قلت له -، إنها الشمس التي ستدخل.

لكن قبلها دخلت الزهور، ماري كلير مرتدية حديقة، محمّلة بمبالغة بزهور في ذراعيها بحيث يصعب ملاحظة أكياس المؤونة، ووجهها. وضعت الأغصان على الأرض وعندها فقط اكتشفت الابتسامة الناقصة للاينيث.

- خوان ... إنريكي... أكثر من أخي - غمغمتُ -. وللاينيث.

- هي ...

فقال لاينيث الأحمق.

- هي؟ ياله من اسم جميل! أم أنه لقبها..؟

وانفجر يضحك بوجهه كله:



t.me/qurssan

- لا تشغلا بالكما. أنا مثل فرق المسرح التي تخفق يوم الافتتاح: هذا هو عرضي الأول والأخير. إذهبا إلى شباك التذاكر لنعيد إليكما قيمة التذكرة.

ومُخجِلاً بنظرته ماري كلير ، مخجلا جسد ماري كلير الذي جابهُ شبقُه الصريح من القدمين حتى الرأس، أردف:

- رغم أن من الأفضل، نظرا لما أراه، أن تذهبا لا إلى شباك التذاكر بل إلى الغرفة الأخرى...

وفتح الباب.

- نراك، يا رجل - قال.

وغامزا بعينه:

- أو ربما الأرجح ألاّ نراك...

- نعم ولا - أجبته -. على كل حال الأمر لا يخصك.

شعرت به يهبط السلم مقهقها. وفجأة شعرت بالحزن. للمرة الأولى فكرت في الثمن، في الثمن الحقيقي لسعادتي. كانت ماري كلير وقارة أزهارها تفصلني عن لاينيث، وعن رفاقي، وعني، وعن الثورة. هل حدست ماري كلير الأمر؟

- لن نبقي على الأرض للأبد - قالت -. إنها مجرد هنيهة هاهنا.

عاود جلدانا الصراخ بلغتهما الصامتة. وشعرت بأنني أشدُ قوةً من ذلك التمثال الخزفي الشهير لهنود الموتشيكا الذي عبّر به أسلافي عن مجد النطفة الأولى: ذلك الرجل من الصلصال الملوّن الذي يعانق قضيبا أطول مرتين من جسمه، مطوّقا بيدين مهتاجتين إيره المفرط. هكذا صعدت هي شجرتي. كانت كل قبلة تجرحني، تؤذيني، لكن ليس كحجرٍ يحطّم الزجاج بل كحصاةٍ تثير عند سقوطها في الماء دوائر متحدةَ المركز، وأنا أسبح يائسا، سجينا في هالات السُّعار، ولأنقذ



t.me/qurssan

نفسي أضرب بذراعيّ صوب ضفة عصيّة البلوغ وفي نفس الوقت، أودُّ ألاّ تنتهي الدوائر، ألاّ تنتهي أبدا، عارفا، رغم ذلك، أن كلّ حجرٍ لحظيٌّ، وكلّ دقيقةٍ سريعةُ الزوال، وكلّ هناءةٍ عابرةٌ، وبعدها لن تبقى ذاكرةٌ فوق الماء.



t.me/qurssan

# 10. سانتياجو يحذّر خوان أن موسكو لم تعد موسكو

كان سانتياجو يعرف أن الزميل، حامل البريد الذي سيصل في طائرة إير فرانس القادمة من ليما، سيهبط دون حقيبة يد. سيتعرّف عليه من نسخة الطبعة الثالثة لصحيفة "لا كرونيكا"، المفتوحة على الصفحة الرياضية بتعليقات پوتشو روسپيجليوسي، والتي سيحملها الرفيق في يده اليسرى. خرج الركاب من بوابة جمرك مطار أورلي يخيّم عليهم جوٌّ عبور الأطلنطي ذاك الذي يشي بقضاء ليلة سيئة. كان سانتياجو أيضا يشعر بالتعب. ففي الخامسة صباحا أيقظه الهاتف، صوت نيكولاس القاطع:

- عذرا، يا صاحبي، أن أنتزعك من النوم، لكنني بحاجة عاجلة إلى النقود. لا أملك ما أدفع به حساب البار ولا يدعونني أخرج. عليك أن تأتي فورا إلى أورلي.



t.me/qurssan

فهـم سـانتياجو عـلى الفـور: الرفيـق خـوان زفـت، فكلهـم اسـمهم خـوان، كان عـلى وشـك الهبـوط في أورلي. ارتـدى ثيابـه بأقـصى سرعـة وأخـذ سـيارة تاكـسي عارضـا عـلى السـائق بقشيشـا مضاعفـا إذا وصـل إلى المطـار قبـل السادسـة. مـن بوابـة الجمـرك خرجـت سـيدةٌ بدينـة بطفلـين، أنيقـين، وناقـدٌ أدبي مخنّـث يتصايـح ضـد الأدب في ملحـق الأحد لصحيفـة "إل كوميرثيـو". خرجـت بدينـةٌ أخـرى، مفرطـة البدانـة: أقـرّ سـانتياجو الجهـودَ الحثيثـة لزوجهـا الـذي لابـد أنـه قـد رهـن حتـى قميصـه حتـى يمـوِّل نزوحهـا. خـرج مخنـثٌ آخـر، بـيرواني أيضـا وناقـدٌ فنـي أيضـا، يـصرّ عـلى أن تأثـير سـيزلو[51] عـلى عمـل بيكاسـو يبلـغ حـدّ الفضيحـة. وأخـيرا خـرج خـوان شـاهرا المقـال الـذي لا شـك أن پوتشـو روسـپـيجليوسي يسـتنتج فيـه أن نتيجـة الــ 6/صفـر التـي ألحقهـا بنـا منتخـب كـرة قـدم الإكـوادور، البلـد الأمـازوني، لا ترجـع إلى نقـص الكبريـاء بـل إلى النوعيـة المتدنيـة للكـرة. تحقـق سـانتياجو مـن أن أحـدا لا يتبـع خـوان، وسـارع باللحـاق بـه قبـل أن يركـب حامـل البريـد، كـما كان مقـررا، حافلـة إيـر فرانـس إلى باريـس. أمسـكه مـن ذراعـه، فتجمـد خـوان. هـدّأه سـانتياجو ناطقـا العبـارة المفتـاح:

- هل أنت بالصدفة پيوراني[52]؟

- أنا پيوراني - أجاب خوان، متنفسا الصعداء.

- هنـاك تغيـيرات في الفريـق، يـا ابـن بلـدي. لـن تنـام الليلـة في باريـس ولـن تسـافر غـدا إلى موسـكو. الآن سـتتوجه إلى داكار.

كان سـانتياجو يقـوده إلى المطعـم. شـعَر في ذراع خـوانٍ بريبتـه. فعاجلـه:

- جرت في موسكو أشياء خطيرة. بالنسبة لنا لم تعد مكانا آمنا.

بحثا عن مائدة منعزلة.

- في كل الأحوال يجب أن نطلب شيئا ساخنا وإلا طردونا.



t.me/qurssan

- أفضل الكونياك.

موّه سانتياجو الأمر، بدوره، بإفطارٍ مُبالغٍ فيه.

- في موسكو انفجر الخلاف. أصبح انقسامُ الحزبِ الشيوعي البيرواني حاسما. أثناء سفرك، استدعى السكرتيرُ العام للحزب الشيوعي كلَّ رفاق الحزب في موسكو وأسرّ إليهم أن يحدِّدوا أنفسهم في الحال، أن يختاروا بين ما وصفه بالخط الثوري لموسكو وبين الخط المغامر لبكين. ولن أقول لك شيئا عمّا قاله عن هافانا. استمر النقاش أربع عشرة ساعة. إثنا عشر فقط من الرفاق الأربعة والثمانين الذين تم استدعاؤهم كانوا مختلفين. تم منح الإثني عشر اثنتي عشرة ساعة للخروج من الاتحاد السوفيتي. وهم الآن في بكين. والآن لا تمر حتى إبرةٌ من موسكو إلى بكين. ويقوم موظفو الجمارك السوفيت بتفتيش وتصوير حتى آخر ورقة لدى كل من يأتون من بكين. ومن ثم، لا يمكنك الذهاب عبر موسكو. ها هي تذكرتك داكار - بكين.

- في أي ساعة سأغادر؟ - قال خوان محتفظا بالتذكرة.

- في التاسعة. سأتولى أنا تسلُّم متاعك وشحنه إلى داكار.

حاول سانتياجو أن ينقش ملامحه، ليتذكر الوجه الخلاسي، البرونزي لخوان. هل يكون مخلصا؟ وإذا كان مخلصا، حتى متى؟ وحاول خوان أن ينقش ملامحه، ليتذكر الوجه الأبيض، والعينين الكستنائيتين لسانتياجو. هل يكون مخلصا؟ وإذا كان مخلصا، حتى متى؟

ياله من عناءٍ ألاّ توجد بعدُ سفارةٌ صينية في باريس! فهذا يجبر على تنظيم نظام معقَّدٍ للنقل. نقل مليون دولار من بكين إلى البيرو، باستخدام مسارات تسيطر عليها المخابرات المركزية الأمريكية، والإنتربول، وأجهزة الشرطة الأوروبية والشرطة البيروانية،



t.me/qurssan

هـو أمـر أكـثر مـن محفـوفٍ بالمخاطـر. كان الرفيـق سـاتورنينو قـد رتـب استخدام حامـل بريـد لـكل مائـة ألـف دولار، مـن أشـد النـاس عاديـةً، ربـاتِ بيـوت، وحمـواتٍ كسـولات، ورفـاقٍ بـلا سـوابق يفضّـل أن تكـون لهـم سـحنةُ حمقـى، حمقـى أم أحيـاء؟، لأن المؤكـد أن الكثـير مـن حملـة البريـد قـد اسـتولوا في الطريـق عـلى النقـود التـي لا غنـى عنهـا للمنظمـة. هـل كان مخلصـا؟ كليمنتـى، البوليفـي، كان مخلصـا أيضـا. لم يكـن لـه وجـه أحمـق فحسـب: كان أحمقـا. خطـرت عـلى ذاكـرة سـانتياجو تلـك الليلـة في برلـين. خـرج غاضبـا مـن الاجتـماع مـع الرفيـق ماركوفسـكي بمبنـى اللجنـة المركزيـة، في ميـدان ماركـس إنجلـز ببرلـين. سـلّم ثالـثَ سـيرةٍ ذاتيـة لـه. قرأهـا ماركوفسـكي بإمعـان، ولم يعلّـق عـلى شيء، وسـأل:

- هل يمكنك أن تحضر لنا سيرةً ذاتية أخرى لك؟

- ستكون الرابعة - لاحظ سانتياجو.

ابتسم ماركوفسكي:

- بدءاً فقط من حياتك في بوينوس آيريس...

لمـاذا أقـول حماقـات؟، فكـر سـانتياجو. كان يعـرف تمامـا أن الحـزب يطلـب مـن المسـئولين سـيراً ذاتيـة تلـو سـيرٍ ذاتيـة بهـدفٍ وحيـد هـو مقارنتهـا والعثـور عـلى تناقـضٍ مـا. فمـع المخابـرات المركزيـة الأمريكيـة لا يمكـن أبـدا أن تعـرف.

سـانتياجو - قـال ماركوفسـكي -، يسـعدني أن أنقـل لـك خـبرا طيبـا. نظـرا للانقسـامات والنزاعـات التـي تهـزّ الحـزب في البـيرو، رتّبـت لجنتـي المركزيـة ألاّ يدخـل أحدٌ في اتصـال معنـا أو يعـبر ألمانيـا دون موافقتـك، موافقتـك الخاضعـة، طبعـا، في نهايـة المطـاف، لتعليـمات اللجنـة المركزية في ليـما.



t.me/qurssan

ناولـه ماركوفسـكي برقيـة مفكوكـة الشـفرة. قـرأ سـانتياجو: **عميـل الـسي أي إيـه خـوان كارلـوس اخـترق المدعويـن إلى مهرجـان الشـباب بموسـكو نقطـة أبلغـوا السـلطات السـوفيتية نقطـة امنعـوا المـرور نقطـة أكـدوا التلقـي.**

- هل هذا الرجل مُدرج في قائمة المدعوين؟ - سأل ماركوفسكي.

- رشحه قسم باريس، يا رفيق.

- هل هو عضو بالحزب؟

- لا.

- إذن لا تدعه يمر

شعر سانتياجو بأن الغضب والخراء يغمرانه.

كان خـوان كارلـوس واحـدا مـن أكـثر الرفـاق الذيـن عرفهـم نزاهـة، وشـجاعة، ونقـاء. وكان هـو شـاهداً عـلى حياتـه منـذ أزمنـة بوينـوس آيريـس، والمكسـيك، وحياتـه كلهـا. خـوان كارلـوس، عميـلٌ للمخابـرات المركزيـة الأمريكيـة؟ الشـمس إذن لا تـضيء. إنهـا نذالـة مـن ليـما!

- أنـا أعرفـه منـذ أعـوام طويلـة، يارفيـق ماركوفسـكي. لا أسـتطيع تصديـق أن يكـون عميـلا للـسي أي إيـه.

- الحزب لا يتصرف بخفة. لا تدعه يمر.

خـرج شـاعرا بالغثيـان. لم يفلـح ترشـيح اللجنـة المركزيـة في تبديـد قرفـه. خفّفـت مـن سـخطه الشـمسُ التـي تحتـضر لاعقـةً الجـمالَ الشـاحب، الأجسـادَ المتماسـكة، المرغوبـةَ، الحـرة، للألمانيـات الـلاتي يعـبرن ميـدان ماركـس ـ إنجلـز. قـرر أن يتسـلى. بوصفـه مسـئول القسـم البـيرواني، كان تحـت تـصرّف سـانتياجو نقـود. منـذ أكـثر مـن عـام رفـض ماركوفسـكي كشـفَ الحسـاب الأخـير والتفصيـلي الـذي قدّمـه: "لم يعـد مـن الـضروري أن تبلغنـا بنفقاتـك. ثقتنـا فيـك كاملـة. حـين يلـزم الأمـر



t.me/qurssan

أطلب مني نقودا واستخدمها بأفضل طريقة تبدو لك". عاد إلى شقته. استحمّ ليُزيل عنه القذارة المتخيّلة للبرقية المشينة، باللأوغاد. وفيما بين السادسة والعاشرة حرَّر مسودة سيرته الذاتية الرابعة. وانتبه إلى أنه في السطور الأخيرة قد أسهب بشأن الطريقة التي عقد بها صداقة حميمة مع خوان كارلوس في بوينوس آيريس. اللعنة! لماذا نسي أن يقصّ هذا في سيراته الذاتية الثلاث السابقة؟ إذا وضعها الآن في هذه الرابعة، فسوف يشكّون، عن حق، لا في الثلاث السابقات فحسب، بل فيه هو ذاته. وإذا لم يقص صداقته مع خوان كارلوس، سيكون الأمر أسوأ. فقد قال: "أنا أعرفه منذ أعوام طويلة، يا رفيق ماركوفسكي، لا أستطيع تصديق أن يكون عميلا للسي آي إيه". محتدًا ضد نفسه مزق الصفحات، بالذات هذه السيرة الذاتية التي كانت جياشة حقا، اللعنة. قرّر الخروج. كانت الساعة تقارب الحادية عشرة. أكل شيئا في المطعم على الناصية. لم لا يكون الـ"ميلودي بار" المأهول بألمانيات رائعات تهوين اللاتينو ذوي الشعور السوداء والعيون السوداء؟ دلف إلى الملهي الليلي، وجلس على طاولة قريبة من البار حيث لا يجرؤ على الزِّياط أمريكيون لاتين، بوليفيون عرفهم من لهجتهم. من زجاجة الشمبانيا التي يشربونها افترض أنهم مدعوون مهمون. لكنهم خجولون. كانت عيونهم تخرج منهم كالأيدي نحو مؤخرات الألمانيات، لكن لا أكثر. وحين تستدرن للتلميح أو القبول، كانوا يتغافلون، ويكررون نكاتا غير واثقة. اقترب فتى طويل، أبيض، مليح، من سانتياجو:

- أنت أمريكيٌ جنوبي؟

- حيانا.

- ما أجمل حظك، أنا بوليفيٌّ كل الأيام وفي كل وقت. حتى عندما أنام أحلم بأنني بوليفي... من أين أنت؟



t.me/qurssan

فقال سانتياجو، مواصلا الدعابة:

- على حسب...

- على حسب كيف؟

- على حسب من سيدفع الحساب.

- آه، لقد عرفت؛ لأنك نذل، فالأكيد أنك بيرواني! هل تتحدث الألمانية؟

- ما تقوله لي أنك تريدني أن أغازل بإسمك بعض الألمانيات وأقدمهن لك جاهزات، أم لا...؟

- يسمع منك الرب! نحن قادمون من الصين. أربعة أشهر دون امرأة! من الأسهل أن يصادف يومُ جمعة يتيمة يومَ أحد من أن تحتك بصينية شيوعية.

أطلق سانتياجو ابتسامة باتساع العالم واستقر ببصره عند ثالوث من الشقراوات:

- هنا تصادف كلُّ أيامِ الجمعة اليتيمة أيامَ أحد... مع أيهن تريد الرقص؟

- هل تعتقد أن هذه المُسمسِمة، الأجمل، على اليمين، يمكن أن...؟

نهض سانتياجو، تحدث قليلا مع الثلاثي الأشقر وعاد مع أضألهن وأجملهن. ترنح كليمنتي، البوليفي، وكاد يقع فوق الطاولة، وبدأ بعبارة إحتفالية "إنه لشرف عظيم، يا سنيوريتا..".، قاطعتها هي بحدّة وهي تسحبه من يده حتى حلبة الرقص. لم تستطع الفرقة الموسيقية عزف الإيقاع المضبوط لأغنية "قبّلني كثيرا". ولا كليمنتي. وأقل منه الألمانية، بحكم التقاليد. وحين انتهت القطعة عاد كليمنتي بالغ الانفعال.



t.me/qurssan

- والآن ماذا أفعل؟ هل يمكنني أن آخذها ثانية للرقص؟

- ما كان يجب أن تتركها، كان يجب أن تنتظر البوليرو التالي هناك في الحلبة...

- تركتها لمجرد أن آخذ منك التعليمات.

- اطلبها للرقص من جديد، دون خوف، وأنت تضغط على يدها برفق، كأنك تربت عليها. ولو تركتك تفعل، أو ردّت عليك بالمثل، فإنها جاهزة للفراش. ولو قالت لك أن تترك يدها، وهو أمر لم يحدث في هذا البلد منذ مائتي سنة، أو قالت لك أنها تريد الكفّ عن الرقص، فإنها أيضا جاهزة للفراش، لكنك ستستغرق وقتا أطول في الدخول إلى فراشها ووقتا أقل بكثير في الخروج منه...

عاد كليمنتي، وما زال منفعلا، بعد أن رقص "نحن" لفرقة لوس پانشوس، التي رنّت في الـ"ميلودي بار" برنين استعراضٍ عسكري:

- اسمع، يابيرواني، ضغطت هي أيضا على يدي! ماذا أقول الآن؟

- الآن التحم بها بكل جسدك، لا تترك فيها ولو ركنا صغيرا دون مداعبة...

وبعد أن تعثرت، الفرقة الموسيقية الخرائية! في إيقاع "سيبوني"، المفرط الكوبية، عاد كليمنتي منتشيا:

هي أيضا ألقت بنفسها عليّ! الآن ماذا أفعل؟

- تقبيلها، إذن، عضعضة أذنها الصغيرة، إنزال اليد حتى مؤخرتها ...!

عاد كليمنتي مرة أخرى:

- لقد قبلتني، يا بيرواني، وأعتقد أنني أحببتها وأنها أيضا أحبتني!

- إذا أردت أن تعتقد هذا، هنيئا لك.



t.me/qurssan

- أقول لك بجد: هو حبٌ ما نشأ بيننا...!

- نعم، نعم، يا رودولفو فالنتينو...

- هل أستطيع الآن أن أحضرها إلى الطاولة؟

- نعم، يا فالنتينو - قال له سانتياجو.

نهض ببطء، متعثرا، نحو الثالوث الأشقر، كانت الأخريان قبيحتين حقا، هما الاثنتان لا تصنعان معا امرأة حقيقية، فكر، لكنه أحضر الثلاثة إلى طاولته ووضعهن حول كليمنتي، فوق أريكة مبططة، من القطيفة الحائلة اللون، في الغبش.

- ترجم، يا بيرواني، من فضلك! - تضرع كليمنتي -، قل لها أنني لم أر أبدا امرأة أجمل منها، ولا أرق، ولا أكثر تفهما! قل لها أنني رأيت شموسا كثيرة رائعة في المنطقة المدارية لكن أيها ليست بهذا اللهب الذي في عينيها! قل لها...!

استدار سانتياجو ليتحدث مع الألمانية. واستمر صوت كليمنتي يطلب منه من فضلك قل لها أن هذه الليلة أهم ليلة في حياته كلها، أنه متزوج في كوتشابامبا لكنه سيطلّق فورا ويتزوجها إلى الأبد ويعيش في ألمانيا إلى الأبد، أو حيثما شاءت هي إلى الأبد... ومتعباً، اختصر سانتياجو في جملة واحدة:

- صديقي يريد أن يذهب إلى فندقه معك.

نهض كليمنتي ليدفع الحساب. فأرخت الألمانية أهدابها وهي تنظر إلى سانتياجو:

- موافقة، سأذهب إلى الفندق لكن ليس معه بل معك.

حين عاد كليمنتي طافحا بالفرح، لم يجد سوى القبيحتين. هما دون ظُرف، وهو دون لغة.



t.me/qurssan

صنعتُ طيباً، اللعنة!، فكر سانتياجو في مطار أورلي، صنعت طيباً بانتزاعي ولو تلك الأنثى من ذلك الخائن! فتحت قناع الجسور اللطيف، كان كليمنتى يُخفي ملامح الواشي. قطّب سانتياجو. تذكر التعبير المبتهج، الوضاء، لإليسيو، وتخيل الوجه المذهول، المصدوم، الذي لابد أنه كان وجهه تلك المرة، في فندق لاباث ذاك، عندما، بدلا من أن يظهر كليمنتى بالنقود المخصصة لعملية "نبلينا"، بزغت وجوه الشرطة السرية بالمسدسات. وتخيل رعب كليمنتى ليلة أن داهمته الحركة في مخبئه ببنما، والوجه الجبان الذي لابد كان وجهه بعدها بساعات في مواجهة الموت الذي قرّرته القيادة القومية، بأي صوتٍ لابد أنه تضرّع أن يعفوا عنه، أنه بريء، أن الأمر يتعلق بخطأ، أنه لم يستول على النقود، أن إليسيو لم يسقط بجريرته ولم يُعذّب بجريرته حتى الموت. صوت الخونة لا يُسمع، فكر. عاود النظر إلى خوان، الذي كان ناظرا إليه. هل هو مخلص؟



t.me/qurssan

# 11. ركّابٌ غير مُتوقّعين يصعدون إلى الطوف

يوقظه الجوع أكثر مما يفعل عنف المطر. تكتشف عيناه تحت مياه تفريعة النهر أسماكاً بطيئةً لثعبان الماء الرعاش. ينتظر أن تعبر تحت ساطوره. وفي يأسه للعثور على طعام ينسى أن مقبض الساطور بمسامير. يهوي بذراعه المسلح فوق رأس سمكة الرعاش. يقطع حدُّ الساطور الماء، يغوص في اللحم البارد، فتطوّحه الشحنة الكهربية الفورية على ظهره فوق الوحل المائل للاحمرار. تمر أمام عينيه سحب من الببغاوات. من لون شعرها عرفتُ أن التوباز يكرهني. واصل. مترنحا يضع الطوف في النهر. يصيبه الجوع بالجنون. وحتى ينساه يحاول النوم. يعبر النهر ضفافا رملية يسودها الصمت. لا رفيفُ أجنحةِ طيور، ولا غطسُ درافيل، ولا صخبُ قردة، لاشيء. سيحيا بودار. في قرية أنيقة سيشيّد دارا ضخمة، ويعيش برفقة امرأة ظريفة، مجتهدة، مطيعة، تدفئ له فراشه، وتعد له المائدة، وتربي له أطفاله. فالرجل الذي هرب من السجن ليعدم بودار لم يبلغ حدّ إطلاق



t.me/qurssan

الرصاص. مات من الإجهاد قريبا من الطريق. مضت أربعة عشر يوما. حان الموت. تُمزّقُ الصمتَ صرخة: "إلى أين تمضي، يا تشوري؟" اكتشفوه! يستبق جسدُه الطلقة. "تيكالي، تشوري!"، يردد الصوت. ليسوا حراسا: إنهم هنود كامبا! يحاول اكتشاف الأكواخ. بين الضباب، بين الشبورة الحمراء، يتخيل أسماكا يتم شيُّها، يوكا على الفحم، قطعَ سلحفاة في شوربة تغلي. بضعفٍ يدفع الطوف بالمجداف صوب الصيحات. فوق غصون الأشجار التي تحف ضفة الرمال القذرة يكتشف صفوفا من الطيور بأجسام سوداء وبقع بيضاء. مشوية. "إنها طيور پاوكار". كانوا يلقبونه پاوكارثيتو تحببا، الپاوكار طائرٌ يأكل الموز، وكان سجانوه يلقون إليه الموز المتعفن، ويقولون كل خرا. الپاوكار يقلد غناء كل طيور الجبل وحتى كلام الناس. "قف! - يأمر النقيب باسوركو، في تلك الحقبة كان نقيبا -. الآن ستغني، ياقحف الخرا!"، وأخذ پاوكار يقلد منهنها غناء الطيور الحرة. لا يجد أكواخا ولا نيرانا ولا هنود كامبا ولا آثارا فوق الشاطيء المهجور. ليست أصوات رجال يسخرون منه بل سخريات طيور الپاوكار التي تحلق حتى الضفة الأخرى. يعود إلى النهر، منهارا. الشمس تدوّي أجراس أرغفة خبزها. يمتليء الماء بأرغفة الخبز. في الهواء الزجاجي الخانق تعبر أسراب من الأرغفة. السحب أرغفة، تمطر أرغفة. استمر. الشمس تحرق أشجار الخبز. جوعٌ مفرط. يرسو. بين حقول الموز يلمح دارا مهجورة. يسقط على وجهه فوق سرب أصفر. سأقتل بودار. إمرأة بودار لن تتعرف على بودار. القوات الخاصة لن تستولي على مستودعات الجبهة الثانية. الرجل الذي هرب من السجن ليقتل بودار هزم أخطار الغابة المميتة، واستطاع بلوغ الطريق، ركب سيارة نقل، وفي هوانكايو اتصل بالرفاق. يطوّح الطوف فوق المياه البنية. أوراق الشجر تحمي من الشمس، لا من الذكرى. هل سيموت؟ يفكر لأول مرة "سأموت". الحرارة خانقة. يتحسس لحمه. يجده باردا. "الإنسان هو استعارةٌ تكسوها الأحلام مؤقتاً". انقضت ثلاثون عاما.



t.me/qurssan

لحمٌ تكسوه الأعوام. انقضى وقت طويل وهو لا يأكل بحيث لم يعد يتبرز. يعاود لمس جسده البارد. "سأموت". ينام. صِرتُ من جديد طائر بشروش: أخذت أسقط، أسقط، أسقط. في أحلامي أسقط حتى يوقفني جناحاي بجهدٍ محتضر. أمام عينيّ تعبر أسماك براقة، أسماك قرش ذهبية وعندها فقط أدركُ أن بطءَ تحليقي لا يثيره كللُ جناحيّ بل شساعة الماء الذي أعبره. أحاول التوجه إلى السماء لكنني لا أبلغ سوى الغوص. أحلّقُ بين وحوشٍ براقة، فوق مدنٍ تُبيدُ فيها الحشودُ طيورَ البشروش. في الميدان يقطعون رقاب مئات ومئات من طيور البشروش. ينجو طائر واحد. أنجو أنا. أهرب عبر السماء، أتمكن من الخروج من قاع الماء. ليس ماءً. ولا أسبح فوق البحر. أنا داخل كُرةٍ زجاجية ملونة يقذفها طفلٌ ضد كرةٍ زجاجية أخرى وضد أخرى من جديد. يخفق اللاعبُ الصغير عدة مرات ويكفُّ متألما عن اللعب. عندها رأيت عيونه الثلاث: واحدةٌ حنون، وواحدة لامبالية، وواحدة تسفَعها الكراهية. يحلم الآن أن إعصارا من السمك يمطر فوق الطوف. مئات من الأفواه الصغيرة تُفضِّض الطوف، تلطِّم جسده. يحلم؟ تتحسّس يده، تلمس، تنغلقُ على الصلابةِ التي لا مِراء فيها لسمكةٍ مجنّحة ذات قشور براقة. لا يحلم! الأسماك موجودة، حاضرة، هاهي هناك! أنقذته مِنحةُ النهر! من حينٍ لآخر، حين تفيضُ الأنهار، تُطلق التيارات الحُبلى موجاتٍ من الأسماك. خلَّف له الماءُ زبَداً من الأسماك فوق الطوف. بالساطور يفتح بطن أكبر سمكة؛ ودون أن يتوقف لنزع القشور يغرس يده، ينزع الأحشاء، ويأكل اللحم النيء. هلك بودار! يمضغ أخرى. شبع هلاكا بودار! وقبل أن تعود الأسماك منسابة إلى الماء يقطع بالساطور نحو عشرين منها، يقطعها شرائح، ويتركها للشمس. لماذا؟ ليس لديه ملح. ستجعلها الشمس تتعفن في يوم واحد. في ساعات. يبقيها تحت أوراق الشجر. لا تبين ضفافٌ. يخترق التيار ضفافا من الضباب الكثيف، ثم يعنُف أكثر. يبدو له أنه يقترب من التحام السيبا مع الماسيسيا. هل أهرب إذن بالعكس؟ أهذي!


t.me/qurssan

ترفع الطوف موجة. انقضي عشرون عاما. تذكر نفسه في سجنه الأول: نحيلا، يواجه بشجاعةِ المأثوراتِ الشهيرة اللعينة لعملاء أمن الدولة. هذه المنطقة تسمى پاپارين. "قل أن الحقيقة أنك تنتمي إلى منظمةٍ إرهابية". أدارت اللكمةُ وجهه. ينساب دم البشروش على خديه. "قل أن الحقيقة أنك شاركت في أعمال تخريبية". وأتي الأسوأ فيما بعد: فقد ربطوا يديه من الخلف وعلّقوه في حبل حتى انخلعت عظمتا كتفيه. " قل أن الحقيقة أنك منذ سنوات طويلة تحلم بأنك طيرُ بشروشٍ قادرٌ على النفاذ من الجدران". تركوه يسقط على الأرض الأسمنتية، صبوا دلاء الماء فوق جسده العاري حتى استعاد وعيه. جرجروه وقذفوه على أرضية العنبر. استطاع نيكولاس الحصول على قنينة من صبغة اليود وقرص أسبيرين. وللمرة الأولى، أصابته نوبة ربو تلك الليلة. هاجمه سرب من طيور البشروش المعادية في حنجرته. مخالبٌ من حديدٍ تنهش صدره. وليس ثمة هواء. پاپارين: حفنة من الدور الناعسة على طول النهر. صرخ نيكولاس، "هنا سجينٌ يموت!". فأجاب الحراس الجمهوريون،" ليتهم يموتون جميعا!". طلب نيكولاس،"استدعوا الدكتور ثيا". "ثيا ينتمي إلى التحالف الشعبي الثوري الأمريكي "أپريستا"[53]". "وما علاقة ذلك؟، إنه طبيب فوق كل شيء". لكن ثيا لم يرد المجيء. ذهب نيكولاس بنفسه إلى زنزانته. پاپارين هو اسم هذا الإقليم. نظر إليه الطبيب السمين، أخصائي الحساسية، باحتقار. فاغرا، ومغلقا فمه، حاول السمك امتصاص الهواء. قال نيكولاس،"افحصه، من فضلك". أجاب الطبيب،"أنا لا أعالج الشيوعيين". لكن الإنسان لن يصبح أبداً، وحقاً، لا استعارةً، ولا لحما، ولا أعواما، ولا أحلاما، ولا شيئا، إن لم ينظّف إعصارُ الثورة قبلها الوحلَ العفِن للبؤس الإنساني. بعد أن انتهيا من تسليم الثمانمائة كيلو من الصحف القديمة التي جمعاها طوال اليوم في باريس ليكسبا ثمانين فرنكا، أشعل راميرو سيجارة وقال له: "نيكولاس، إننا نحيا من جمع القمامة، لقد بلغنا قاع الخراء، ولا يمكننا الهبوط أكثر. هل تتذكر



t.me/qurssan

ذلك الجزء من "رأس المال" الذي فيه عند الحديث عن عفن المجتمع البورجوازي، يقول ماركس أن هذا الوحل هو الطين الذي ستنبعث منه الحياة الجديدة، حياة أخرى، حياة جميلة، نظيفة، حرة؟ نيكولاس: أنت وأنا كنا أعضاء في شبيبة الحزب الشيوعي، وهنا الكثيرون من أمثالنا، مشوّشون، منحطو المعنويات، مُنتهَكون... لماذا لا ننظّم خلية، حركة ننطلق بها إلى الكفاح المسلح، لنصنع مرة وإلى الأبد، وحقا، الثورة في البيرو؟" عبر النهر تصعد زوارق ناعسة مسقوفة بسعف النخيل. يتدفق النهر مسرعا، لكن الحياة تتدفق أسرع من النهر. حياته، ما تبقى من حياته، كانت تتدفق أسرع من التيار. ثلاثون عاما انقضت. يحاذي الضفة. تغدو المراكب وتروح في الخليج. تحت سوط الشمس يجتهد تجارٌ، وبيروقراطيون، وحرس مدني، وعاهرات، وركاب ذاهبون إلى إيكيتوس، وقادمون من أتالايا. يعرف أنه لا يجب أن يخاطر، أن ما يفعله فظاعة، لكن الجوع يعميه. يهبط. يدخل يومُ الأحد معه إلى القرية. يتقدّم متخفيا. على مسافة قريبة يصادف قوما نائمين، سكارى ناجين من نوبة لهو. وتحت ضخامة شجرة لوبونا، ينام حبيبان عاريان متعانقين خلف بعض الأجمات. وأثناء نومهما ألقيا الغطاء. من أغصان شجيرة شائكة تتدلى ثياب الذكر: وملقى على الأرض يظهر ثوب الأنثى المنقّط بالزهور. على أطراف أصابعه، ببطء، ببطء شديد، متجنّبا أن يدوس أغصانا جافة يمكن لحفيفها أن يوقظهما، يقترب من النائمين. بأصابع من حرير يأخذ من الشجيرة البنطلون والتي ـ شيرت ، ويبتعد. وبعيدا عن الخطر، خلف نخلة سميكة، ينزع هلاهيله، ويرتدي البنطلون والتي ـ شيرت. في أحد الجيوب يعثر، لا يصدق، على نقود، لا يستطيع أن يصدق. وقريبا من المرفأ، على طاولة تظللها قطعة من قماش الخيش ، تبيع فتاةٌ إفطارا. يطلب قهوة ساخنة ويوكا مقلية. يشرب محاولا ألاّ ترتجف يداه بشكل مفرط. لكن أحدا لا يعيره اهتماما. يشتري المزيد من اليوكا ويعود إلى طوفه الذي تخفيه شجيرات الضفة. يدخل



t.me/qurssan

بـه مـن جديـد إلى النهـر. يسـحبه التيـار مـن جانـب، ويدفعـه نحـو امتداد شاسـع مـن المـاء السـاكن. لا ترحـم الشـمس جروحـه. المـاء مـن الكثافـة بحيـث لا يـدري إن كان يلمـس القـاع بطـرف القائـم. خـلال فرسـخ يعـبر مياهـا مخاطيـة، ثـم يعـاود التيـار الانطـلاق. الآن يتقـدم بسرعـة تبلـغ حـد أن يضطـر لإدارة وجهـه، غـير مصـدق، ليقتنـع أنـه قـد خـرج لتـوه مـن ميـاه هادئـة. ينتـزع النهـر قطعـاً مـن الضفـة بأشـجارها الحيـة. تمـضي أغصـانٌ مهـدَّدة محتكـةً بـه. الحيـاة تتدفـق أسرع مـن كل الأنهار. الإنسـان الـذي هـو أقـرب لموتـه مـما لميـلاده يحتـاج أن يسـعد بصـورة عاجلـة! هـل كان سـعيدا؟ مـلأت لـه فرنثيسـكا مـن جديـد كأس النبيـذ. "المشـكلة الأهـم ليسـت الإمبرياليـة، بـل المـوت"، قالـت لـه. ظـل يتأمـل. قـرب الضفـة التـي حفرهـا النهـر تـراءى لـه الطـينُ المشـبّع بالمطـر الـذي يغطـي قـبره. لـن يكـون لـه قـبر. سـيكون شـاهد قـبره هـذا الزّبَـد البنـيّ. "لا، يـا فرنثيسـكا، المشـكلة الأهـم هـي الإمبرياليـة، لأن الإمبرياليـة هـي المـوت. ورغـم أن الثـورة سـتعني مؤقتـا بالنسـبة لنـا المـوت، فالثـورة هـي، وسـتظل، الحياة". ضربت الطوفَ دفقةٌ من المياه الهائجة، رفعته وطوحت به في الهواء.



t.me/qurssan

# 12. سانتياجو يرى حيواناً لم تقع عليه عيناه قط

فوق فوضى الملاءات، كان جسدانا جسدا غريقين، هما الناجيان الوحيدان من الإعصار البهيج الذي حطّم أصص وردٍ، وزجاجات، وكؤوس. لم يعد جسدانا يتسعان لاحتواء المزيد من البهجة. ماري كلير، ولم تزل مبللةً بالنعاس، تقلّبت دون أن تدري وعند اتكائها عليّ احتكت حلمتاها بصدري. فكأن مجنونا يركض بين أشجار غابةٍ كلّسها الصيف يلقي مشاعل أحرقت كل شيء على الفور. لم يعد جسدانا يستطيعان تحمّل المزيد من اللذة ورغم ذلك، ونحن نلمح بعضنا من جديد، نكتشف أن تلك الغابات المشتعلة أقل من لهب غصن، أقل من لهب ورقة شجر، هي بالكاد بداية البداية.

في المرآة، في مواجهة الفراش، أخذتُ أتأمل الحركات البطيئة التي تجلب الدُّوار لحيوانٍ لم تره عيناي قط. رأيت كيف تنصهر



t.me/qurssan

سيقانه الأربعة في اثنتين. رأيت أن الوحش الرائع الجمال ذا رأسين، أن رأساه تتعاركان، تعضان بعضهما، تقبلان بعضهما، تنتزعان خطمي بعضهما. رأيت أن رأسيه تجتمعان في واحدة. رأيت سخط عيونه الأربع وهي تقاوم أن تكون اثنتين. وفي العيون التي نجت رأيتُ بهجة أنها صارت اثنتين فقط. رأيت كيف تتصارع الأصابع العشرون لأيدي الوحش، وتتجادل، وتختفي وراء ظهره وتعاود الظهور وقد تحولت إلى عشر، وأظافر الواحد في أصابع الآخر. رأيت أن أيديه الجديدة قد هاجمت ما تبقي من سحنتيه، ومزقت اثنتين من الشفاه الأربع للحيوان اللاهث البليغ الجرح، ولم تترك له إلاّ فما واحدا، لا يشبع. رأيت أن إحدى الشفتين تنتمي إلى الوجه الجديد والأخرى إلى المتروك. رأيت أن الغُرّتين، الآن بلا نزاع، قد اختلطتا بوداعة في كتلة شعر واحدةٍ، تارةً سوداء، وتارة كستنائية، وتارة فاحمة، وتارة خضراء. رأيتُ كيف يأخذ الوحش في المسالمة، في الهدوء، في النعاس. عندها، وعندها فقط، رأيت أن الحيوان العجيب يستلقي في فراشنا وليس في فراش المرآة. وأن جسدينا هما جسده. وأن في وجهه تمتزج ملامح مع ملامحي. وفهمت أنها أنا، أنني هي، أنه أنا وهي هو. نظرت إليها. نظرت إليّ. نظرتُ لها لنا. نظرَتْ لي لنا. كنّا النموذجَ الفريد لنوع فريد، بدايةَ ونهاية سلالةٍ مصيرها أن توجد هذه اللحظة الفريدة! أولَ وآخر نموذج لسلالةٍ منقرضة، النموذجَ الأخير لنوع سيولدُ يوما ما!

حين استيقظنا لم تعد الشمس تلمع. ورغم ذلك، كان من الضروري أن نُفطر. نهضت ماري كلير وارتدت ثيابها بأناقة غير متوقعة. سارت نحو المطبخ. سمعتها تجمع المراسلات التي يدفعها البواب تحت الباب من حين لآخر. وسمعت صوتها المنفعل:

- لا يمكن! - تعجَّبَت، عائدةً إلى غرفة النوم بصحيفة بين يديها.



t.me/qurssan

نهضـتُ. بعينيهـا مصوبتـين إلى الصفحـة الأولى، بـين مُنكِـرةٍ وراضيـة، بـين مُندهشـةٍ وممتنـة صرخَـت:

- البابا تزوج!

أفقـتُ بغتـةً. ودون أن أفهـم شـيئا ردّدتُ العبـارة العبثيـة التـي يكـذّب بهـا الحمقـى نبأ وفـاة يجـري الجـدال بشـأنها: "لا يمكـن، منـذ ثلاثـة أيـام رأيتـه خارجـا مـن السـينما".

- لا يمكن! - أصررتُ.

إلاّ أن مـاري كلـير، دون التفـاتٍ لحـيرتي بـدأت قـراءة البرقيـات التـي هـزت العـالم.

- **البابـا تـزوج**... ميامـي (يـو پـي أي، فرانـس پريـس، رويـتر، پرنسـا لاتينـا). بشـكل مباغـت، قـام مواطـن رومـا چيانكارلـو پاڤينـي، المعـروف عالميـا بأنـه البابـا يوحنـا بطـرس الثالـث، بعقـد قرانـه هـذا الصبـاح في الكنيسـة الأم لهـذه المدينـة، عـلى السـنيوريتا مايسـا دا سـيلفا دوس سـانتوس، المعروفـة عالميـا، بدورهـا، بأنهـا "مايسـا الأولى، ملكـة جـمال البرازيـل"...

- لا يمكن! - قاطعها صوتي، صوت الجراموفون المشروخ.

لكـن مـاري كلـير، المندهشـة هـي ذاتهـا، تركـت قـراءة الخـبر الرئيـسي وقـرأت بمـرح، بصـوت عـالٍ، العناويـن الفرعيـة، المحيّرة هـي الأخـرى.

- ... **لقـد جُـنّ، يقـول الفاتيـكان**... رومـا ـ عاجـل ـ (يونايتيـد پريـس). ـ في انتظـار البيـان الوشـيك الـذي يسـارع بـه الكـرسي الرسـولي إلى مواجهـة أخطـر أزمـة للمسـيحية منـذ أن أنكـر القديـس بطـرسُ يسـوعَ المسـيح للمـرة الثالثـة، صرح ناطـقٌ باسـم الكرادلـة، فضّـل عـدم الكشـف عـن اسـمه، أنـه في حالـة تأكّـد الخـبر المزعـوم للـزواج المزعـوم للحـبر الأعظـم


t.me/qurssan

المزعـوم، فسـوف يكـون الأمـر حالـةً لاتقبـل الشـك ولا الجـدال لخـرف الشـيخوخة...

- لا يمكن...!

- **...نعـم، أنـا مجنـون، لكننـي مجنـونٌ حبـاً، يعلـن الأب المقـدس...** ميامـي ـ (عاجـل جـدا. ـ) عنـد إطلاعـه عـلى تعليـق الفاتيـكان بشـأن جنونـه المزعـوم، لحظـاتٍ قبـل ركوبـه يخـت أحـد شـهود قرانـه، الممثـل فرانـك سـيناترا، أعلـن الأب المقـدس بكياسـة: "نعـم، أنـا مجنـون، لكننـي مجنـون حبـا، وأرجـو بمشـيئة اللـه أن يكـون كل كرادلتـي مثلي يوما مـا..".

بـدأت أشـك في صحـة الحـدث، لكـن رباطـة جـأش مـاري كلـير أعـادت إليّ الإيمـان.

- **أردتُ دومـا أن أتـزوج بابـا، تعلـن العـروس المتألقـة...** باربـادوس. ـ عاجـل جـدا. مؤكـد. ـ (وكالـة رويـتر). ـ "حلمـت دوما بـأن أتزوج بابـا"،كان هـذا هـو التعليـق الوحيـد الـذي أدلـت بـه ملكـة جـمال البرازيـل السـابقة الباسـمة والرائعـة الجـمال، والعـروس الحاليـة للحـبر الأعظـم، لمراسـلنا في باربـادوس. وكانـت الأم المقدسـة ...

لم تسـتطع الاسـتمرار. إذ شرعـت مـاري كلـير في الضحـك وهـي تغطـي وجههـا براحتيهـا.

- خسـارة ألاّ يكـون ذلـك صحيحـا! - تنهـدتُ -. كان سيسـعدني أن أحـضر العـرس...!

وجالسةً على حافة الفراش:

- لقـد مللـتُ مـن قـراءة أخبـار فظيعـة أوحمقـاء. مـن الآن سـأقرأ فقـط أخبـاري الخاصـة. هاهـي: النسـخة الأولى مـن "**الحقيقـة**"، الصحيفـة الوحيـدة في خدمـة الكـذب، أو بالأحـرى الفانتازيـا...! هاهـي الصحيفـة الوحيـدة التـي سـيقرأها فخامتكـم طالمـا عشـت معـي!



t.me/qurssan

بينما كنتُ أضع خوان في الطائرة إلى داكار، كانت ماري كلير قد حرّرت صحيفتها، ولصقت النصوص فوق ورقة صحيفة حقيقية، وشكلت العناوين بحروف الطباعة تلك التي يستخدمها الفنانون الجرافيكيون في أعمالهم.

- هل قرأتَ پروست؟ - سألتني فجأة.

- لا.

- في موضع ما من "البحث عن الزمن المفقود"، ستعثر عليه حين تعرف هذا الكتاب الذي لا يُنسى، يتحسّر الراوي على أن الابتذال اللانهائي للصحف يزدري الأخبار السامية حقا. مثلا، أيّ وكالة أنباء كانت ستنقل الحدث الذي في زمنه، بدل الاحتفالات المحتدمة في قصر ڤرساي، كان يجب أن يأتي على رأس العناوين الرئيسية لكل الصحف التي لم تكن موجودة حينها؟ ويتخيّل بمتعةٍ مانشيت: "**اليوم فرغ المركيز دي سان ـ سيمون من كتابة مذكراته**"...

ومُتناولةً يدي، مُربّتة عليها:

- خسارة أن عدد "لوموند" القادم لن ينشر الخبر الوحيد المهم اليوم...!

وظل عيدُ عينيها ناظرا إليّ:

- ياللعار ألاّ تحمل صحف العالم غدا مانشيتا في صفحتها الأولى يقول: **سانتياجو وماري كلير ظلاّ سعيدين بجنون طوال يوم أمس**...

- قفزتُ من الفراش ورفعت جسد ماري كلير في عناقٍ يضحكُ معها. انزلقت مني بنعومة ومضت إلى المطبخ.

- سواءٌ أحربٌ أم سلام، سواء تزوج البابا أم طلّق، مهما كانت إثارة النهار، فسوف أذهب لأعدّ الإفطار.

بقيتُ أحلم بالمانشيتات التي ستنتشر في كل أكشاك الصحف نبأ اكتمالنا. **سانتياجو وماري كلير ظلاّ سعيدين بجنون طوال يوم أمس**...



t.me/qurssan

سـمعت غليـان المـاء، وحركـة الملعقـة الصغـيرة تذيـب السـكر في قدحـي القهـوة.

ظهرت عنـد بـاب غرفـة النـوم بصينيـة من الخشـب. ناظـرا إليهـا وهي تضحـك، شـاعرا أن حيـاتي أكـثر مـن حياة، انتابنـي الخـوف. هـل سـأكون قـادرا عـلى الذهـاب؟ هـل أنـا قـادرٌ عـلى تركهـا؟ تمامـا مثـل أول شرخ في إيمـان مؤمـنٍ يعـبرُ روحَـه ميـلادُ هرطقـة، هكـذا، في نفـسي، بزغـت، للمـرة الأولى، الرغبـة في التخـلي عـن كل مـا ليـس هـي. هـل سـأكون مخلصـا؟ وحتـى متـى؟

- حتـى المـوت! - صرخـتُ بالإسـبانية -. حتـى المـوت! - كـررتُ، لكننـي لم أتعـرف عـلى صـوتي. كان جسـدي يعـرف أننـي أكـذب...

شـعرتُ أن الوجـود دون مـاري كلـير سـيكون خـواءً، حضـوراً لاختفـاء. وإذا كنـتُ بـدل الانخـراط في ذلـك الفـوج، الـذي في نهايتـه، كـما أرى الآن بوضـوح، ينتظـرني المـوت، اخترتهـا هـي، مـاري كلـير، الحيـاة؟ هـل أكـون مخلصـا؟ ألسـت بالفعـل غـير مخلـص؟ فـلا أنـا ولا مـاري كلـير كنـا قـد تحدثنـا أبـدا عـن الجمـع بـين حياتينـا. وأكـثر مـن ذلـك: في اليـوم الـذي تعارفنـا فيـه تعاهدنـا عـلى ألاّ يكـون لنـا مـاض. كانـت سـهواً، ونـادرا، تذكـر أسـماء بعـض المـدن، وبعـض الأحـداث المتفرقـة. وعـن طريـق إشـاراتٍ معينـة غـير حاسـمة كنـت أخمِّـن، مثـلا، أنهـا قـد عاشـت في نابـولي، أنهـا عرفـت المكسـيك بتمهـل، أنهـا زارت القـدس. والطريقـة التـي كانـت مـاري كلـير تستشـهد بهـا بنصـوص بعـض القباليـين[54] جعلتنـي أشـك أنهـا ربمـا كانـت يهوديـة، لكـن الحـماس الـذي تتذكـر بـه بعـض أصدقائهـا العـرب، والدقـة التـي تسـهب بهـا في تفاصيـل المطبـخ المغـربي، تعيـدني إلى الاسـترابة، إلى الاسـتغلاق، حـين تتحـدث عـن ماضيهـا. فـماري كلـير كانـت تتحـدث كي لا تقـول لي شـيئا، في الحقيقـة. وأنـا؟ أنـا أيضـا لم يكـن لي مـاض ولا مسـتقبل. كنـتُ مجـرّد حـاضر، حـاضر متجانـس مـن القتـال، والسريـة، والمـوت. كنـت قـد تدربـت لأجيـد النضـال. يتوجـب



t.me/qurssan

عـليّ أن أمـوت أو أقتـل. لم يكـن المـوت يبعـث في الرعـب. كان المـوت بالنسـبة لي رفيقـا إضافيـا، مقاتـلا ربمـا سـقط قبـلي خـلال المعـارك القادمـة. أن تمـوت؟ ومـاذا بعـد؟ أن تقتـل؟ ومـاذا بعـد؟ المـوت بالنسـبة لنـا هـو طريقـة أخـرى للحيـاة، قلـت لنفـسي. لكـن كلـماتي لم تقنعنـي. أو، بالأحـرى، العبـارات التـي كانـت تقنـع روحـي لم تكـن تقنـع جسـدي. يتوجّـب عـليّ أن أمـوت أو أقتـل. أنـا تدرّبـت مـن أجـل المـوت. رأيتنـي مـن جديـد في المعسـكر. كنـت قـد وصلـت عشـية ذلـك اليـوم مـن بـراغ. بحكـم الروتـين أو الاحتيـاط - فلـم يُعـرف أبـدا إلى أيـن تنظـر عيـون الـسي أي إيـه -، توقفـت الطائـرة عنـد نهايـة مـدرج ثانـوي في مطـار هافانـا. عنـد بـاب الطائـرة الأنتونـوف كانـت تنتظرنـا عربـات جيـب عسـكرية. وعـلى الفـور قادونـا إلى المعسـكر. اسـتقبلتنا في عنـبر الإقامـة الابتسـامة المتحمسـة للاينيـث، في الـزي العسـكري الأخـضر الزيتـوني. كانـت البهجـة تطفـر مـن جلودنـا. أخـيرا، أخـيرا...! جريجوريـو، ورامـيرو، ونيكـولاس، أخـيرا، أخـيرا!، دخلـوا عـلى الفـور واصطحبونـا إلى المخـزن الـذي خرجنـا منـه، أخـيرا، أخـيرا!، بأحذيـة عسـكرية، وبنطلونـات وقمصـان مقاتـلي ميليشـيا. ولويـس؟، سـألتُ. ولويـس؟ ردد إلى جانبـي زميـل كئيـب، قصـير، لم يقـل كلمـة واحـدة خـلال الرحلـة. "كل شيء بأوانـه"، أجـاب نيكـولاس. عدنـا إلى العنـبر. فرّجنـا جريجوريـو عـلى أسرّة المعسـكر، ذات الدوريـن، التـي سنشـغلها. وأسـعدني أن لاينيـث سـينام تحـت سريـري. كنـت أشرع في إخـراج كرتونـة سـجائر مـن حقيبتـي حـين ظهـر لويـس. دخـل معـه خمسـة مقاتلـين مسـلحين، خلاسـيين أو هنـود، مثلنـا، بيروانيـين بالطبـع. وعـلى عكـس كل مـا توقعنـاه، بـدا لويـس، المبتسـم دائمـا، بوجـه متجهّـم. وبصـوت أشـد تجهـما قـال:

- يارفاق، اقتربوا...

دون أن ندري ماذا نظن، مستغربين، تجمعنا في نصف دائرة.


t.me/qurssan

- لـديّ أمـرٌ مهـمٌّ أقولـه لكـم. لكننـي قبلهـا أود تهنئتكـم. أعـرف، في لحمـي أنـا، مـا يشـعر بـه ثـوريٌ أصيـل حـين يرتـدي لأول مـرة اليونيفـورم المجيـد لمحـرّري السـيرا مايسـترا. أقـول لكـم، ببسـاطة، كونـوا جديريـن بارتدائـه...

وضع يديه في وسطه، ومسحنا بنظرته.

كلكـم تعرفـون لمـاذا ولأي غـرض نحـن هنـا. فهنـا سـنتلقى التدريـب الـكافي كي نسـتطيع أن نواجـه، بالسـلاح في أيدينـا، القـوات التـي تدافـع عن النظـام الاجتماعـي المتعفـن في البـيرو. سـأذهب عـلى رأسـكم. وسيسـقط الكثـيرون منـا في النضـال ضـد العـدو. لكـن لـن يمـوت الجميـع بصـورة مجيـدة. سـينال الشـجعان ميتـة الشـجعان، والخونـة نهايـة الخونـة.

ومتوعداً، بعينين كستنائيتين، ملتمعتين من السخط المكتوم.

- هنـا، بينكـم، يوجـد متسـللان. نعـرف، دون أي شـك، أن الأمـر يتعلـق بعميلـين للـسي آي إيـه. كنـا نعـرف ابتـداء مـن البـيرو. وإذا كنـا قد سـمحنا لهـما بـأن يتبعانـا، ويعتقـدا أنهـما قـد خدعانـا، إذا كنـا قـد تحملنـا أن يصلا حتـى هنـا، فذلـك لسـبب بسـيط جـدا: أنهـما سـيعدمان بالرصـاص غـدا. قبـل انبـلاج الفجـر سـآتي لأسـلمكم الأسـلحة التـي سـتقتصون بهـا منهـما بأنفسـكم...

دومـاً في عيـد، تركـت مـاري كلـير الصينيـة عـلى الأرض، واسـتدارت إليّ، وبـدأت تقبـل عنقـي بصـورة لا تـكاد تكـون محسوسـة، أخـذ فمهـا في الهبـوط بـين شـعيرات صـدري، حارقـا بطنـي، مقتربـا مـن رغبتـي البالغـة الأيـلام. لم أكـن أري شـيئا: ويـداي، مثـل أعميـين يتقدمـان دون أن يخطئـا لأنهـما يعرفـان كل شيء مـن الذاكـرة، يـداي العميـاوان ذرعتـا نهـدي مـاري كلـير، فخـذي مـاري كلـير، الأجمـة المبللـة لمـاري كلـير. وبرعـب زنديـقٍ اكتشـفت أننـي أريـد أن أعيـش. أن أعيـش الآن، أن أعيـش هنـا، مـع مـاري كلـير. وأن أعيـش دومـا هكـذا. دومـا.



t.me/qurssan

# 13. نيكولاس يعبر سباحة بولفار سان چيرمان

شمسٌ لعينة، شمس بنت زانية، شمس خرائية...! يتمنى نيكولاس أن تكون الشمس عملاقا بعين واحدة[بوليفيمو[55]]، يمكن لعينه الوحيدة، التي تكون في متناول ذراعه المسلوخة، أن يفقأها سن مجدافه. لكن الشمس تظل هناك، تسلُقه بلا رحمة. آه، لو استطاع أن يفتح عين الشمس كي تلفه نداوة الظل! يغمض عينيه، ويفتحهما: لكن الوقت أصبح ليلا! هل الوقت ليل؟ لكن إذا كان الوقت ليلا، فأي شمسٍ تشتعلُ فوق هذيانه؟ هل يخلط الليل بالنهار؟ يدخل طوفه التيار. بأشواكٍ من جذوع، وشبه غائصة في النهر، تنتظره الشمس. لو خرج حيا من هذا التيار، فلن يتبقى له سوي الإفلات من موقعَي حراسة. انقضت خمسة عشر يوما. موقعان سهلا العبور. بعدها سيجد دروبا واسعة، سيسيرها متنفساً الصعداء، وسيصل إلى الطريق السريع. وستحمله إحدى عربات النقل. يتذكر عربة نقل لاينيث فيغلبه الضحك. مضت سنوات على ذلك، كان لاينيث يعيش



t.me/qurssan

مـع مرثيديتـاس، تلـك الفتـاه البالغـة الـثراء، البالغـة الشـبقية، والكثـيرة الطلبـات. "لقـد ضعـتُ، يـا أخـي - صارحـه لاينيـث -، لا أسـتطيع العيـش دون هـذه المـرأة". " ولمـاذا لا تبحـث لـك عـن أخـرى؟" "لا أسـتطيع، لقـد صرت أتبعهـا كالكلـب". "ومـا هـي المشـكلة؟" المشـكلة أن أي نقـود لـديّ لاتكفـي نزواتهـا... لم يعـد لـديّ مـا أرهنـه أو أبيعـه... وأنـا هنـا، فيـما بيننـا، أعـترف لـك بأننـي أنفقـت حتـى النقـود التـي أعطتهـا لي الحركـة لأطبـع منشـورات الاجتـماع الجماهـيري..". "اللعنـة، لكـن الاجتـماع يـوم الأحـد...!" في يومـين، ومقترضـا مـن كل النـاس، سـاعد لاينيـث عـلى اسـتعادة نقـود المنشـورات. لكـن لاينيـث لم يسـتعد هـدوءه: "أعمـل سـاعات إضافيـة رغـماً عـن أنفـي. فمرثيديتـاس تنفـق في سـاعة واحـدة مـا أكسـبه في أسـبوع، بهـذا المعـدل لم يبـق أمامـي سـوى السرقـة..". ضحكـتُ: "إن كنـت قـررت أن تصـير لصـا، لم لا تصـير تاجـرا؟" "أنـا تاجـر؟ أتاجـر في مـاذا، إن كنـت لا أملـك إلاّ مـا أرتديـه؟" "وسـيارتك الفولكـس فاجـن؟" ليسـت سـيارتي، إنهـا سـيارة أخـي". "ومـاذا يهمـك؟ - قلـت لـه -. منـذ متـى في تاكـورا يطلبـون مسـتندَ ملكيـةٍ لـشراء سـيارة؟" "حسـنا، لنفـترض أننـي سـأبيع السـيارة. مـاذا بعـد...؟" "هـل تعـرف الغابـة؟" "ولا بمجـرد النظـر". "الأمـر سـواء، يـا أخـي: الأعـمال رائجـة في الغابـة. ألم تـر كيـف يصـل سـائقو الشـاحنات إلى سـوق الجملـة محملـين بالفاكهـة فتمتـلىء جيوبهـم بالنقـود مـن رحلـة واحـدة؟ في تينجـو ماريـا لا تكلّـف حمولـة شـاحنة مـن المـوز شـيئا، وفي ليـما تسـاوي عـشرة أضعـاف ثمنهـا". بـاع لاينيـث الفولكـس فاجـن بثمـن بخـس؛ فعنـد عودتـه مـن تينجـو ماريـا سيسـتطيع شراء اثنتـين، كل مـا تطلبـه مرثيديتـاس. اسـتأجر شـاحنة، سـافر إلى الغابـة، شـحنها بالمـوز الأخـضر - سـينضج في الطريـق - وممتلئـا غبطـةً توجـه كسـائقٍ مشـارك إلى ليـما. كان لاينيـث قـد توقّـع كل شيء باسـتثناء المطـر: كان المسـار مـن تينجـو ماريـا إلى هوانوكـو سـاحة أوحـال، أخـذت الشـاحنة تنزلـق، وتئـن، وتتعطـل تـارة إثـر أخـرى، ثـم تنطلـق مـن جديـد مخلّفـة خيطـا مـن المـوز. وقـرب هوانوكـو، منعـه انهيـار تربـة تـلٍ



t.me/qurssan

مـن العـودة. هنـاك، أسـرة فيضانـين جارفـين، بقيـت الشـاحنة أسـبوعا. ومـع الشـمس لم ينضـج المـوز فحسـب: بـل تعفّـن. اللعنـة، أي نصيحـة تلـك التـي نصحتنـي...! أمـام عينـيّ أخـذ المـوز ينسـال قطـرات، كانـت سـيارة أخـي الفولكـس فاجـن تتحـول إلى خـراء وأنهالـت آلاف الدبابـير والنحـل الأسـود لتلعـق مجانـا شـحنتي برمتهـا، نقـودي... ومنتفخـا، مـن لسـع الدبابـير، وسـئِماً مـن كـوني تاجـرا، سـئما مـن كـوني زوج مرثيديتـاس، وسـئما مـن أكل المـوز، قـررت الهـرب. لم تتركنـي الشرطـة. تقـاضى السـائق، الحيّ رغـم كل هـذا، أجـر الأيـام الثمانيـة وهـرب عـبر الأراضي الصخريـة. ومضيـت أنـا عـبر الطريـق. وعنـد نقطـة تفتيـش هوانوكـو أوقفـوني. المؤكـد أن السـائق قـد أبلغهـم ببيانـاتي. "اسـمع، إلى أي خـراء تعتقـد أنـك ذاهـب؟"، قـال لى جاويـش. "ذاهـب إلى ليـما، ياسـيدي الجاويـش". "وشاحنة المـوز الفـورد التـي تركتهـا عـلى الطريـق...؟" "هذههـه..". أردت القـول ، لكـن الجاويـش قاطعنـي: "أنـت اسـتأجرت هـذه الشـاحنة، وأنـت حولـت المـوز إلى خـراء، أنـت خـراء ولـن أدعـك تمـضي دون أن تزيـح كل هـذا الخـراء عـن الطريـق...!" عـدت يحرسـني جنـدي حـرس مـدني. اكتشـفت الشـاحنة التـي تلفهـا سـحابة مـن الدبابـير. جلـس الشرطـي عـلى صخـرة، عنـد سـفح التـل، بينـما عـبرت أنـا، مغطيـا وجهـي بمعطفـي، سـحابة الدبابـير وصعـدت إلى كابينـة الشـاحنة. انطلقـت أقـود، تلاحقنـي آلاف الدبابـير الحانقـة، والنحـلات السـوداء، تهاجمنـي، ولا تدعنـي أرى الطريـق. وحتـى أهـرب اصطدمـت بالتـل. اضطـررت أن أبيـع للشرطـي معطفـي، وسـاعتي أيتهـا السـاعة أوقفـي سـيرك. اجعـلي هـذه الليلـة سرمديـة، ومعطـف المطـر الـذي أعرتنـي إيـاه، والبطانيـة التـي أعـارني إياهـا أخـي، والحـذاء الـذي كان ملـكي، وبتلـك النقـود ومـا تبقـى لـدي اسـتطعت سـحب وإصـلاح الشـاحنة. انقضـت سـتة عـشر يومـا. إذا خـرج حيـا، سـيجد دروبـا، سـيصل إلى الطريـق السريـع، سـيركب شـاحنة مـوز. يعـاود الضحـك. سـيخترق سلسـلة الجبـال، سـيعبر قفـر ثـيرّو دى پاسـكو، سـيبلغ هوانكايـو، سـيبحث عـن رقـم 163 بشـارع كاي ريـال، سـيطرق



t.me/qurssan

الباب. سيفتح بودار: "كنت أنتظرك، يا أخي"، سيسحب المسدس الذي استطال بفعل كاتم الصوت، سيسقط جسد بودار، سيلطخ الدم الخائن لبودار الجدران. "لقد ضعت، يا أخي، لا أستطيع العيش دون هذه المرأة". فجأة يشعر بالوحدة ويحسد سانتياجو. هل سأموت، هل أحتضرُ فعلا؟ أكثر ارتفاعا من أشجار اللوبونا على الضفة يلمح شجرة شهرته المستقبلية. لم يُنكر شيئا. لو وُلد من جديد لكرّر نفسَ الحياة، نفسَ الأفعال، نفس الأخطاء، لشارك في نفس النضالات، ولهجر من أجلها حبّه الوحيد. ومرة أخرى حسد سانتياجو. ماذا لو لم يكن فعلُ التخريب الحقيقي هو الثورة التي سيموت من أجلها بل الحياة مع فرنثيسكا، الحب الذي تركه...؟ يستيقظ في الماء. يُباعد الدفقُ الطوقَ عن جسده الذي لم يكن مربوطا. يراه يمضي متخبّطاً بين الأمواج. الضفاف لا تُرى. السرعة التي تنمو بها الشجرة ليست السرعة التي تنمو بها الأوراق. لم تقض أية معركة نهائية على العبودية. أما التمردات المجهولة، النضالات الغامضة، المعارك الخاسرة، معارك أمثال سبارتاكوس، وبوجاتشوف، وتوپاك أمارو، وإميليانو ثاپاتا، وجارابومبو الذي بلا وجه، فقد قضت على الهمجية. كانت معاركهم خميرة المستقبل. وحتى لو سقطنا غامضين، مجهولين، منسيين، فنضالنا له معنى: نحن البذرةُ التي فيها ينتظر مستقبل أمريكا. سبح بهدوء صوب بولفار سان چيرمان. كان الفجر يشرق. مخالفا القاعدة التي وضعها بنفسه، خرج مع فرنثيسكا بحثا عن مقهى. لم تكن باريس قد فرغت من الاستيقاظ. كان البولفار مأهولا بالعمال، بمنظفي الشوارع، بالجرسونات الذين سرعان ما سيفتحون المقاهي، بشاحناتٍ تنقل اللحم، والخضروات، والبيض، والفواكه، كل ما تطلبه معدة باريس. يحاول تهدئة نفسه؛ فالهدوء هو إمكانيته الوحيدة للنجاة. سارا دون أن يصادفا مقاهي مفتوحة. في ميدان سان ميشيل لمحا مقهى بول دور، طلبا قهوة بالحليب. على المناضد الخلفية، متحمّلين القاذورات التي تلقيها فعلياً مكنسةُ جرسون مستاءٍ على أحذيتهم



t.me/qurssan

، كان أربعة زنوج يضحكون صارخين، يتنفَّسَ بعمق، يغطس بوجهه تحت الماء، يسبح بهدوء. أمرهم صاحب العمل الغاضب بالسكوت. هل يظنون أنهم في الغابة؟ يظهر الطوف على بعد عشرين مترا، ثم يعاود الغوص، ويبزغ من جديد على بعد ستين مترا، يختفي في المنحنى، أحضر الجرسون فنجاني القهوة بالحليب وشريحتي خبزٍ مدهونتين بالزبد. "واصِل السباحة، لا تيأس، حرِّك ذراعيك بهدوء"، تقول فرنثيسكا. لا يدري لم يسبح، لكن حين تضعه المياه التي تجذبه في المنحنى، يختفي تعبه، وتستعيد ذراعاه الحيوية: هناك، تحتجزه جذوعُ سياج، بين مناضد المقهى، منتظراً إياه، يقف الطوف! أيتها الساعة، لا تسجلي الساعات، لأنني سأجنّ ...



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 14. ماري كلير
# تعثرُ على مياهٍ جوفية

ذكّرتني فوسفورية الساعة فوق المدخنة بأنني لا يجب أن أكون هنا بل في شارع كوماندان چيبو، مشاركا في الاجتماع الذي دعا إليه نيكولاس. وجعلتني فوسفورية ماري كلير فوق الفراش أنسى ذلك. واصلتُ تقبيلها. فجاوبني لسانُها برقة، لكن دون لهب. انفصلَت عني.

- أنا أعرف ما يجري لك - قالت لي.

أسندت رأسها فوق صدري، ألصقت أذنها بجلدي، والتصقت بي أكثر، وقالت بنعومة:

- أنا أسمع ما لا تقوله لي، ما تعتقد أنك لا تقولَه لي... مثل الباحثين عن الماء في بلدك، حسبما حكيت لي أنت نفسك، مثلما يضعون آذانهم على الأرض ويعرفون كيف يستمعون، في باطنها تحت طبقاتٍ وطبقات من الصخر، إلى صوت المياه السري، ثم ينهضون ويُشيرون



t.me/qurssan

إلى الموضع المضبوط حيث يجب الحفر ويأمرون بثقب البئر؛ هكذا، مثل أولئك الباحثين عن الماء، أضع أنا أذني على جسدك وأستمع عن قرب إلى الأشياء التي حدثت لك بعيدا، إلى كل أصوات حياتك، وأكتشف مسارك الحقيقي...

ماذا كانت تعرف، ماذا كان يمكن أن تعرف؟ هل تحدَّثتُ أثناء نومي...؟ ودون أن أولي الأمر أهمية، سألت:

- وماذا تسمعين؟

- أنك ما كان يجب أن تكون هنا الآن، يا سانتياجو.

- أستطيع إرجاء موعدي.

- هذا النوع من المواعيد لا يمكن إرجاؤه، وأنت تعرف جيدا.

نهضَت، وأشعلت سيجارة چيتان. حدّد الضوء، الذي يرشح من الشيش الخشبي السيء الإغلاق، خطوطَ جسدها.

- ما كان يجب أن تكون هنا - كرَّرَت بين نفثات الدخان.

كانت الساعة التاسعة. ارتديت ملابسي على عجل. وصحبتني حتى الباب.

- لن نبقى على الأرض للأبد، إنها مجرد هنيهة هاهنا - ذكَّرتني.

- ماذا تريدين أن تقولي لي، يا ماري كلير؟

- لا أريد أن أقول شيئا. أقول لك: لن نبقى على الأرض للأبد، إنها مجرد هنيهة هاهنا...

أردتُ أن أقول لها أن ... لكن الوقت كان متأخرا، لم أكن أستطيع التلكؤ أكثر. دون أن أستدير نزلت السلم قفزا. وقرب بوابة الشارع، وجدت تاكسيا لحسن الحظ، أوقفته، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى الشارع الموازي لشارع الكوماندان چيبو. انتظرت أن يبتعد التاكسي،



t.me/qurssan

ثـم سـارعت بقطـع المائـة مـتر التـي تفصلنـي عـن المبنـى، وصعـدت. فتحت لي الابتسامةُ المتألمة لكاميلو، أسوأ مـن الـ "في أي داهيـة كنـت" التـي كان سيستقبلني بهـا لاينيـث أو النظـرة المتجهمـة لنيكـولاس. دخلـتُ إلى الغرفـة المضبَّبـة بدخـان التبـغ. كان جييرمـو يتحـدث. ولم يقطـع وصولي حديثـه.

- ... و، رغـم أن الشرطـة البيروانيـة - قـال - لا تملـك، في الظاهـر، معلومـات دقيقـة، فقـد ألقـت القبـض عـلى سـتة مـن الرفـاق الذيـن كانـوا يسـتعدون للخـروج مـن البـيرو للذهـاب للتدريـب في كوبـا. تقريبـا كل الرفـاق الخمسـين الذيـن يجـب أن يسـافروا لا يسـتطيعون ذلـك حتـى الآن، بسـبب تعقيـدات، جـوازات سـفر، إجـراءات بيروقراطيـة. فكرنـا في سـحبهم عـلى مراحـل. لكـن الشرطـة البيروانيـة تقبـض عـلى رفـاق ليـس لهـم سـوابق، سريـين، في مخـابيء في مأمـن مـن الوشـاية. وهـذا يشـير إلى أن في حوزتهـم معلومـات حقيقيـة عنـا. مـن أيـن؟ نحـن نراجـع كل قنـوات التقسـيم، وكل قواعـد الأمـن، وكل نظـم الارتبـاط والاتصـالات. أيـن الثغـرة...؟ لانعـرف بعـد. وفي هـذه الأثنـاء، فإننـا نواجـه خطريـن متسـاويين تقريبـا: أن نسـحب كل الرفـاق، خمسـين!، خـلال أسـبوع، مـع احتـمال أن يسـقطوا جميعـا في المطـار وأن يفككـوا شـبكتنا ويضيعـوا علينـا أعوامـا مـن العمـل... أو أن نغـير القواعـد، وطـرق الخـروج، ونسـحبهم عـلى مراحـل، كـما فكرنـا في البدايـة...

- الثغـرة هنـا - قاطعـه نيكـولاس، مشـيرا إلى السـتارة التـي تغطـي نافـذة الطابـق الخامـس.

رأى أن جييرمو ينهض صوب النافذة فعاود مقاطعته:

- لا تفكـر حتـى في إطفـاء النـور، أزِح السـتارة وانظـر، كأنـك تريـد تهويـة الغرفـة وتصريـف دخـان هـذه الخفافيـش...



t.me/qurssan

لم يدعـه جييرمـو يواصـل الـكلام، ذهـب إلى البـاب في صمـت، وفتحـه دون جلبـة، ودون جلبـة هبـط درجـات الـسلم حتـى الـدور المـسروق للمبنـى ومـن ظلمـة الممـر، مـن خـلال نافـذة صغـيرة، راقـب الشـارع. وعـاد.

- هناك سيارتان مشبوهتان...

- سـيارة "فـورد" زرقـاء وسـيارة "بيجـو" رماديـة...؟ - سـأل نيكـولاس -. إنهـما تراقبـان منـذ أيـام. لم أصـدق حتـى رأيتهـما أول أمـس مـن جديـد في شـارع دولامـبر، في أعقـاب الاجتـماع الـذي لم يحضره بـدوره مـن نعرفـه - ابتسـم، ناظـرا إليّ.

- إذن لا يهمهـم أن يقبضـوا علينـا - قـرر كاميلـو -. الفليك[48] الفرنسـيون أكفـاء. لـو كانـوا يريـدون القبـض علينـا لمـا اسـتعرضوا أنفسـهم عـلى هـذا النحـو، ولكنّـا جميعـا داخـل...

- هــم بالأحــرى يريــدون مجــرد إخافتنــا، أن يظهــروا لنــا أنهــم يعرفــون...؟ - قلــت.

ربّت نيكولاس على كتفي:

- الثغـرة هنـا، في باريـس. هنـا يحـدّدون مكاننـا، وهنـا يتحقّقـون منـا، ومـن هنـا يبلغـون البـيرو، وهنـاك، فـور أن نصـل، تقبـض علينـا الشرطـة البيروانيـة، العارفـة، مقدمـا، بيـوم ومـكان دخولنـا الـسري. لقـد طالبـتُ منـذ أسـابيع بإعـادة الهيكلـة الشـاملة للمنظمـة ولأسـاليب عملهـا، ولم يعـيروني اهتمامـا. والآن أطلـب منكـم، مـن فضلكـم، أن تنصتـوا إليّ...

وبينما يواصل فمه قول:

- ... مـن فضلكـم، أعـيروني اهتمامـا: فلنُعِـد هيكلـة المنظمـة مـرة وإلى الأبـد، فقـد احترقنـا...

كانت يده، يد نيكولاس، تنتهي من كتابة ما يلي على ورقة:



t.me/qurssan

**- لا يجب أن يعود أحدٌ إلى هنا، لا يجب أن يعود أيٌّ منا إلى النوم حيث نام الليلة الماضية، وغدا، في منتصف النهار، نجتمع في ميدان ريبوبليك، في ذلك المقهى الذي له مخرج على شارعين. حذار من الميكروفونات التي يمكن أن تكون في الجدران!**

ولهذه الميكروفونات الحقيقية أو المتخيلة قال:

- أعتقد أننا يجب أن نتّخذ هنا القرار النهائي. لا يجب أن يسافر رفاق البيرو للتدريب. فهم معروفون تماما. يجب أن نبحث عن كوادر أخرى. يجب على المنظمة البيروانية أن تعيد هيكلة نفسها وتؤجل عملياتها في الوقت الراهن...

ودون أن يكف عن الحديث نهض نيكولاس، وأشعل الورقة التي كنا قد قرأناها جميعا، ودون أن يودّع أحدا، انزلق نحو السُّلّم.


t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 15. نيكولاس يجد الحماية في حاشية أدميرال

ساقاه تحملانه بالكاد. يرسو. بهجةُ طبولٍ ومزامير تطوّقُ رقصة. "يا أولاد بلدي!"، يحيي. "يا ابن بلدنا!"، يجيبه هنود التشاما الذين يرقصون بنشوة الماساتو[27]. وقبل أن يُتاح له الوقت لطلب طعامٍ يقدِّمون له خمر يوكا في قرعة. يعرف أنهم يراقبونه، أنه إن لم يشرب لن يعتبروه صديقا. يغرقه الماساتو في الدوار. لأن حياتي تنتهي: إنها النجمة التي تضيء كياني. أنا دون حبّها لاشيء. عندها يتبيّن بِيضاً خلف الراقصين. أضعتُ نفسي، يفكر. صيادو سحالي؟ قاطعو أخشاب؟ لا ينظر البيضُ حتى إليه، وهم جالسون حول نار، وعيونهم مثبّتة في رونسوكو[38] مشوي ضخم يُطقطِق فوق اللهب. يجبره الجوعُ على الاقتراب. "قليلٌ من الطعام، من فضلكم"، يتوسّل. يقول شخص: "عزِّيف الفرقاطة كارلوس بونس، هل أكل الطاقم على راحته؟" جنود بحرية! لقد ضعتُ!، يفكر". لقد أكل الطاقم حتى الشبع، يا سيدي



t.me/qurssan

الأدميرال"، يجيب من سئل. "عريف الفرقاطة كارلوس پونس: قدّم إذن إعاشةً للملتمس"، يأمر الأدميرال، مشيرا إليه. يفكر، أنا الملتمس! يقدّم له العسكري، الذي لو كان عريفا فإنه لا يُبدي ذلك لا في الثياب ولا في الحركات، في طبقٍ من الألومنيوم المنبعج، قطعا من الرونسوكو الذي يتصاعد منه البخار ويوكا محمَّرة يمضغها هو ببطء. يأمر الأدميرال، جالسا عند قدم شجرة متوسطة، وكأس شمبانيا غير مفهوم في يده اليمنى، بطريقة لا تتزعزع: "عريف الفرقاطة كارلوس پونس: حين يفرغ الجوّال من تعيينه[56] فليتقدم إلى الأدميرالية لأنني أفتقر إلى أخبار من الأرض الصلبة..". رويدا رويدا، مع الطعام، يستعيد عافيته. هل يهذي؟ لا يهذي. مازال يري نحو ثلاثين رجلا، جميعهم بثيابٍ عبثية، وبعضهم بهيئة بحارة، يتمتعون بالأكل حول من يُدعى الأدميرال: وهو ذكر متوسط القوام، أقرب إلى البدانة، ذو وجه ناعم ومستدير مثل عويناته ذات الزجاج الملطخ، موضوعٌ - في مثل تلك الحرارة - في سترة ناصعة البياض يتخللها صفان من الأزرار الذهبية. يرى زجاجات براندي تتبادلها أيدي هنود التشاما. بديهي أن السكان الأصليين يرقصون تكريما لذي الزيّ الرسمي. "هل تناولت كفايتك؟"، يسأله عريف الفرقاطة الذي، دون أدنى شك، لا يتعرَّفُ فيه على هارب. يردّ، "نعم، يا سيدي العريف". "إذن قدّم نفسك للأدميرالية". يتبعه. يتوقف العريف كارلوس پونس على مسافة ثلاثة أمتار من جذع الشجرة الذي يفرغ عنده الأدميرال من عشائه، "كفى، يا سيدي الياوران"، يأمر جنديَ بحرية آخر يرتدي كذلك خرقا مدنية. لقد ضاع بالثلاثة. يتراجع الياوران حاملا قرعة الماساتو الضخمة التي كان يحاول صبها في كأس الشمبانيا. بدافع المجاملة دون شك، يقبّل الأدميرال الكأس مجيبا بذلك على النَّخب الذي يطلبه زعيم التشاما. ثم يقول: "التاريخ يختارُ طرقا غريبة. تحملنا تقلّبات القدر عبر غاباتٍ مجهولة وتُبعدنا في الظاهر عن هدفنا الأعظم: اكتشاف وتمدين العالم الجديد. وافرةٌ وضافيةٌ حكاية المنتجات العجائبية التي سيتوجب علينا نشرها



t.me/qurssan

بـين هـذه الأمـم الهمجيـة. ففـي هـذه الأنحـاء، التـي لم أخترهـا سـوي للعبـور، أتحقـقُ مـن وجـود شيء دفعتنـي تجـاربي الكيميائيـة الدؤوبـة إلى الشـك في وجـوده: السـائل الـذي يدمِـل كلَّ الجـراح. في مجـري حيـاتي العلميـة حدسـتُ وجـود شرابٍ قـادر عـلى لأم جـروح الجسـم والـروح. وهأنـا الآن أصـادف هـذا العصـير الـذي، وإن كان لم يبلـغ بعـد حـدّ لأم جـروح الـروح، فإنـه يدمـل جـروح الجسـد: الـدم القيِّـم[57] الـذي يسـهم بـه هـؤلاء السـكان الأصليـون الطيبـون في مهمتنـا التمدينيـة". ينهـض ويعـرض قنينـة مـن الـدم المتخثر. ويواصـل: "مـا تـراه ليـس دم بـشر بـل راتنـج شـجرة شـبيهة بالمطـاط، تنمـو في هـذه الغابـات المجهولـة لإقليـم الأمـازون البكـر. والفضيلـة الكبرى عصـير هـذه النبتـة المتواضعـة هـي دمـل الجـروح فوريـا. إن مسـار التاريـخ يتغـير بالاكتشـاف الـذي حققتُـه لتـوي لهـذا الـدم النبـاتي المجهـول. مـن الآن فصاعـدا، سـيكون عـلى الأمـم التـي تحـارب أن تجـد دواءً لإعـادة العافيـة إلى أجسـاد جنودهـا البليغـي الجـروح. هنـا يفتتـح فـن الحـرب الإشـكالي فصـلا جديـدا. الجرحـى لـن يعـودوا جرحـى مـرة واحـدة بـل مـرات بعـدد مـا يأمـر بـه قوادهـم الأعـلى. أمـا بالنسـبة لي، وفيـما وراء العمليـات النزيهـة لعلـماء النبـات، فسـوف أواصـل بحثـي؛ للعثـور عـلى البلسـم الـذي يدمـل جـروح أرواح البـشر". يعـاود الجلـوس، كأنـه لم يقـل شـينا ولم يتحـدث أمـام أحـد، ويقـول: "السـيد اليـاوران، فليمثُـل الملتمـس". يبلغـه عريـف الفرقاطـة أنـه هـو الملتمـس. لقـد ضـاع بالثلاثـة. هـل هـم مجانـين أم أنـه هـو المجنـون؟ هـل يهـذي؟ أم أنـه نتـاج هذيانهـم؟ "اقـترب، أيهـا الرجـل الطيـب - يتنـازل الأدمـيرال، ويـردف -: إعـرض مطلبـك الـذي أتى بـك أمامـي والـذي تأمـلُ، منطقيـا، تحقيقـه، بعدالـة". "أنـا قاطـع أخشـابٍ تائـه، يـا سـيدي الأدمـيرال - يعـرض بتواضـع - والمطلـب الوحيـد الـذي أحملـه، إطعامـي، تمـت تلبيتـه بسـخاء". يبتسـم الأدمـيرال بأريحيـة وتهكـم: ومنـذ متـى تمـضي حضرتـك طريـداً ، يـا سـيدي قاطـع الأخشـاب؟" يقـرر الرهـان بـكل شيء مـن أجـل كل شيء: "منـذ أيـام كثـيرة بحيـث لم أعـد أدري، يـا سـيدي الأدمـيرال".


t.me/qurssan

"عريـف الفرقاطـة كارلـوس پونـس! - يقـول الأدمـيرال بصـوت محايـد -، فليقـدّم الضابـط المسـئول عـن المزرعـة مؤونـة للسـيد قاطـع الأخشـاب الطريـد". ودون أن ينظـر إليـه: "لم يـر أيٌّ منـا الملتمـس. غـداً عنـد الفجـر سـنواصل رحلتنـا. اسـتمتع حتـى ذلـك الحـين، أيهـا الرجـل الطيـب". يجلـس عـلى الجـذع ويأمـر بعظمـة: "عريـف الفرقاطـة كارلـوس پونـس: فليمثـل الضابـط النوبتجـي". مـن بـين لابسـي الأسـمال يظهـر رجـل، بديـنٌ هـذه المـرة، أقـرب إلى الترهـل، الـرداء البحـري الوحيـد الـذي يرتديـه هـو قلنسـوة كانـت بيضـاء ذات حـين. يـؤدي التحيـة العسـكرية. فيقـول الأدمـيرال، بالهـدوء الـذي يلازمـه طـول الوقـت: "الضابـط النوبتجـي برنـاردو سـوليس: جهِّـز أن تحـضر الأوركسـترا. أحـضِر الموسـيقيين! إجمـع النايـات، والطبـول، والقيثـارات، والمزامـير، وآلات الهـارب، والأجـراس، والطبـول الصغـيرة، والمزامـير الخشـبية، والمثلثـات، والطبـول الكبـيرة. ؛ باختصـار ،موسـيقييّ المعتاديـن. هـذا يـوم للتسـلي. أودّ بذلـك أن أردّ كـرم ضيافـة هـؤلاء السـكان الأصليـين الودوديـن". يسـتدير الضابـط النوبتجـي برنـاردو سـوليس إلى نائبـه البحـري، فيبـدأ هـذا البحـار غـير المعقـول في أن يحـرّك بكلتـا يديـه أعـلام إشـارةٍ صغـيرة موجَّهـة إلى شـخص لا يمكـن أن يوجـد إلاّ عـلى الأرض، إذ لا يظهـر في النهـر شيء. يمنعـه ضعفُـه مـن متابعـة النصـوص المشـفَّرة التـي يُصدرهـا عريـف الإشـارة. يبـدو أن علـم يـده اليمنـى يناقـض علـم اليـسرى رغـم أن الاثنـين يختلطـان في حـركات تـزداد انطلاقـا. يسـتخدمون شـفرات مـن البديهـي أنهـم وحدهـم مـن يفهمونهـا. وفي هـذه الأثنـاء، يتحـدث الأدمـيرال، وهـو جالـس عـلى الـدوام: "المخاطـرة في البعثـات الكـبرى ليسـت الخطـر، فمـن أجـل ذلـك، سـتكفي وتزيـد القلـوب المُشرعـة، والجسـارات الجامحـة مثـل تلـك التـي تـأتي معـي، للتغلـب عـلى أيـة عقبـة. الخطـر الحقيقـي هـو السـأم الـذي يصيـب مـن يعـبرون أرجـاءً متوحشـة، واتسـاعات غـير مأهولـة، وغابـات بـلا نهايـة مثـل هاتيـك. ولتقليـل ذاك الـضرر توجدُ الموسـيقى. ومنـذ العصـور الكلاسـيكية تُسـتخدم في ترويـض الوحـوش الضاريـة. وأفخـر بتواضـع بأننـي اكتشـفت



t.me/qurssan

تطبيقـا آخـر: الموسـيقى، كمرهـم فائـق للبائسـين، والمعاقـين، وذوي العقـول المتواضعـة. وحـين فهمـت أن واجبـي، في هـذا العمـل التمدينـي، هـو أن أجلـب متاعـا ضئيـلا، فإننـي ، في ليـالي السـهر - المسجَّلة لديـك بـلا شـك في سـجل الإبحـار، يـا عريـف الفرقاطـة كارلـوس پونـس، كاتـب التقويـم الأكـبر لبعثتنـا - رتّبـتُ أن أحبـس فرقـا موسـيقية وأنغامـا كثـيرة في صنـدوق. وقـد فعلـت. وهـا هـوذا: قـرِّب الأوركسـترا، أيهـا الضابـط النوبتجـي برنـاردو سـوليس!" ليسـت ضحكـة فرنثيسـكا بـل قهقهـات الدرافيـل التـي تغمـرُ وتُخـرِج أجسـادها الرماديـة، تلعـب وتـدوّي طـوال الليـل. يظهـر في فرجـة الغابـة الضابـط النوبتجـي المفـترض وبحـار ومعهـما مـا يبـدو أنـه فونوغـراف عتيـق جـدا، مـن تلـك الفونوغرافـات ذات الذراع الـدوار والإبـرة بسـمك مسـمار. وهـو بالفعـل فونوغـراف مـن طـراز فيكتوريـا "أر سي إيـه فيكتـور". يواصـل الأدمـيرال: "وهكـذا، مـن أجـل هـذه الاسـتخدامات، اخترعـتُ هـذا الجهـاز البسـيط. لاحظـوا: ففـور أن أتـرك هـذا الـذراع المعـدني يسـقط، هـذا الـذراع الصغـير المـزود بإبـرة فوق هـذه الدائـرة السـوداء التـي ربمـا دفعتكـم بسـاطتكم إلى الاعتقـاد أنهـا حلقـة مسـتديرة مـن المطـاط الصلـد، وليسـت كذلـك؛ فـور أن أفعـل ذلـك، سـتخرج مـن هـذا القـرص الموسـيقى، سـتنبتُ غابـةٌ مـن الألحـان أعـلى مـن الغابـة التـي تطوقنـا، أجلبهـا أنـا كهديـة ليـس فقـط للشـجعان الذيـن يصحبوننـي في هـذه البعثـة بـل كذلـك لـكل المهمومـين الذيـن يقتربـون منـا في الطريـق". يديـر بنفسـه ذراع فونوغرافـه الـدوّار. ثـم يضـع ذراع الإبـرة فـوق الاسـطوانة، فتـدوي الموسـيقى، كـما هـو متوقـع. لا يسـتطيع تصديـق أذنيـه: ففـي الظلمـة الوليـدة التـي تعـجُّ بلسـع البعـوض، تتناثـر أنغـام البولـيرو الـذي يغنيـه لوتشـو جاتيـكا بصـوت صمغـي:

يا ساعة منتصف الليل لا تسجلي
الساعات لأنني سأجنّ.


t.me/qurssan

ستمضي هي إلى الأبد

حين يبزغ الفجر من جديد.

أيـن هـو؟ بـين الهنـود، يُكمـل حاشـية أدمـيرال بـلا بحـر ولا سـفينة، يسـتمع إلى جاتيـكا في قلـب الغابـة، يهاجمـه لسـعٌ وبعـوض لم يعـد حتـى يسـيل دمـه؟ يتحسّـس كتفيـه، والفانلـة الملطخـة، وذراعـه المنتفـخ مـن القـرْص. نعـم: هـو هنـاك، مـا مـن شـك. وبينـما يضـع الأدمـيرال أغنيـات جديـدة، يسـقطُ في النـوم. توقظـه نسـمةٌ بـاردة. ينظـر إلى البحـارة المنبطحـين هنـا وهنـاك. لا. لم يكـن يحلـم! مـع مؤخـرة المنـزل احـترق المنـزل، ومـع المنـزل مؤخـرة المنـزل. إلى جانبـه يـرى سـلةً مليئـة بالمـؤن. "المؤكـد أن الأدمـيرال أمـر بهـا لي". يتفـادى الأجسـاد النائمـة، ويبلـغ الضفة، يضـع الطـوف في النهـر، ومـع التيـار المـواتي يهبـط بسرعـة بالغـة، يبلـغ الجزيـرة الصغـيرة ويبـدأ في محاذاتهـا. في تجويـف بشـاطئها، تـكاد تحجبـه النباتـات وحشـد مـن شـجيرات السـتيكو[58] العريضـة الأوراق، مـا أجمـل هـذه الشـجيرة!، ومقدمـة الطـوف مغروسـة في الرمـل، يكتشـف واحـداً مـن لنشـات الصيـد تلـك التـي تسـتخدم لصيـد الأنشـوجة عنـد الشـاطيء. يفـرك جفنيـه: مـاذا يفعـل زورق صيـد أنشـوجة في ميـاه ذلـك النهـر الـذي لم يُكتشـف، تـكاد تحجبـه الجزيـرة؟ تبـدي لـه الشـمس عجائبهـا: داخـل السـلة يجـد سـمكا مملحـا، وذرة محمصـة، ويـوكا مقليـة، ودجاجـاً محمـراً، وملعقـة، وشـوكة، وسـكينة، وقطعـة كرتـون كتـب عليهـا أحدهـم بخـط سـكران: "بأمـر الأدميراليـة برجـاء اعتبـار وقبـول جـواز المـرور الكـوني هـذا". ينبـت للنهـار ريـش. بقايـا القبعـة المثلثـة تبتلـع الجليـد. ينسـاب النهـر هادئـا. وقـرب الظهـيرة يلمـح الجزيرتـين اللتـين تتـوزع عليهـا قريـة بولوجنيـزي. في الجزيـرة الكـبرى، كـما يعـرف، تقـع الإدارة المدنيـة، والمتاجـر، وموقـع الحـرس المـدني. وفي الصغـرى يحيـا قـوم قليلـو القيمـة أو عابـرون. انقضـت ثمانيـة عـشر يومـا. يوجـه طوفـه نحـو الجانـب المقابـل لنقطـة المراقبـة، ويمـر بـين الجزيرتـين، تغطيـه أوراق الأشـجار، متنكـرا في



t.me/qurssan

هيئة شجرة قطعت حديثا. تمرّدت القريةُ الصفيح ضد النقاء. قذف الديكُ عظمَ الساعة. هادئا يمر الطوف في النهر الهاديء. ثم انهمر مطر رهيب. يحاول أن يحمي نفسه بالأغصان، لكن القطرات تسقط كالأحجار. ويمحو شفق هائلٌ الأشجارَ فوق المطر. يلمح منزلا. يرسو. مع المطر، تنضح التربة أبخرة من الكثافة بحيث تطوّقة الظلمة قبل موعدها. تنغرس القرصات كالرماح في كل أجزاء جسده المنهك. لابد أنها ستسفك دمه، إن لم تختف عند الحادية عشرة، فتلك ساعتها. يبلغ من التعب حد أن ينام جالسا. توقظه ضجّة العربات الصباحية التي تعبر المجرى المبتلّ لبولفار سان ميشيل.


t.me/qurssan

t.me/qurssan

## 16. سانتياجو يقول لماري كلير أن ثربانتس لم يكن مؤلف الكيخوته

- لحظة! - صرخت ماري كلير مبتهجةً وشرعت تجري بين أشجار غابة فونتانبلو.

عادت وهي تلهث بزهرة.

- في الأحلام رأيت هذه الزهرة ذاتها - واصلَت -. في أحلامي كنت هنا من قبل، معك، مثل الآن بالضبط، لكن الآن أفضل، أفضل بكثير... هل تذكر بيت الشعر الشهير: الشجرة مجرد شعلة مزدهرة؟ والتحذير، الذي أطلقه نيتشه فيما أظن: لا تطرق شجرة أبدا: لأنها ستتذكر بعد ألف عام...؟

إلتهب وجهها:

- والآن إذ نجدُ أنفسنا، ليس أمام جمهورٍ من البشر المساكين الذين لا يتذكرون حتى ما ينظرون إليه، بل أمام جمهورٍ من الأشجار الموقرة التي ستتذكر خلال ألف عام هذه اللحظة، وهذه النظرات،



t.me/qurssan

وهـذه الكلـمات... عـلى شرف هـذه الغابـة مـن السـادة أريـد أن أرقـص، سـأرقص...

ببراعـة راقصـة باليـه، لم أكـن أحسـبها موجـودة، لأن نهديهـا ممتلئـان، وجسـدها لم يكـن منتصبـا، خطَّـت مُجنّحـةً الأشـكالَ الهيروغليفيـة لباليـهٍ عكَّـرت عـليَّ دلالتـه جـمال الرقصـة.

فرغـتُ مـن حضـور ذلـك الأداء الـذي لـن تنسـاه أشـجار الصنوبـر أبـدا. ورجعنـا ونحـن نتحـدث عـن كيتـس، ونيتشـه، ودوستويفسـكي، وملفيـل، وأعمالهم.

- هـل تعـرف مـاذا كان أول كتـاب أقـرأه؟ - قالـت مـاري كلـير، وهـي تغطـي وجههـا بيديهـا -. القـط ذو الحـذاء[59]...!

- وما الغريب في ذلك؟

فقالت، وهي تظهر عينا من بين أصابعها:

- إنه الكتاب الوحيد الذي قرأته خلال أعوام...

- ليـس هـذا شـيئا مخجـلا. فربمـا يبقـى "القـط ذو الحـذاء" عمـرا أطـول مـن "الماديـة والنقـد التجريبـي"!

ومزيحةً يديها، أظهرت وجهها:

- يمكن للقط حتى أن يختفي، لكن ابتسامته ستظل دوما طافيةً.

فأشرت إلى شفتيها:

- هذه هي الابتسامة التي يجب أن تظل طافيةً...

دُرتُ دورة كاملة، نظرت إلى الأشجار وصحتُ:

- لا يهمنـي، يـا سـادة الغابـة، مـا يمكـن أن يختفـي، بـشرط أن تكـون هـذه هـي الابتسـامة التـي تظـل طافيـة...!

هزت الريح أوراق الشجر، وجعلتنا نبرد.



t.me/qurssan

- ماذا كان كتابك الأول، يا سانتياجو؟

- لم أعرف أبدا.

- أنا أتكلم بجد. رغم أنه قد لا يكون الكتاب الأول الذي قرأه المرء حقا، فهناك دائما كتاب أول يتذكره المرء، وهذا هو كتابنا الأول... ماذا كان كتابك؟

- لا أعرف حقا. لم أعرف أبدا...

ربّتْ استغراب وجهها.

- الكتب الأولى التي قرأتها، لم يكن لها غلاف، أعني، لم يكن لها مؤلف.

- ما من كتب دون مؤلف.

- كتبي كانت مجهولة المؤلف.

- مازلت لا أفهم.

- حين كنت طفلا كانت تُنشر في أمريكا اللاتينية مجلة تحمل، في كل عدد، ملخّص رواية. ولما كانت أمي مدمنة على القراءة، فقد طلبَت ترخيصا من أبي لقراءتها. كان أبي يكسب عيشه بصعوبة ويعتبر قراءةَ الحكايات مضيعةً للوقت وإنفاقَ النقود عليها، سرقةً من جهود البقاء على قيد الحياة. وكي لا تسبِّب الحسرة لأبي، مع علمها أنه لن يروقه أن تفرط هي في القراءة، لجأت أمي إلى استراتيجية خداعية بريئة: انتزاعُ الأغلفة التي يظهر فيها عنوان العمل واسم المؤلف. وهكذا كان أبي يرى دائما نفس المجلة ويجهل أن تحت ذلك الغلاف، الذي يبلى باضطراد، تتوالى شخصيات مختلفة ومدهشة لحكايات مختلفة ومدهشة...

كستني ماري كلير بمنديلها الحريري، كأنني أنا من يحس بالبرد، وليست هي.


t.me/qurssan

- وأنـا، الـذي كنـت أعـرف القـراءة فعـلا، كنـتُ في نوبـات غفلـة أو غيـاب أمـي، أغامـرُ سرا في مجلاتهـا. كانـت أمـي تقـرأ خفيـةً عـن أبي وأنـا خفيـةً عـن أمـي. وأحيانـا كانـت مشـاغلها تضطرهـا للخـروج. وكي أتفـادى مصاحبتهـا وأبقـى وحيـدا مـع كتبهـا، كنـت أتظاهـر بالمـرض وفـور أن تبتعـد أنقـضّ عـلى الصنـدرة التـي تحتفـظ فيهـا برواياتهـا. لم أكـن أعـرف أي كتـب أقـرأ، لكننـي كنـت أقرأهـا. لم أكـن أعـرف أي مؤلفـين يبهروننـي، لكنهـم كانـوا يبهروننـي. فيهـا صادفـت حكايـات رائعـة، وغراميـات تعسـة عـلى الـدوام تقريبـا، ومعـارك يسـقط فيهـا أولئـك الأفضـل، ومؤامـرات ينتـصر فيهـا الجبنـاء ويغلـب فيهـا البخـلاء. لكننـي لم أعـرف أبـدا أي كتـب كنـت أقـرأ... ولم أعـاود الالتقـاء إلا بعـد سـنوات بتلـك الشـخصيات التـي أضـاءت أو أرعبـت طفولتـي. ففـي مكتبـة كتـب قديمـة - وكنـت في الخامسـة عـشرة -، اكتشـفت أن الشريـر الـذي كانـت وضاعاتـه تزحـم بالكوابيـس ليـالي بعينهـا مـن طفولتي، هـو البـارون دى نوسـيڠان، لبلزاك؛ وأن الخيميـائي الـذي يضحّـي بثروتـه، وهنـاءة أسرتـه، وحياتـه ذاتهـا، بحثـا عـن المطلـق، عـن الصيغـة التـي تحـوّل كل شيء إلى ذهـب، كان بـدوره شـخصية أخـرى لبلـزاك؛ وأن إتيـوكل وپولينيـس[60] اللذيـن يهـدّدان بعضهـما مـن الأبـراج قبـل معركـة قتـل الإخويـن لبعضهـما، كانـا مـن بنـات مخيلـة إيسـخيلوس...وهكذا، رويـدا رويـدا، في الحيـاة، في مصادفـات دور الكتـب أو المكتبـات، أخـذتُ أعطـي أسـماء لشـخصيات ومؤلفـين أحببتهـم أو كرهتهـم بعاطفـة أمّيـة. أنـا لم أحلـم بالحـوت الأبيـض: فقـد وُجـد في كتـاب لملفيـل. وعرفـت، أيضـا، أن إيمّـا بوفـاري، التـي تمـوت في نهايـة الروايـة لأنهـا أرادت العيـش كأنهـا في روايـة، مـن عمـل مؤلـفٍ لم يغفـر لهـا أبـدا تلـك الجسـارة: فلوبـير.

حجبت الأضواءُ الأخيرة الأشجار. وقالت ماري كلير، منفعلة:

- أو بالأحـرى ثمّـة حشـودٌ مـن أشـخاصٍ لا تُنـسى بـلا أسـماء تظـل تنتظـرك في مـكان مـا...!



t.me/qurssan

- إحدى النشوات الكبرى لحياتي كانت أن أدخل مكتبة ذات أصيل، وأتصفح كتابا لأدرك أن الابن الذي كان يكره أباه حتى الموت، ويريد اغتياله لأنه يحب نفس المرأة، لم يكن أنا بل ديميتري كارامازوف...

وجدنا الطريق، وميّزنا أضواء.

- في أحد تلك الكتب المجهولة المؤلف قرأتُ مغامرات من يُدعى دون كيخوته دى لا مانشا، وهو فارسٌ لحسّت عقلَه القراءةُ المفرطة لكتب الفروسية. ومتخيلا نفسه فارسا جوالا، بصحبة من يدعى سانشو بانثا، الموهوب في الأقوال المأثورة والمخاتلات، رأيتهما يتجولان في العالم لرفع المظالم. لم أكن أعرف حينئذ أن الأشرار في العالم من الكثرة بحيث أن من الجنون التفكير في محاسبتهم. ستكون مآثره عجيبة، إذ أن الناشرين كرّسوا له أربعة أعداد كانتْ بالنسبة لي أربعة أسابيع أخرى أشتعل فيها من نفاد الصبر. قرأتها دون فهم. شهدت وأنا أموت من الضحك فصل طواحين الهواء. وكاتما أنفاسي بالمناديل لأتجنب أن تنتبه أمي من قهقهاتي إلى أنني أقرأ كتبها في الصندرة، رأيت معركة الأغنام، وغيرها الكثير من المغامرات. لم أفهم، بالطبع، أعماق الكتاب لكنني بدأت أشك أن وراء مخاتلات طيران الساحر كلابيلينيو أو مهزلة جزيرة باراتاريا، لم يكن الحق في صف من يزعمون أنهم عاقلين بل في صف المجانين. وبعدها بأعوام صادفت، بالأغلفة الخاصة بها، المجلات التي حملت ملخص "السيد العبقري دون كيخوته دى لا مانشا". وعرفت أن الرجل الذي كتبه في أحد السجون، هو ثربانتس.


t.me/qurssan

t.me/qurssan

## 17. ڤلاديمير إيليتش أوليانوف، الشهير بلينين، يجد نفسه مضطراً للرحيل من شقة البروفيسور جوديت

موجاتٌ متتابعة من طيور الجواكامايو الزرقاء، والصفراء، والحمراء، والخضراء، تخترق نوافذ شقة البروفيسور جوديت، تحطُّ في صفوفٍ، وبأظافر ضخمة تتعلّق بأرفف المكتبة، وتنشر سحابةً فوق المقاعد، وتختفي باب المطبخ حيث تجتهد فرنثيسكا، بمناقير متعددة الألوان. حصلت ميشيل مجانا على شقة البروفيسور جوديت، لم تكن النقودُ هي المشكلة بل تدبيرُ مسكن في باريس دون الاضطرار إلى المرور على الفنادق، وعلى وكالات التأجير وعرض وثائق الهوية. "ماذا يمكن أن يكون أفضل - قالت ميشيل - من شقة البروفيسور جوديت!" المشرفُ على أطروحتها سيقضي، مثلما الحال دوماً، إجازته في اليونان، ومثلما الحال دوما يجب أن يحل المشكلة المُضنية للعناية بأچاكس تيلامونيو،



t.me/qurssan

قطه المعبود. كان مستعدا لترك شقته لرفيقين، بشرطٍ وحيد هو أن يرعيا أجاكس تيلامونيو كما يجب. في الصيف الماضي، حبّاً في الهللينية، عهد بقطه وبمنزله لطالبٍ يوناني. وعندما عاد من إيليون[6]، ذات الأبراج المهجورة، وجد شقته مفروشةً بفتياتٍ عاريات، ومراهقين إغريقيين ناعسين، وأجبانٍ نصف مقضومة، وزجاجاتٍ مليئة بأعقاب السجائر وضباب من الماريجوانا منعه من رؤية بقية منزله. وبعدها بشهور ظل يعثرُ على واقياتٍ ذكَرية بين مجلدات الموسوعة البريطانية. ولمعرفتها أن البروفيسور يبحث هذه المرة عن رفيقين جادين، أبلغته ميشيل: "أنا أعرف زوجين رائعين أمريكيين جنوبيين، شابين شديدي الجدية". "سيترك لك شقته، يانيكولاس، بشرط أن تسكنها مع فتاة". "فتاة؟"، اندهش. "نعم - قالت ميشيل -، أي فتاة، أليست لديك صديقة تثق بها تصاحبك بضعة أيام حتى لا تشك البوّابة؟" تضرّج نيكولاس. لم تكن لديه فتاة. لم يتسع وقته أبدا للنساء. "ليست هذه مشكلة - قال لاينيث -، من أجل هذا وُجِدَت فرنثيسكا! حان الوقت لتتعاون في شيء: الرفيقة فرنثيسكا لن تقضي كل حياتها كفنانة. كل حياتها وهي تخربش نُسَخاً في اللوڤر وتقرأ نشرات، لا! حانت الساعة كي تحسن التصرف! سأعطيها الأمر، يا نيكولاس: ستساعدك فرنثيسكا على خداع البوابة... غدا في الحادية عشرة ستقابلها في لا بول دور، بميدان سان ميشيل". "أنا لا أعرفها - قال نيكولاس -، لا أدري كيف تبدو". "هي تعرفك"، قال له لاينيث. بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف ولم يأت أحد. مُتعباً من إعادة قراءة "الدولة والثورة"، ومتعبا من انتظار تلك الرفيقة - أكيدٌ، ستكون قصيرة ومائلة للسمنة، بعدسات سميكة، وقد نخرتها القراءة -، طلب الحساب. في هذه اللحظة دخلت فرنثيسكا: رشيقة، غضة بلا شك، عشرون عاما، نظرة خضراء، شعر كستنائي، عينان لوزيتان، وابتسامة: "عذرا، يا رفيق، مواعيدي مضبوطة في العادة لكنني اليوم كان عليّ أن أجدد الكارت دى سيجور [بطاقة الإقامة]، وقد أخّروني في مديرية الشرطة - ابتسمت،



t.me/qurssan

نظرَت إلى ساعتها، وابتسمَت من جديد -، لدينا بالضبط الوقت لأخذ المترو في محطة أوديون، وسيوصلنا تقريبا عند منزل البروفيسور جوديت". نظر نيكولاس إلى نظرة فرنثيسكا، وشعر بأن سندانا يسحق صدره، هذان النهدان النافران، هاتان الإليتان، هذان الفخذان المستديران، خرجا من المقهى يسبحان ضد دوامات طيور الجواكامايو الزرقاء، والصفراء، والحمراء، والخضراء التي تدخل وتدخل من باب لا بول دور، وتحطُّ فوق الزبائن، فوق رؤوس الجرسونات ذوي المناقير المتعددة الألوان، وبأظافر خضراء ضخمة تسند زجاجات البرنوه، أمام منصة البار، انتظاراً لشيء ما. هبطا في محطة رين. هذان الفخذان، هذان الكتفان النحيلان، هذه الطريقة في السير وهي تهز إليتيها. وحتى يستطيع أن يتنفس كالسابق، إلى جانب فرنثيسكا، شرع نيكولاس يقرأ الإعلانات التجارية. "أنا دائما ما أرتدي البلوجينز ، يا رفيق - قالت فرنثيسكا -، لكن في هذه الحالة، لما كانت المسألة هي إحداثُ انطباعٍ لدى بروفيسور، ظننت أن من المناسب أن آتي مرتدية هكذا"، اعتذرَت عن الجونلة البنيّة الأنيقة والبلوزة الحريرية بزهور صغيرة حمراء وبنفسجية عند قمة النهدين، والعقد الفضي الرقيق النقوش، كل هذا لترك انطباع لدى الأكاديمي الذي يراقب الآن الزوجين الشابين برضا. لم يكد خبيرُ الجمال ينظر إلى نيكولاس لكنه جابَ بسرور الوجهَ البيضاوي الكلاسيكي والقسمات المتوسطية لفرنثيسكا. وحتى لا يشك خبير الجمال، وضعت فرنثيسكا، الزوجة المُحبّة، أصابعها الدافئة بين الأصابع المتصلبة لنيكولاس. بسخط، اكتشف هو، الذي لم يرتجف أبدا، أن يده تعرق، ماذا ستظن الرفيقة. أشار البروفيسور إلى قط أنجورا[62]، الذي رفض الخروج من وراء الستارة. "أقدم لكما أجاكس تيلامونيو"، قال. "أحد أجمل الشخصيات الإغريقية"، علقت فرنثيسكا. اغتبط البروفيسور عند سماعها. "إنه بطلي الأثير - قال جوديت -. من بين كل المحاربين الذين حاصروا طروادة الغنية بالأبراج، كان أجاكس تيلامونيو أشجعهم. وكان جديرا، أكثر من الجميع، بسيف أخيل، لكن


t.me/qurssan

في مجمـع الأبطـال أزاحتـه بلاغـة عوليـس، الخصـب في الحيـل. وجعلـه الظلـم يفقـد عقلـه. فهـام فاقـد الذاكـرة في سـهول إيليـون. وفي جنونـه حسـب قطيعـا مـن الغنـم جيشـا فقطـع رؤوسـها. ولم يسـتطع العيـش بعـد ذلـك العـار". دون توقـع تلـت فرنثيسـكا: "الزمـن الهائـل، اللامتناهي، يُخـرِج إلى النـور كل مـا هـو مخبـوء وحـين يكـون قـد جعلـه واضحـا يخفيـه مـن جديـد. لا يجـب القـول أن هـذا لـن يحـدث، لأن القسـم الأشـدّ مهابـة يحنـثُ وتلـينُ الـروح الأشـدّ عنـادا. وهكـذا فإننـي، مَـن كنـتُ منـذ لحظـة أنطـق كلـماتٍ قاسـية، قـد انثنيـتُ كالحديـد أمـام مـزاج إرادتي القاطعـة، لِنـتُ إزاء هـذه المـرأة: شـعرت بالأسـف لـتركي أرملـة ويتيـما منبوذيـن تحـت رحمـة أعـدائي..". " لكنـك تعرفـين سـوفوكليس بصـورة تثير الإعجـاب!"، تعجـب البروفيسـور جوديـت، متحمّسـا. فردت فرنثيسـكا، بتواضـع: "ربمـا لأنـه قريـبُ مجنوننـا المقـدس، دون كيخوتـه". اسـتدار البروفيسـور إلى نيكـولاس. " ليسـت لديـك زوجـة رائعـة الجـمال فحسـب بـل إنهـا كذلـك، كـما أتحقـق، مفوّهـة في الآداب السـامية". عـاودت فرنثيسـكا الابتسـام، وأصابعهـا موضوعـة بعشـق بـين أصابـع نيكـولاس. وحتـى لا يصيبـه ذلـك الـدفءُ بالـدوار، حـاول نيكـولاس تذكّـرِ أن لينـين يشـير إلى أن المرسـوم الأول للكوميونـة كان إلغـاء الجيـش الدائم واسـتبداله بالشـعب المسـلح. ضغطـت فرنثيسـكا يـده أكـثر. كان أچاكـس تيلامونيـو قـد خـرج مـن وراء السـتارة وأخـذ يهـزّ عـلى ركبتـي البروفيسـور جوديـت. "هـل لديكـما أطفـال؟" "في الطريـق"، تضرُجـت فرنثيسـكا. "إسـمحي لي إذن بـشرب نخبـه - ابتهـج البروفيسـور جوديـت، وهـو يتجـه إلى البـار ويعـود عـلى التـو بزجاجـة نبيـذ -. مـن سـاموس"، أوضـح، مقدمـا لهـما كأسـين. أصر نيكـولاس عـلى تذكـر أنـه بـدون ثـورة عنيفـة، مـن المسـتحيل اسـتبدال الدولـة البورجوازيـة بالدولـة البروليتاريـة. تشـبّثت يـد الأم المسـتقبلية بيـد الأب المسـتقبلي. لينـين قاطـع: إلغـاء الدولـة البروليتاريـة، بمعنـى، إلغـاء كل دولـة، لا يمكـن إلاّ عـبر طريـق الانقـراض. تـذوّق البروفيسـور جوديـت حـلاوة نبيـذ سـاموس. "في صحـة أچاكـس ومعجبيـه



t.me/qurssan

المتواضعين!"، رفع كأسه. "من العار لرجل أن يتمنى حياة مديدة إن لم يضع كل جهده في الانتصار على تعاساتها. ما أهمية أن ينضم يومٌ إلى آخر جالبا البهجة للمرء، طالما أن ذلك اليوم لا يبعده عن نهايته بل يقربه منها أكثر"، رتّل جوديت، مغتبطا. "لن أعير أذني التفات للفاني الذي يُسلم قياده للآمال الكاذبة. لكن العيش بمجدٍ أو الموت بمجد هو وحده ما يجب أن يفعله الشجاع وبهذا أكون قد قلت كل شيء"، رتّلت فرنثيسكا. ظل البروفيسور المبتهج يسهب بصدد الأبطال الأغريق. وأخيرا قال: "حقيقة، يسعدني أن أترك لكما الشقة. لا يصادف المرء دائما شبانا مثلكما. وإن كان ذلك يفيد في شيءٍ قلقكما النبيل، فأرجوك أن تستخدمي مكتبتي، يا سيدتي". عاودت فرنثيسكا الابتسام. أصدر لهما البروفيسور تعليماته حول النظام الغذائي لأجاكس تيلامونيو. أنهوا الكأس. اصطحبهما حتى الباب. قبل يد فرنثيسكا: "احتراماتي، يا سيدتي". واستدار صوب نيكولاس: "أهنئك من جديد، يا سيدي: فلديك زوجة جديرة بالحسد". أجيالٌ من الجذوع تعلن عن نفسها بالطنين. مرتجفا من البرد يحاول اكتشاف اتجاه الخطر. يبخُّرُ ضجيجُ الخطر تعبه، الآن، كل جسده آذان. هل تبقى خمسة كيلومترات أو ستة لعبور الموقع التالي؟ يحميه الليل البهيم. لن يكتشف أحد الطوف في مثل هذه الظلمات. " لقد تركتِني مبهوتا، يا رفيقة. ما أروع أن تعرفي الأدب الإغريقي!"، قال نيكولاس، متألما من أن تترك فرنثيسكا يده في الشارع. "أنذرتني ميشيل أن قط البروفيسور اسمه أجاكس تيلامونيو. وفضلي الوحيد أنني حفظت، الليلة الماضية، بضع صفحات من سوفوكليس. كنا بحاجة إلى الحصول على الشقة بأية طريقة، أليس كذلك؟" تلك الليلة أعدت فرنثيسكا طعاما ساخنا، أومليت أوز إيرب، لكنه بافيز، شرحت مبتسمة. "ما هذا، يا رفيقة؟" ثم كولان في الكسرولة مع طماطم طازجة، وسلطة أنديف[63] - لم آكل هذا أيضا - أعدّته بحركات طائر. غسل نيكولاس الأطباق، ونظّف المطبخ، وسلّك الحوض. وفي الصالة، وضعت فرنثيسكا في الجرامofon



t.me/qurssan

"كونشرتـو الأوركسـترا" لبيـلا بارتـوك. أطلّـت برأسـها عـلى المطبـخ: "لا تخـف إن رأيتنـي أبـكي: لا أسـتطيع أبـدا الاسـتماع إلى المرثيـة دون أن أذرف الدمـوع... بـأي تسـامٍ نجـح بيـلا بارتـوك في التعبـير عـن الأسى في مواجهـة مـا لا حيلـة إزاءه!" وبعـد وقفـة: نيكـولاس، هـل يعجبـك بارتـوك؟" "بالطبـع"، كـذب. "إذن، لم لا تـأتي معـي إلى الصالـة؟" "لا أريـد أن أضايقـك، يـا رفيقـة"، قـال لهـا، مصمّـما عـلى إعـادة قـراءة أن البروليتاريـا بحاجـة إلى سـلطة الدولـة، إلى منظمـة ذات قـوة متمركـزة، إلى بنيـة عنـف، للقضـاء عـلى مقاومـة المضطهَديـن مثلـما لتوجيـه الكتلـة الأكـبر مـن السـكان - الفلاحـين، والبورجوازيـة الصغـيرة، وأشـباه البروليتاريـا- في إقامـة الاقتصـاد الاشـتراكي. "الكونشرتـو في خمـس حـركات: وروعتـه تُنهـك أيَّ تحليـل". تابعَـت الأندانتـى نـون تـروپو. "إن لـه لجـمالا سـاحقا - أشـارت فرنثيسـكا -، شـفافيةٌ تخترقهـا الحسرات التـي لا تـكاد تبـين للـ أليجريتّو سـكيرزاندي. والحركـة الثالثـة، بحـق الـرب، الحركـة الثالثـة! مـن يسـتطيع الاسـتماع إليهـا دون أن يـذرف الدمـوع؟" عـضَّ فـمُ الأرقـام المنتفـخُ ذيـلَ هيجـل. في الصالـة، أمـام مكتبـة تكتـظُّ بصفـوف مـن الكتـب تلمـس السـقف، فارضـةً نفسـها عـلى ضخامـة منضـدة كتابـة داكنـة و عـلى مقعـدٍ أشـدّ دكنـة، مـن الجلـد، أمـام منضـدة الكتابـة تظهـر أريكـةٌ ضخمـة مـن القطيفـة مكسـوةٌ بتقتـير السـحالي التـي تحـاول الصعـود إلى الطـوف. وفي المقعـد، محـاولا نسـيان فرنثيسـكا، المسـتلقية عـلى الأريكـة، تسـتمع إلى الكونشـيرتو، وعيناهـا مغمضتـان، أعـاد نيكـولاس قـراءة لينـين للمـرة الثالثـة: "لسـنا طوباويـين، إننـا لا "نحلـم" بـأن نقـضي في التـو عـلى كل إدارة، عـلى كل إخضـاع: فتلـك الأحـلام الفوضويـة، القائمـة عـلى أسـاس عـدم فهـم المهـام الواقعـة عـلى عاتـق النظريـة البروليتاريـة، غريبـة عـلى الماركسـية مـن الناحيـة الجوهريـة، ولا تخـدم في الحقيقـة إلاّ في تأجيـل الثـورة الاشـتراكية حتـى اليـوم الـذي يتغـير فيـه النـاس". نطـق خفّـاشُ الأوقيانـوس بالأصفـر الـذي كان السـندباد يتـوق إلى الاسـتماع إليـه مختبئـا تحـت الـ 14. بـدأت المرثيـة. إلاّ أن قـراءة ڤـلاديمير إيليتـش أوليانـوڤ لم تمنـع انتفـاخ سروالـه.



t.me/qurssan

همست فرنثيسكا: "هل كان بارتوك يستشرف أنه لم يبق أمامه سوى القليل من الوقت...؟ على أية حال، هنا يودّع الحياة... إنه يمزق نياط القلب! هل يعجبك؟" "نعم"، سلّم دون أن ينظر إليها، محاولا التركيز في "نقد برنامج إرفورت" حتى لا يشلّه الانتصاب بصورة فاضحة. الشمالُ فقَد جِلده وعضّ اللامتناهي فمَ الأتان. أيقظته دندنة فرنثيسكا في المطبخ، والفوح اللذيذ للبيض بشحم الخنزير، ونكهة قهوة الموكا الساخنة، الشديدة السخونة. "نيكولاس". "شكرا، يا رفيقة". "فرنثيسكا - صححت هي -: كفانا رفيقة". في العاشرة خرجا للتسوق. بذريعة أخذ رسائلِ كانا قد كتباها بنفسهما، اقتربا من البوابة التي ستُبلغ البروفيسور، بالطبع. طوّقت فرنثيسكا خصر نيكولاس، وابتسمت للبوابة. أعلن الماءُ حشدا جديدا من الجذوع، وجابت سحليةٌ ساخنة خصره. وحين أصبحا في الشارع، وراضيا عن احتواء دفء فرنثيسكا في سياقه التاريخي المناسب، وحتى يقول شيئا سأل "هل تعرفين نداء تروتسكي لبوابات بتروجراد؟ إنه واحدٌ من أعظم صفحات الثورة العالمية. في سان بطرسبورج تلك الحقبة، مثلما في عواصم كثيرة، كانت البواباتُ مرشداتِ كلاسيكيات للشرطة. سألهن تروتسكي، بكلمات ذات بلاغة لاتقاوم، ألاّ يَشين بالرجال الذين كانوا في تلك الأيام يحدّدون مصير روسيا". لكن بلاغة تروتسكي لم تستطع إبعاد ذكرى دفء فرنثيسكا الحارق. صمت، حانقا على نفسه، إذ، لأي لعنة كان عليه أن يتذكر بلاغة تروتسكي ليبدو في عين فرنثيسكا مؤيدا لتروتسكي؟ "رغم أن من الأفضل عدم الحديث عن تروتسكي - صحّح نفسه -. هل قرأت "الثورة المجهولة" لفولين؟" "نعم"، قالت فرنثيسكا. "تعرفين إذن تماما أن تروتسكي سحق تمرد بحارة كرونشتات وذبح بلا رحمة التمردات الفلاحية لأوكرانيا". "ماذا تظن فولين، يا نيكولاس؟..". "فوضوي". "ورغم ذلك، يطرح مشكلات هامة. أنا أوافقه حين يقول أن أي حزب يضع نفسه فوق الجماهير من أجل "حكمها" أو "توجيهها"، لن يحقق أبدا انعتاقها. فالانعتاق الحقيقي لا يتحقق إلاّ



t.me/qurssan

إذا حكم العمال أنفستفسهم. إاطت حكومة محل الشعب، فإن الحياة تفارق الثورة: يتوقفنقفكل ؛ يتراجع، يصاب بالشلل". "أين تضعين إذن دور الطليعة البروبينروتاريةا أل نيكولاس. المشكلة المحورية للثورات هي أن الثورات المنتعتنعمرة تتمل دوما إلى دكتاتوريات. هل هي حتميةٌ تاريخية في لحظة بعص يعنها أيعث لينين، لا أقل من لينين، البرقية الشهيرة: "اسجنوا كل كلافوضين ووجهوا إليه الاتهام".؟" "لو لم يكن لينين قد تصرف هكلكذ يا تيسكا، لفقدت الثورة الروسية السلطة". "أدعوك على كيرش" ءنن "، قالت ما هذا؟" "شيء لطيف، يا نيكولاس". في كل مشروع تاريخيبحي نُطرينكل حتمي، مشكلة السلطة التي طوّحته إلى جانب، ت،، دخل لنوف اتساعا هائلا من المياه الهائجة. عنف النهر يوشك [illegible] أن أزيفذ الواح الطوف. هل سيغرق على هذا القرب من موقع الما المراقبة ابعت أيامٌ من الطعام اللذيذ، والنوم القلق على الأريكلكة والانماع إلى السيمفونيات، وتحمّل رؤية فرنثيسكا، مغطاة بأحرا بأرديةٍ شصرة، وهي تروح وتجيء بين الحمام وغرفة النوم. عبّر إنجإنجلز بوبرح تام عن الفكرة المحورية للماركسية حول الدور التاريخيبي للدولة أنا لا أركز - قال لنفسه -، أنا أفكر في فرنثيسكا لا في الفكرة نبرة المحوراللماركسية حول الدور التاريخي للدولة ودلالتها". شعر بأن ا ما المقعدا أن يسنده، يغوص به. لا ليس المقعد، كان هو من يفقد أسا أساسه. لولة هي نتاج التناقضات الطبقية: تنشأ في لحظةٍ، وبقدر مما، لا يمكن موضوعيا، المصالحة بين التناقضات الطبقية. وبالعكس: ع:ن: يبرهنوجود الدولة أن التناقضات الطبقية غير قابلة للمصالحة مع ■ج الانتفاالذي بدأ يؤلمه في السروال. هل يعجبك القدّاس الجنائزي؟ – ؟ - سأ لفرنثيسكا -. هل تعرف حكايته؟ لم لا نقترب أكثر من الجعلجراموف؟ وجلست على السجادة. التناقضات الطبقية التي لا يمكمكن إخفلبا للقدّاس الجنائزي والتي تنشأ منها الدولة لم تمنع عضوعبوه من بلة التمدد. رفض النهوض من مكانه. "حوالي أواخر عام 1■ 1791 -ئت فرنثيسكا -، نفّذ شخصٌ هو كونت



t.me/qurssan

فالسيج عملية خداع: أن يؤخذَ على أنه مؤلف قداسٍ جنائزي. فزار موتسارت متخفيا. ومرتديا السواد كلفه بالعمل بكلمات موجزة. واعتقد موتسارت أن الموت كان يأمره بكتابة القداس الجنائزي لجنازته هو". شعر نيكولاس بوحدة حجيجه بين البنسيونات، بين البيوت البائسة للرفاق، داخلا وخارجا من السجون، دائما منفيا عن لحمه. وجدت فرنثيسكا الصفحة التي كانت تبحث عنها في الكتاب. "في رسالة من أكتوبر لذلك العام - قرأت -، يقول موتسارت: "رأسي مليئةٌ بالاضطراب. لا أستطيع إلاّ بجهدٍ كبيرٍ الإبقاء على أفكاري واضحة. لا تغيب عن عينيّ صورة ذلك الغريب. أراه أمامي، يسألني، يتعجلني، يطالبني بالعمل. أواصل التأليف لأن الإبداع يرهقني أقل من الاسترخاء. لست خائفا: لقد دقت ساعتي، سأموت! أبلغُ نهايتي دون أن أكون قد حقّقت الاعتراف بموهبتي. ورغم ذلك، ما أجمل ما كانت الحياة! بدأ عملي بآمالٍ كثيرة... لكن لا يمكن تعديل القدر...!" تعلن آلاتُ النفخ القدرَ المحتوم بصورة تمزق القلوب"، غمغمت فرنثيسكا مغمضة عينيها، بينما يصرُّ لينين على أن الثورات حتى اليوم لم تفعل سوى إيصال آلة الدولة إلى حد الكمال، والحال إذن: من الضروري تحطيمها، هدمها. ينتزع عنفُ النهر مِزَقا من الضفة بأشجارٍ حية. تمرّ إلى جواره أغصانٌ مُهدِّدة. "مرت الحياة مثل جزر الأزور"، تلى ماياكوفسكي في ظل أشجار الأبإشاراما. "لقد دقت ساعتي - قال نيكولاس -، سأموت". "قف!"، أمر ساندينو، جنرال الرجال الأحرار وناظرا على البعد إلى البقعة التي سرعان ما ستتحول إلى جنود المارينز اليانكي يقتحمون القرى الصغيرة، صرخ: "سننتصر يوما، وإذا لم أر أنا النصر فسوف يأتي النمل ليحكيه لي تحت التراب!" لم تعد عيناه تستطيعان تجنبها: ها هو الجذع المبيضّ والمجعّد لشجرة التنجارانا! يعرف أنها حين يُطرق لحاؤها، على الفور، من بين شقوقها، مستعدا للهجوم، ينبثق آلاف النمل "قف!"، يأمر النقيب باسوركو.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 18. الرفيق راميرو يقول:
# "لا يجب أن ترعى الثورةُ مناضليها وحدها"

فتحـتُ البـاب فوجـدتُ عناقـا. للحظـة لم أدرِ مـن هـو، لكـن برغـم الشـارب الكثيـف وتسريحـة الشـعر التـي غـيّرت سـحنته ومظهـر السـائح الأنيـق، بحقيبــة يــد كي إل إم[الخطــوط الجويــة الهولنديــة]، وماكينــة التصويـر الـپولارويـد، كشـفت رامـيرو ضحكتُـه المنعشـة.

- أخي...! افتقدتك في هافانا.

عاود راميرو احتضاني.

- كيف عثرت على عنواني؟ كيف عرفت؟

- هل أستطيع أن أبقى هنا الليلة؟

- بالطبع، يا أخي.



t.me/qurssan

ضحك راميرو ضحكته تلك التي تثير الرغبة العارمة في الضحك.

- هل تعرف، يا راميرو، أن الرفيق فرنثيسكو على وشك الوصول من بوليفيا، بين لحظة وأخرى؟

ضحك راميرو بقوة أكبر:

- ليس قادما من بوليفيا، بل من هافانا.

- متى؟ - اندهشت.

- وصل لتوه إلى باريس.

- هل تعتقد أن بإمكاني الاتصال به؟ أود أن أتحدث معه...

- عن ماذا...؟

- لدي مشكلةٌ شخصية خطيرة، شكاً أود أن أطرحه عليه...

- ولماذا تريد الحديث مع فرنثيسكو؟ لماذا لا تطرح شئونك عليّ؟ ألست أنا أيضا عضوا في القيادة؟

- أنت أخي، يا راميرو؛ أفضِّل أن أتحدث عن ذلك مع كادر رفيع المستوى، محايد...

- حسنا، إذن. الليلة بالتحديد سأرى فرنثيسكو. أعضاء "العمل الثوري" يريدون الحديث معه. سيبعثون باثنين من الكوادر العليا. وستأتي أنت معي. انتهت فترة عملك السرّي، فبعد هذا ستأتي معي إلى الجبل...

ارتجفت. أخذ راميرو يتحرك في الشقة كأنه يسكن فيها.

- هل أنت جاهزٌ؟

- بالطبع! - قلت، لكنني شعرتُ في الوقت نفسه، أنني رغما عني، أتمردُ ضد فكرة الرحيل.



t.me/qurssan

هـل كنتُ مسـتعدا للمـوت، لاسـتبدال امتـلاء الحـاضر، الـذي يلتمـع في الـورود التـي وضعتهـا مـاري كلـير في الإصيـص، بمطـاردات مسـتقبلي المقلـق؟ وراميرو، هـل حـدس شـيئا؟

- سـانتياجو، يـا أخـي، يبـدو لي أنـك بحاجـة حقـا للحديـث مـع الرفيـق فرنثيسكو.

وجذب شعري بمحبة:

- أنـا فرنثيسـكو... فلنتحـدث... مـاذا يجـري لـك؟ رأيـتُ في عينيـه الإعـزاز، والثقـة. فلـم أجـرؤ:

- أفضل أن أقول لك ذلك بعد الاجتماع.

- هل الأمر بهذه الخطورة؟

- ستحكم بنفسـك. لكـن احكـم قبلهـا، لـو سـمحت، عـلى جـودة هـذا النبيذ.

بينـما أفتـح سـدادة زجاجـة نبيـذ "سـانت اميليـون"، انفتـح البـاب ودخلـت مـاري كلـير.

- ماري كلير، أقدِّمُ لك ...

أخرجني راميرو من ورطتي:

- أسـمح لنفـسي بـأن أقـدم لـك هـذه الزهـرة - قـال معطيـا إياهـا إحـدى ورود الإنـاء.

هـل تأملـت مـاري كلـير في قـرص الحـشرات الـذي يعكِّـر وجـه، ومعصمـي، ويـديّ راميرو الملوَّحتـين؟ إذ أنهـا شـكرت لـه الزهـرة بابتسـامة عصبيـة، ووضعـت كيـس المـؤن وقالـت بـلا اقتنـاع:

- أعذرني لخروجي من جديد، فقد نسيت شراء شيء...

لم تستطع ابتسامتُها إخفاءَ قلقها:



t.me/qurssan

- على كل حال، أنتما في داركما.

وبينـما نسـير راميرو وأنـا باتجـاه لا پاليـت، حيـث سـيكون بانتظارنـا رفـاق "العمـل الثـوري"، قـال لي رامـيرو، بغتـة، ودون أي سـبب:

- ذات مـرة، منـذ سنوات، في المكسـيك، كنـت عـلى وشـك الانتحـار مـن أجل امـرأة...

- أنت؟

- نعـم: أنـا. ولـو فعلـت لكنـت قـد ارتكبـت خطـأً مزدوجـا. لأن الحـب سـيكون قـد فقـد مناضـلا، وسـتكون الثـورة قـد كسـبت منتحـرا بـلا جـدوى.

دخلنـا لا پاليـت. عـلى واحـدة مـن المناضـد الملاصقـة للحائـط، بـين طـلاب الفنـون الجميلـة، والأزواج الصاخبـين، والزبائـن الذيـن يمـلأون الداخـل بالدخـان، تبيّنـا إيبـان وإيبـارّا. كلـما اقتربنـا، كان اضطرابهـما يتزايـد. وحـين صرنـا أمـام منضدتهـما، لم يعـودا يعرفـان مـاذا يصنعـان...

- هـدوءا، يـا رفـاق - قـال لهـما راميرو -. إذا كنتـما تنتظران فرنثيسـكو، فـإن بوسـعكما الكـف عـن الانتظـار... أنا فرنثيسـكو.

صافحهـما. نظـر إليّ إيبـارّا وإيبـان، حائريـن أو متشـككين. لم يتخيـلا بالطبـع أن يكـون رامـيرو هـو فرنثيسـكو ولا أن أكـون أنـا موضـع ثقتـه.

- دعونـا لانضيّـع وقتـا - هتـف فرنثيسـكو -. لندخل في صلـب الموضوع. لقـد طلبتـم أن نفتـح لكـم البـاب لتدريـب كوادركـم عسـكريا في كوبـا. من المفـترض أن القـرار بيـدي. ومـن المفـترض أنكـم لهـذا السـبب طلبتـم هـذا الاجتـماع. الجـواب هـو نعـم. أنـا موافـق عـلى تسـهيل ذلـك الإعـداد لكـم. بـشرط واحـد، أن يلتحـق كوادركـم، حـين يتـم إعدادهـم، مـع كوادرنـا، عـلى الفـور، في الفعـل... وأن تكونـا أنتـما عـلى رأس المجموعـة الأولى، سـواء في كوبـا أو في الجبـل...



t.me/qurssan

هرش إيبان لحيته، وربّت شاربه، وقال بجفاف:

- أعتقد أن ثمة عقبة وحيدة، قابلة للتجاوز بالطبع. فقيادتنا السياسية تُجري تقييمات دائمة بصدد الظروف الذاتية والموضوعية لبلدنا. ومن اختصاصها هي أن تقرر متى وأين. يمكن لنا أن نتدرب، لكننا لا يمكن أن ندخل في الفعل إلاّ حين تقرر ذلك قيادتنا السياسية...

شعر فرنثيسكو بعدم الارتياح، لكنه سرعان ما استعاد ابتسامته:

- حسنا: بإمكانكم التقييم واتخاذ القرار بشأن شروط النضال في البيرو. وهذا ما تفعلونه، أليس كذلك...؟ لكن إذا لم تكن المعركة القادمة في البيرو...؟

- كيف لن تكون في البيرو؟ - تساءل إيبارّا.

- أنا أطرح مجرد افتراض - قال فرنثيسكو -. مجرد سؤال: ماذا لو لم تكن الجبهة القادمة في البيرو، هل ستذهبان...؟

- سيكون علينا أن نستشير قيادتنا - قال إيبان.

نهض فرنثيسكو مبتسما، لكن صوته لم يعد يبتسم:

- إذن فالإجابة هي لا.

نهضت بدوري. فأوقفني بإيماءة:

- إبق أنت برهة.

ومطأطنا حتى يكلّمني في أذني:

- لا يجب أن ترعى الثورةُ مناضليها وحدها: فالحبُ أيضا...

واختفى بين المناضد ودخان السجائر. برطم إيبان ببعض الأعذار، وقال إيبارّا لا أدري ماذا عن الشروط الموضوعية والذاتية، ولم أكن أنصت سوى لجسد ماري كلير، لوجه ماري كلير، لمؤخرة ماري كلير،



t.me/qurssan

لهمسات ماري كلير. لم أنتبه حتى إلى أنهما قد انصرفا. نهضتُ. وعند الباب أظهر لي رجلان شارات الشرطة.

- بوليس.

- وضعي سليم، انظرا إلى أوراقي...

- بالتأكيد. اصحبنا، على كل حال.

جعلاني أركب سيارة بيجو داكنة انطلقت بسرعة وأنزلتني أمام اللون الرمادي لإحدى مديريات شرطة باريس. اقتاداني إلى مكتب داخلي. سألني شرطي آخر في ثياب مدنية ببرود:

- حضرتك خوسيه كارلوس فونسيكا؟

- نعم، يا سيدي.

- أوراقك؟

أخرجت جواز السفر الذي يظهر فيه ذلك الإسم. تفحصه الشرطي، وتفحصني:

- منذ متى وحضرتك في فرنسا؟

- منذ شهرين.

- وماذا تفعل؟

- أدرس الأنثروبولوجيا في مدرسة الدراسات العليا.

أريته بطاقة الطالب باسم فونسيكا التي حصلت لي عليها ميشيل.

- هل تمارس حضرتك السياسة في فرنسا؟

- جئت للدراسة، لا لممارسة السياسة.

- ومتى تفكر في مغادرة فرنسا؟

- حين ينتهي منهجي الدراسي، يا سيدي.



t.me/qurssan

عندئـذ، بهـدوء، أخـرج مـن أحـد أدراج مكتبـه مفكّـرةً عرفتُهـا عـلى الفـور. كانـت أجنـدتي! أخفيـتُ رجفـةً. كنـت أحتفـظ بتلـك الأجنـدة في الشـقة. في أيـة لحظـة، وبانتهـاز أيـة مـرة خرجنـا فيهـا، حصلـت عليهـا الشرطـة أو أحـدٌ آخـر؟ خِفـت عـلى رامـيرو، الـذي ربمـا كان في الشـقة... هـل تكـون الشرطـة في انتظـاره؟ هـل يكـون سـجينا بالفعـل؟ خفـت عـلى المنظمـة بأسرهـا. تصفـح المفتـش أجنـدتي، وتوقـف عنـد صفحـة:

- هل تعرف حضرتك ميشيل موريس؟

- نعم.

لم تكـن يـداي تستطيعان الارتجـاف، ولا السـيطرة عـلى الرجفـة. لأنني، منتهـكا قواعـد الأمـان الأوليـة، بـدلا مـن أن أخفـي في مـكان مـا أو مـع شـخص لا يطالـه الشـك المائـة ألـف دولار التـي أعطانيهـا لاينيـث لحفظهـا، وكي يتوفـر لي وقـتٌ لمـاري كلـير، كي أعيـش معهـا، كنـت قـد اكتفيـت بإخفائهـا في لفافـة داخـل المدخنـة غـير المسـتخدمة.

- متى كانت آخر مرة رأيتها؟

- منذ قليل، في كورس بمدرسة الدراسات العليا.

الآن لم أعـد أخـاف فحسـب عـلى المنظمـة، وعـلى رامـيرو، وعـلى الرفـاق المتناثريـن في العمـل السرّي بباريـس. بـل خفـت عـلى نفـسي. مـاذا لـو كانـت الشرطـة قـد عـثرت عـلى اللفافـة في المدخنـة؟ مـاذا لـو كانـت قـد اسـتولت عـلى النقـود؟ مـن سـيصدق أنهـم هـم ولسـت أنـا، مـن اسـتولوا عـلى المائـة ألـف دولار...؟ أمرضنـي غثيـان. لأن المناضـل، المناضـل الحقيقـي، لا يخـشى أن يشـكّوا فيـه. وإذا كان لـدي ذلـك الخـوف، فذلـك لأننـي في أعماقـي قـد كففـتُ عـن كـوني مناضـلا.

أعاد إليّ المفتش جواز السفر والأجندة.

- هذا كل شيء. يمكن لحضرتك أن تنصرف.



t.me/qurssan

في الشارع أخذت تاكسيا. لم أستطع التفكير في شيء خلال المشوار. صعدت السلالم قفزا. فتحت الباب. أربكني هدوء ماري كلير على السجادة، وهي مضطجعة بتراخٍ على وسائد، تقرأ لا أدري أي كتاب.

- وراميرو؟ - سألتُ بالاسبانية.

- ماذا...؟ ألم يذهب معك؟

انقضضتُ على حقيبة يد راميرو لخطوط كي إل إم، وفتحتها. لم تكن تحتوي إلاّ على الصحف. وملحوظة: "**سانتياجو: لن أنام هنا. أنا في انتظارك هناك**".

كان قد كتبها قبل الاجتماع. لا يُدعَى فرنثيسكو عبثا!. كانت بهجتي بلا حدود. دون أن أقول كلمة لماري كلير، ودون أن أراها. أخرجتُ اللفافة من المدخنة، وخرجت، نزلت السلالم، دخلت إلى المترو، وركبت عربةً إلى أي مكان - هل يتبعونني؟ -، وبعدها بمحطتين انتظرت أن تبدأ الأبواب في الانغلاق، وقفزت إلى الرصيف. لم يكن يتبعني أحد! خرجت في پلاس ديتالي [ميدان إيطاليا]. أخذت تاكسيا. هبطت قبل مربعين سكنيين من مخبأ نيكولاس. تحققت من أن أي شخص مشبوه لا يجول في الجوار ثم دخلت أخيرا إلى المبنى.

- نيكولاس - قلت له -، أوقفتني الشرطة عند الخروج من اجتماع مع أعضاء "العمل الثوري".

- حكي لي ذلك فرنثيسكو، لا تقلق، لن يحدث شيء...

- هناك شيء يقلقني، لا أنت ولا فرنثيسكو تعرفانه... بذنبي، كانت الشرطة على وشك العثور على النقود في منزلي.

- الذنب ليس ذنبك - قال نيكولاس -؛ بل ذنبي. ما كان يجب أن آمر بأن تحفظ هذه النقود، لكن لم يكن بإمكاني إبقاءها معي



t.me/qurssan

أيضـا: فمنـدوب الاتصـال الـذي كان يجـب أن يتـولى أمـر هـذه النقـود، قـد أخفـق.

ورافضا اللفافة التي مدتها له يداي:

- لا. عليك أن تحفظها ثلاثة أيام أخرى. ابحث أنت عن مكان.

خرجـت. كانـت كتلـة النقـود تحرقنـي تحـت المعطـف. فيمـن أثـق؟ مـررت أمـام منصـةٍ لبيـع المجـلات. أوقفنـي وجـه مألـوف عـلى غـلاف "بـاري ماتـش". تراجعـت بضـع خطـوات. خيلبرتـو رولـدان! حقـا!؛ الوجـه الزيتـوني المهـذار، والعينـان المتوقدتـان، والتعاطـف الطافـح لخيلبرتـو رولـدان، زميـل عمـلي السـابق في صحيفـة "إل هيرالـدو" في ليـما. وأحـد أشـهر وأغنـى النحاتـين في أوروبـا! مـن كان سيصدق! كان رولـدان الغـلاف قـد إزداد بدانـة، لكنـه نفـس المواطـن الشـمالي الحريـص والآسر. تذكّرتُـه، ضامـرا وأنيقـا، في ثيـاب مسـتعارة، وهـو يـردّ بابتسـامة صغـيرة عـلى اتهامـات رئيـس شـئون الأفـراد.

- اسمع، يا رولدان: أنت تأتي متأخرا كل الأيام.

- نعم، يا ريّس، لكنني كل الأيام أنصرف مبكرا...

فضّـل رئيـس شـئون الأفـراد الانـصراف حتـى لا يشـارك في قهقهـات السـكرتيرات. آه، خيلبرتـو رولـدان، كان يقـوم بـكل شيء ويفهـم في كل شيء: بطـل قومـي في التانجـو، لاعـب كـرة قـدم، لاعـب شـطرنج، مرشـد سـياحي متخصّـص في الأمريكيـات الشـماليات، متأنّـقُ مواخـير؟، كاتـب تحقيقـات ريـاضي، ناقـد أدبي، معلـق سـياسي، رسـام لـ"ملحق الأحـد"، رسـام كاريكاتـور للصفحـة الدوليـة، خبـير تنضيـد...! و، بـين عشـية وضحاهـا، وبصـورة غـير متوقعـة، اتضـح أنـه نحـات. هـو نفسـه كان يجهـل أنـه كذلـك. تلـك الليلـة، كان خيلبرتـو رولـدان معـي في صالـة التحريـر. دخـل "پوتشـيتو" أورتيجـا، رئيـس التحريـر، إلى الصالـة متقافـزا، مفـرط العصبيـة، قائـلا:



t.me/qurssan

- ذون هارولـدو شـخصيا تحـدث معـي لتـوّه تليفونيـا...! يطلـب أن يذهـب محـرّرٌ مـع مصور فوتوغـرافي، عـلى الفـور، إلى طقـس السـهر عـلى جثـمان رئيـس الـوزراء دي لا كينتـيرا الـذي تـوفي للتـو بأزمـة قلبيـة...!

- اللعنة! - قلت -، لقد انصرف كل المصورين الفوتوغرافيين...!

- أنــت غريــب، يــا ســانتياجو: أمامــك أفضــل مصــور فوتوغــرافي في شــمال البــيرو...!

وهكـذا، وقـد لمس كامـيرا فوتوغرافيـا لأول مـرةٍ في حياتـه، اصطحبنـي خيلبرتـو رولـدان إلى الـدار الكولونياليـة التـي تحتـل مربعـا سـكنيا كامـلا عامـرا بالأشـجار في طريـق سـانتا كـروث. تجشّـمنا عنـاء المـرور بـين حشـد الموظفـين، والديبلوماسـيين، والفضوليـين الذيـن يزحمـون نهـر الطريـق ويعوقـون الدخـول. وبعـد حاجـزٍ معـدني ضخـم مـن بوابتـين مطليتـين بالأخـضر، تعـرف علينـا أحـد الحـراس المسـلحين، مـن كوخـه الخشـبي، وسـمح لنـا بالدخـول. وداخـل البنايـة الباذخـة لم نجـد سـوى أقـرب أقـارب الأرسـتوقراطي المتـوفي، دون خـوان بِدرو دي كينتـيرا، الـذي كان حتـى سـاعاتٍ مضـت وزيـر العلاقـات الخارجيـة ورئيـس وزراء الحكومـة الدسـتورية. وفـوق ذلـك كلـه، إبـن العـم المبـاشر لـدون هارولـدو، مديرنـا العـام. ولأننـا صحفيـان بجريـدة دون هارولـدو سـمحوا لنـا بالوصـول إلى القاعـة، حيـث كان أفـرادُ الأسرة الحـزانى يُلبِسـون القانـوني البـارز ثيابـه.

- هل وضعتم الماكياج للدكتور؟ - سأل مصوّري، دون سبب واضح.

- لم نظـن ذلـك ضروريـا - أجابـت سـيدة عجـوز متألمـة -: إنـه يبـدو وكأنـه نائـمٌ فحسـب...

- في الوقت الراهن... - حدّد رولدان -. لكن خلال بضع ساعات...

- هـذا صحيـح، يـا إلهـي! - غمغمـت السـيدة-، هـل يمكـن أن تنصحنـا، مـن فضلك؟



t.me/qurssan

مـن الواضـح أن المـوت المفاجـيء لرئيـس الـوزراء قـد أوقـع الاضطـراب في أقاربـه.

- قبـل وضـع الماكيـاج لـه - قـال رولـدان - يجـب أن نأخـذ قنـاع وجهـه... فقالـب هـذا القنـاع لا غنـى عنـه مـن أجـل النُصُـب التـذكاري المسـتقبلي...

- حقـا - قـال عجـوز ذو شـارب وقـور -، يجـب أن نتلفـن حتـى يـأتي خبـيرٌ مـن وكالـة الجنـازات...

- في حـالات كهـذه - واصـل رولـدان -، لا يكفـي الخبـير: يجـب اللجـوء إلى فنـان...

- وأين نجده في هذه الساعة...؟

- تشاء الصدفة أن أكون نحاتا - أردف رولدان، بتواضع.

- لكن هل صنعت أقنعة من قبل...؟

- صُنعها جزءٌ من مهنة كل نحات.

- في هذه الحالة، سأرجوك أن تُخلّد ملامح فقيدنا البارز الذي لا ينسى.

- أعتذر لتذكيركم بأن مكافأة مثل هذا العمل...

- ستكون ما تأمر به.

كنـت أجهـل أن خيلبرتـو نحـات أيضـا، لكنـه أخـذ يـوزع الأوامـر، طلـب جبسـاً ووعـاءً بـه مـاء فاتـر، وبأصابـع ماهـرة تحسـس قسـمات الضحيـة. أحـضر رؤسـاء الخـدم المـواد. أعـد الخلطـة بيـدي خبـير، وعجنهـا كـما يجـب، ووضعهـا برقـة فـوق التقاطيـع النبيلـة. عندهـا رأيتـه يشـحب، ويـكاد يترنـح. فاقتربـت.

- ما الأمر؟ - سألتُ.


t.me/qurssan

- لقـد أفسـدت الأمـر، يـا أخـي...! ظننـت أن كسـب بضعـة آلاف بهـذا القنـاع سـيكون سـهلا، لكـن الانفعـال...

- لكن، كيف، ألست نحاتا...؟ ألا تعرف كيفية صنع القناع؟

- طبعا أعرف. بامكان أي شخص أن يصنعه. إنه أمر بالغ السهولة.

- إذن، ما هي المشكلة؟

- لقد نسيت تشحيم وجهه قبل أن أضع له الجبس.

- وماذا إذن؟

- اللعنـة! - همـس -، ألا تعـرف أنـك إذا لم تضـع لـه شـحما أولا، لا تعـود ثمـة طريقـة بعدهـا لنـزع الجبـس عـن وجهـه...؟ أخـلِ القاعـة، لـو سـمحت! - توسّـل إليّ.

أستدرت إلى الأقارب:

- مـن فضلكـم، سـيداتي وسـادتي: الفنـان بحاجـة إلى التركيـز في مهمتـه، مـن الأفضـل أن نتركـه وحـده...

اصطحبتهـم حتـى بـاب الصالـون الكبـير، وأغلقـت بالمـزلاج وعـدت إلى خيلبرتـو الشـاحب.

- مـاذا أفعـل الآن، يـا أخـي؟- سـألني -؛ لقـد حاولـتُ نـزع الجبـس، لكننـي رفعتـه بنتفـةٍ مـن جبهتـه. أن أفعـل هـذا بمتـوفي، وأخفـقُ مـع ميـتٍ شـهير، ليـس أقـل مـن رئيـس وزراء...! لم يعـد يمكـن عمـل شيء: أنـا سـجين مـدى الحيـاة أو محكـوم علـيّ بالإعـدام!

- لم يعـد أمامـك سـوى الهـرب... اخـرج، واقبـض مكافأتـك وبهـذه النقـود ارحـل مـن البلـد. وسـوف أعطّـل النـاس لأطـول وقـت ممكـن.

لم أتمكـن مـن إبقائهم سـوى سـاعة: الوقـت الضروري كي يُحصّـل خيلبرتو رولـدان المائـة ألـف سـول، ويسـتأجر سـيارةً سريعـة ويتجـه صـوب الحـدود



t.me/qurssan

الإكوادوريـة. وتوجّـب عـلى أقـارب رئيـس الـوزراء أن يسـتدعوا ، هـذه المرة، نحاتـا أصيـلا، حتـى يهـدم، بقـدر مـا يمكـن، ذلـك الجبـل الصغـير من الجبـس الـذي يحـول دون إغـلاق غطـاء التابـوت. لم نتقابـل مـن جديـد منـذ تلـك الفضيحـة الفظيعـة. ومـن الصحـف، بعدهـا بسـنوات، عرفـتُ أن رولـدان، في أوروبـا، قـد تحـول إلى نحـاتٍ شـهير.

فتـح، بنفسـه، بـاب الأتليـه الخـاص بـه في الطابـق الأخـير بمبنـى في ليـل سـان - لـوي.

- خيلبرتو - قلت له دون مقدمات -، أنا الآن من يحتاج إلى المساعدة.

- أنت تأمر...! لكن قبلها...،هل نتناول كأس شمبانيا؟

- ليـس الآن، يـا أخـي. أنـا في مشـكلة لا يمكـن أن تنتظـر. لا تسـألني كيـف ولا لمـاذا ولا مـن أجـل مـاذا، لكـن في هـذه اللفافـة مائـة ألـف دولار. هـل تسـتطيع أن تحفظهـا لي ثلاثـة أيـام دون أن يعـرف أحـد، ولا حتـي امرأتـك...؟ ليسـت مسروقـة - قلـت -: إنهـا نقـود نظيفـة.

- اللعنة! وتسمي هذا مشكلة؟ - ضحك رولدان.

عـدتُ مُنهـكا. لكـن مـا أن فتحَـت مـاري كلـير البـاب حتـى تبخّـر تعبـي. لا هـي ولا أنـا اسـتطعنا قـول شيء. بـدأت أيدينـا تنـزع ثيابنـا؛ أوقعَنـا إلحـاحٌ أعمـى فـوق السـجادة، مضفورَيـن، نُعضعِـض بعضنـا كأننـا نكـره بعضنـا، نتـمازج بأحضـانٍ توجعنـا، بإيمـاءات رقـةٍ مؤلمـة، لا تُـحتمل. لم نكـن قـد تحاببنـا هكـذا أبـدا. كان جسـدانا يصرخان بالشكوك، بالتأنيبـات، بالمخـاوف التـي لم يتجـاسر فمانـا عـلى التعبـير عنهـا. كان لسـانانا يختلطـان بعنـفٍ يبـدو معـه مـن المسـتحيل أن نتمكـن بعدهـا مـن اسـتعادة النطـق. كنـا عدوّيـن يتعـاركان على حافـة الهاويـة، خصمـين لدوديـن لا يتمنيـان سـوى مـوت الآخـر. هـل كانـت تُبغـض فيَّ وجـهَ مـن سـيهجُرها؟ هـل كنـت أُبغـضُ فيهـا الوجـهَ الـذي لـن أسـتطيع هجرانـه



t.me/qurssan

أبدا؟ متباغضين سقط جسدانا إلى الهاوية وعندها فحسب من أعماق البغضاء، وببطء طعنةٍ وحشية، انبعثت اللذة.

قرب الفجر أيقظني كابوس. تحسّستُ الفراش، فلم أجد جسدها. فتّشت عنها عيناي، فوجدَتها واقفة، وجبهتها فوق زجاج النافذة التي بدأ يلعقها الشروق. أعلى جسد ماري كلير أظهر غبش الضوء وجه امرأةٍ مجهولة تسكنُ ملامحها معاناةٌ لا تطاق. تراءت لي دموعٌ على خديها. تظاهرتُ بمواصلة النوم. أشعلت هي سيجارة. فأظهر الوضوحُ اللحظي لعود الثقاب أنها تبكي، حقا، وأنها أسندت باكيةً جبهتها على النافذة من جديد. من كانت تلك الغريبة؟ ماذا كان يجعلها تعاني بكل هذه المرارة؟ ذكرى ماذا، أو من، كان يثير فيها هذا الشقاء؟ عشتُ من جديدٍ بعضاً بعينه من تربيتاتها، بعضا بعينه من ملاطفاتها التي تعلمَتها مع أجسادٍ أخرى، بدوني، في حيوات أخرى، أجساد وحيواتٍ ظلت محجوبة وراء ذلك الماضي الذي فرضَت علي عدم التنقيب فيه. ماذا، أو من، كانت تتحسّر على هجرانه؟ استدارت ماري كلير، وفوجئت برؤيتي مستيقظا فابتسمت لي بعذوبة، بعذوبة بالغة، غير مسبوقة. جلسَت إلى جانبي، على الأرض، ووضعت جانب وجهها على صدري، وظلت تتسمع. كان سبتمبر ينتهي. ومثل أقطاب الأعمال أولئك الذين، عارفين بخرابهم الوشيك، يعوّضون بإسرافٍ مباغتٍ موظفيهم الذين سيفصلونهم قريبا، كان الخريف يبعثر عملاته الذهبية فوق باريس.



t.me/qurssan

## 19. إخفاقٌ مؤقّتٌ لطموحاتي

حفز جان پيير ارتياحُ سيجارة ستويڤيسانت لكن سُعار لا كوبول ، ذلك اليوم، حرمه من أدنى هدنة. تنهّد. لن يحقق حلمه أبدا: أن يتعشى على أية واحدةٍ من موائده. كانت كلُّ مطاعم باريس تحت أمره، لكن لا كوبول محظورٌ عليه. ليس لأنه لا يمكنه أن يسمح لنفسه، مرة أو مرتين أسبوعيا، بعشاءٍ فخم، بل لأنه هو نفسه، مبالغا في احترام زملائه، يحرِّمُ على نفسه أن يخدموه. رأت عيناه ظهور لبدة الشعر الأشعث لموريس جومون الذي تُبرزه فضيحة معطفٍ من الجلد. من بين صخب المعارف والغرباء أخذ جومون يتنقّلُ متعطّفا بتحياتٍ متعالية، واخترق خط الحدود الذي يفصل البراسيري[64] عن قاعة الطعام. في البداية كانت كل الموائد مكسوةً بمفارش من القطن. لكن بيكاسو، وماتيس، وجياكوميتي، وفرنان ليچيه وغيرهم من الزبائن المنتظمين دأبوا على تلطيخها بخطوطٍ غير مفهومة، ورسومٍ تخطيطية محيِّرة، وخربشاتٍ ذات ألوان لايمكن إصلاحها وتثير الاستنكار في المغسلة. فرتب مسيو لافون استبدال المفارش بأخرى



t.me/qurssan

مـن ورق عـلى الموائـد التـي يـتردّد عليهـا المسـتهترون. وهكـذا انقسـم لا كوبـول إلى مقاطعتـين: البراسـيري التـي انتهـى بهـا الأمـر أن تصبـح جانـب الفنانـين، والمطعـم، جانـب البورجوازيـين. ولتجنّـب أن يخطـيء المائـدةَ مُلطِّخـو المفـارش، رتّـب أن يُبـاع النبيـذ في البراسـيري بالـكأس، وهـي ميـزةٌ أبقتهـم خلـف الحـدود التـي بعدهـا لا يقـدّم النبيـذُ إلاّ بالزجاجـة. تضاءلـت نفقـاتُ المغسـلة وحمـل المنفيـون، في مفارشـهم الورقيـة، اسكتشـات أعـمال سـيعجب بهـا لافـون بمـرارة متأخـرة في المتاحـف وحتـى في البطاقـات البريديـة التـي يشـتريها السـياح الآن بالدسـتة عنـد الخـروج مـن لا كوبـول. جلـس موريـس جومـون وحيـدا، كالعـادة. طلـب بـلا مبـالاة سـت محـارات بيلـون، وسـت محـارات كلـير، وسـت محـارات بريـر وسـول مونيـر و جيفورتسـترامينر ميـداي دور[65]. سـجل جـان پيـير الطلـب وقبـل أن يأخـذ مسـاره استشـار المالـكَ خفيـةً. أون ڤـيرا[66] رد مسـيو لافـون. كان جـان پيـير يعـرف جيـدا أن ذلـك التشـكك كان بدايـة الموافقـة المألوفـة غـير المفهومـة. فالحسـاب الجديـد سـيزيدُ الملـفَّ السـمين للعمـل الوحيـد الـذي أنهـاه حقـا جومـون، الـذي تـصر كل مجـلات فرنسـا عـلى عـدم نـشر صـورة وجهـه المنتـصر. رقّـت مشـاعر جـان بيـير وهـو يتخيـل الليلـة التـي كان فيهـا موريـس جومـون، أشـد شـموخا عـلى الإطـلاق، يتجاهـل التهـاني، وأضـواء فلاشـات الپاپاراتـزي[67]، وحصـار هـواة التوقيعـات، ولم يدفـع أيضـا. لمـاذا؟، مـن سـيتجاسر عـلى تذكـر تلـك الحماقـة لفائـزٍ بجائـزة نوبـل؟ ولـن يتغـير شيء. لا كوبـول هـي عائلـة كبـيرة، قـال جـان بيـير لنفسـه. والعائلـة إمـا أن تنتمـي إليهـا أو لاتنتمـي. كان يخـدم زبائـن يتعشّـون منـذ سـنوات، ثـلاث مـرات في الأسـبوع؛ لكنـه يجهـل أسـماءهم. لكـن آخريـن، في المقابـل، يتـم تبنّيهـم دون تفسـير منـذ الليلـة الأولى. ميّـزت عينـاه، قـرب النافـورة الخاليـة والمكدّسـة بالزهـور، امـرأةً تعـرج كأنهـا تختنـق بفعـل نعومـة فـراء المينـك: إنهـا ڤيـرا، الموديـل النمسـاوية الشـهيرة، تعـرض فخـورةً عرجهـا، الـذي سـبّبته علقـةُ طهـران التـي لا تقـل شـهرة. فقـد اعتـاد الشـاه أن يتسـلّى بتصفّـح مجـلات الموضـة. وحـين يـسرّه جـمال مانيـكانٍ



t.me/qurssan

بعينها، يبعث مساعدوه بالتلكس إلى زيوريخ نزوة ملك الملوك. وتقوم وكالة "مود" بصياغة الدعوة. وإذا رغبت المنتقاة - وبالطبع لم تكنْ جميعهن تقبلن -، فإنها تتلقى في ختام عطلة نهاية الأسبوع الفارسية خمسين ألف فرنك سويسري وكل ما تريده من الفراء. لم تكتف ڤيرا بالإصرار على العرج: فرغم الحرارة الخانقة احتفظت بالمعطف فوق كتفيها العاريين. "سلطة وشمبانيا فقط، يا جان پيير"، طلبت. وعلى أقرب مائدة، حيث تناولت چوزفين بيكر[68] العشاء مع أسدِها الصغير ذات ليلة بعيدة، استقر هذان الزوجان اللذان يتقاسمان كل يوم جمعة وجبةً وحيدة. فوضع رينيه، الميتر المستاء الذي يخدمهما، عن عمد، طاقم أدوات طعام واحدٍ للبخيلين: وسينتظر أن يطلبا الآخر. رفع زبونٌ أفطس الأنف بعوينات صغيرةٍ صوتَه: أصر على أنهم بدل سمك موسى قدموا له سمك قُدٍّ. ودون جدال أمر رينيه بتغيير الطبق. وبتغيير الزبون، بينه وبين نفسه. فبعض الزبائن لم يكن يعارضهم، لكنه كذلك لم يكن يعاود خدمتهم.

"ما العمل؟ كيف أحصل على المقدَّم؟"، قلقتُ. بأية حكايةٍ أغري الناشر؟ لم يكد البقرة المقدسة يفرغ من هدم حكايتي عن فرار مقاتل عصابات يهرب عبر نهر أمازوني. وفي بؤس عينيه، خلف رضاه، لا أدري لم عاودتُ رؤية عينيه وهو شاب، وعاودتُ رؤيته، عاودت رؤيتنا نجوب طريق إنسورخنتيس هناك في مكسيكو العاصمة، في صبانا، بحثا عن محلٍ صغير تكون فيه الشطائر، تلك الساندويتشات الريفية الوافرة، أطعم وأرخص. بعدها، ربما لأننا الآن أيضا نتقاسم مائدةً واحدة، عاودتُ رؤيتنا جالسين في مطعم إل رينكون يوكاتيكو حيث كنا، البقرة المقدسة، وبيوليتا اللذيذة، وجوستابو بالكارثل، وجونثالو روسى، وأنا نحتفل بانتصاري...

- أشربُ نخباً...! - رنَّ في ذاكرتي صوت البقرة المقدسة -. أشربُ نخبك، نخب


t.me/qurssan

أخوّتنا هذه التي لا تفنى مثل فنك! أرفعُ كأسي ليس فقط لنجاح شخصٍ كان دوما أكثر من أخ. أشرب أيضا نخب العبقري، الذي بخلاف عباقرة الحقب الأخرى، يُعترفُ به هذه المرة في حياته وفي عصره...!

عاود البقرة المقدسة أخذَ قطعةٍ أخرى من الديك الرومي بالشيكولاته والعصّاج المحمر بصوص الفلفل الأحمر على الطريقة الفلاحية.

بالطبع كنت قد نِلتُ الاعتراف! وبعملي الأول، الذي لم يكن لا عملا ولا أول ولا يخصني. والذي، في حالة وصول الأمر إلى المحاكم، سيكون البقرة المقدسة ضالعاً فيه ومُداناً بغير حق لأن عملي لم يكن كذلك عمله. كنت في ذلك الحين أشغلُ واحدةً من أكثر الغرف تداعيا في بنسيون مونتيرّيي. خلال أعوام، وقد تعِبتُ من تغيير السكن سعيا إلى غرفةٍ أفضل لأجد دوما أخرى أسوأ، تلقّيتُ عونا مفاجئا من شخصٍ لا يمكن لأحد أن ينتظر منه شيئا: البقرة المقدسة. فقد اكتشف لي وضاعة غرفةٍ خلفية في بنسيون مونتيرّيي، جاراً للقفص الذي تحدِثُ فيه الديكةُ الرومية ضجيجا أقل من القططِ الهائجة والقططُ الهائجة أقلَّ من النساء المضمومات عند النواصي اللاتي يلهث الطلبة المحظوظون فوق بدانتهن. لم نكن لا البقرةُ المقدسة ولا أنا نندرجُ في تلك الفئة المتميزة. لم يكن في الغرفة ضوء، ولا هواء، ولا هدوء، لكنها كانت تتمتع بشيء أكثر فائدة: الدَيْن. دَيْنٌ أم نسيانٌ سمْحٌ من جانب خوانيتا أمارو، المالكة؟ كانت تعرف العالم، رغم أنها من أصلٍ شديد التواضع. إذ بكونها خادمة لديبلوماسيين يقدّرون كفاءتها الصامتة، جابت خوانيتا أمارو لندن، وباريس، وفنيسيا، وبرشلونة، وموسكو. ومن رحلاتها عادت بمدّخراتٍ واندهاشات. فأقامت بنسيون مونتيرّيي. كنت أدينُ لها بشهور كثيرة. وكانت تتحمل لأنني، في لحظة معينة، وكي أجد العذر لنشاطاتي، أو بالأحرى، لانعدام نشاطاتي، كنت قد اخترعت لها أنني كاتب. تملّق هذا خوانيتا لكن الشهور أخذت



t.me/qurssan

تمـر وتمـر. لم أعـد أنـا دينـاً: فقـد صرت اسـتثمارا، أحـد تلـك الممتلـكات التـي لا يمكـن شـطبها مـن السـجل دون أن تؤثـر في الأصـول. المسـكينة خوانيتـا! حبّـاً في الفنـون تحمّلـت أو تظاهـرت بتحمـل نوبـات فقـدان ذاكـرتي الشـهرية. وكي أغـذي أوهامهـا، كنـت بعـد كل غـداء أسـتحوذ عـلى قاعـة الطعـام برمتهـا حتـى "أكتـب" بـلا كلـل. كنـت فـور سـماع خطـوات خوانيتـا أزيـد بسرعـة مـن صفحـات مفكّـرة سـمينة مربعة أنسـخ فيهـا افتتاحيـات عبثيـة لصحـف أشـد عبثيـة، أو أسـجل السـذاجات التـي تخطـر عـلى ذهنـي غـير المترابـط. وحـين تقـترب أكـثر مـما ينبغـي، كنـت، بإيمـاءات فنـان غـير راضٍ عـن عملـه الأعظـم، أمـزّق "أصـولي" وألقيهـا في القمامـة قبـل أن تقرأهـا تلـك النظـرة التوقيريـة التـي تـصرّ، مـن وراء ظهـري، أن تعلـن لـكل المسـتأجرين عـن القـدوم الحتمـي لمجـدي. حتـى أخرجنـي ذات صبـاح صـوت خوانيتـا أمـارو الفـرِح مـن النـوم الـذي يغـرقُ فيـه الفنانـون المنهكـون مـن الإبـداع.

- ... اسـتيقظ! لقـد حُلَّـت مشـاكلك ومشـاكلي. إقـرأ إعـلان المسـابقة ودقـق في قيمـة الجوائـز.

وناولتنـي صحيفـة علمـتُ منهـا بفـزع أن **جامعـة المكسـيك القوميـة المسـتقلة** بمناسـبة لا أدرى أي مئويـة لتأسيسـها، عقـدت مسـابقة **الألعـاب الزهريـة لـلأدب**[6]. أعـدتُ إليهـا صحيفـة "إكسلسـيور" المشـئومة لكنهـا أصرت:

- هـل قـرأت جيـدا...؟ الجائـزة الأولى: 10 آلاف بيسـو، الجائـزة الثانيـة: 5 آلاف، الجائـزة الثالثـة: 3 آلاف. هـي لنـا! الآن أود رؤيـة وجوه الحسـودين الذيـن يمضـون قائلـين أننـي سـأموت وليـس معـي دفـتر قصائـد بـل دفـتر إيصـالات لم تُدفـع...! سـيرى مشـوّهو سـمعتي! أنـا واثقـةٌ تمامـا أننـا سـننتصر!

- نعم، نعم، يا خوانيتا؛ القول قولك، يا خوانيتا، حاولت تهدئتها.



t.me/qurssan

- سننتصر، سننتصر!

بدأت تحولاتٌ دراميـة. ففـي ذلـك الصباح استبدلت الخادمـة، وهـي تقـوم بخدمتـي، النفورَ المعتـاد الـذي يُعامـلُ بـه المدينـون، بمـودةٍ غـير متوقعـة؛ ودون أن أطلـبَ وعـلى حـين غـرةٍ ترقَّيـتُ مـن القهـوة الباهتة إلى تشـكيلة الفواكـه الاسـتوائية، إلى القهـوة بالحليـب والبيـض عـلى الطريقـة الريفيـة، وإلى "اللحـم، الكثـير مـن اللحـم حتـى يأتيـه الإلهـام جيـدا"، تلـك الامتيـازات التـي يسـتحقها الرجـال الذيـن "يعملـون بذهنهـم". وتعلّـق التحـوّل الثـاني بالضوضـاء: كان يسـود الصمـت حـين أصـل".لا يجـرؤنّ أي أحـد، هـل تفهمـون؟، أي أحـد عـلى تعطيـل الشـاعر". وتعاظمـت جوانـبُ رعايـة العاملـين. ففـي سـاعة شـؤم تذرّعـتُ بنوعيـة الـورق السـيئة: فاسـتقرّت عـلى مائـدتي منـذ الفجـر ألـف ورقـة مـن الـورق الناعـم تزينهـا جبـالٌ صغـيرة مـن عُلَـب الأقـلام، والأقـلام الرصـاص وقطـع المحـاة. إزداد دينـي ورعبـي. فكـرت في الفـرار. لكـن غرفتـي، التـي لم تعـد الأخـيرة بـل الأشـد اتسـاعا، صـار عـلى بابهـا الآن خادمتـان تتناوبـان ليـلَ نهـارٍ لإرضـاء نـزوات العبقـري. وكان الإفـلات مـن تلـك الحراسـة المزدوجـة مسـتحيلا. ويائسـا، ولم يبـق سـوى ثلاثـة أيـام عـلى إغـلاق بـاب المسـابقة، وحـين اكتسـبتُ فعـلا المظهـرَ الشـاحب للفنانـين الـذي تُحنِّطـه خوانيتـا في خيالها، حينئـذ بالضبـط وصـل البقـرة المقدسـة، لا لـشيء، سـوى أن يطلـب منـي مـا لا يحتاجـه ولا يُهديـه إلى أحـد: النقـود. أبلغتـه أننـي أحتفـظ بدراهمـي الأخـيرة لأهبهـا لمتسـول بـشرط أن يسرق زهـورا مـن القبـور الثريـة ليلقيهـا فـوق المقـبرة الجماعيـة التـي سـأثوي فيهـا قريبـا جـدا. إلى أيّ حـدٍّ بلغـت وحشـتي حتـى أننـي بحثـتُ عـن الغـوث عنـد شـخصٍ ليـس أقـل مـن البقـرة المقدسـة. أسررتُ إليـه بعذابـاتي.

- أتغـرقُ في هـذا المـاء الضحـل؟ - تهكـم البقـرة المقدسـة -. أدخـل المسـابقة بـأي شيء. منـذ قليـل، في جامعـة بويبـلا فـاز أسـتاذٌ لي بقصيـدة



t.me/qurssan

غير منشورة اتضح أنها لرابندرانات طاغور. الشيء الوحيد الذي فعله أن ترجمها...

- لكنني لا أعرف أي لغة...

- أفضل: ترجم من القشتالية إلى القشتالية.

- أترجم...؟ من؟

- في هذه الأحوال ليس ثمة من يعادل نيرودا، وهو أيضا مترجمٌ خبير...

هكذا، بمساعدة البقرة المقدسة (الذي، بصفته ناسخ الطبعة النهائية من العمل الأعظم، كانوا يقدمون له غداءً في ساعة الإفطار وأربعة إفطارات في ساعة الغداء)، أعددتُ ثلاث ترجمات أضفت إليها، من إلهامي هذه المرة، شذرات من الشعر العالمي الوحيد الذي أعجبُ به حقا: تانجوهات لي پيرا، وديسثيپولو، وجارديل، وكذلك أشعارا من "أحد العوام"، و "كلهم يعودون"، و "تعالي يا أنيتا". كتبت ثلاثة أناشيد على شرف المحبوبة التي لم أكن أملكها، والحب الذي كنت سأحتاجه لأتمكن من اجتياز كل هذه العزلة وكل هذه الوحشة. ودبّر البقرة المقدسة ثلاث آلات كاتبة وشاركت كل واحدة من قصائدي في مسابقة **الألعاب الزهرية** تحت اسم مستعارٍ مختلف. لم أكن أحلم بأي واحدة من الجوائز لكن ببلوغ جائزةٍ شرفية تالية قادرةٍ على أن تجعلني جديرا أمام الجمهور الوحيد الذي يهمني: خوانيتا أمارو. لكن حدث ما لا زال مستحيلا عليّ تصديقه. فذات ظهيرة حلمتُ بأن دويٌ عازفي جيتارِ جوالين يوقظني، وخوانيتا تصيح، باكية، "كسبنا الجوائز الثلاث الأولى". استيقظتُ، لم يكن حلما: كان دوي عازفي جيتار جوالين. بزعامة خوانيتا أمارو، حضر نزلاء البنسيون والخادمات ليزفّوني. وخلف ابتهاج المتملقين والمدينين، في المؤخرة، بعيدا عن كتيبة الجيتارات و الراقصين، برز التمثال الجيلاتيني للبقرة المقدسة، الذي، بينما يتظاهر بتطويق مرفقه الأيسر بيده اليمنى، كان



t.me/qurssan

يُذكّرني بأنني يجب أن ابتهج بنسبة خمسين بالمائة فقط، لأن نصف الجوائز يخصه.

وكي أعزّي نفسي نظرتُ، على الحائط حيث تلمع ساعة لا كوبول، إلى لوحتي ماري ڤاسيليڤا. في اللوحة على اليسار كانت امرأة في ثوب غريب، ثوب رائد فضاء؟، ذات وجه أسود، تعرض جسدا كان أو يبدو كأنه زجاجة. ويداها تمسكان بكأس على هيئة مزمار ممتلىء بشمبانيا سوداء. وكان كلبٌ أسود يسير فوق رأس چان چيرودو الذي ينفخ في كلارينيت. وكان مؤلف "حرب طروادة لن تحدث" قد تناول عشاءه مراتٍ عديدة عند أقدام صورته. وفي اللوحة الثانية كان أحد متأنقي الإتيكيت، بمونوكل، يمسك بكأس وسيجار تكعيبيين. وكانت يده المكسوة بقفاز تظهر سيطرته على جسد امرأة خضراء خيالية، ومعها بدورها كأسٌ تعلوه الفقاعات من النبيذ الأسود.



t.me/qurssan

# 20. هنود الكامپا يصرّون على أن پنت يحاول تسقيف الغابة

- أقـترحُ عليكـم إذن حكايـةً اخـرى - قلـتُ كغريـقٍ يتشـبّث بلـوح خشـب غـير موجـود.

- مـيرسي - وافـق البقـرة المقدسـة. وبـلا شـك، حتـى يُظهـر فرنسـيتي المشـكوك فيهـا، كان ينطـق حـروف الـراء بكـمالٍ يثـير اليـأس.

واصلتُ دون أن تهنَ عزيمتي:

- الشـخصية اسـمها ديفيـد پنـت. الأخبـار الأولى تحـدد موقعـه عـلى الحـواف الملتهبـة لنهـر التامبـو. الثقـة التـي يجـوب بهـا تلـك الأرجـاء ويتعامـل بهـا مـع التجـار، وإسـبانيته التـي عضعضتهـا تنغيـمات الغابـة تشـيان بأنـه كان في الغابـة الأمازونيـة مـن قبـل. سرعـان مـا يظهـر وهـو يتعاقـد مـع السـكان المحليـين بأجـور لا تُصـدَّق. هنـوده يكسـبون مثـل قاطعـي الأخشـاب البيـض. حتـى ذلـك الحـين كان يتـم شراء هنديـات الكامـپا مقابـل سـاطور أو قربينـة. ومقابـل الطعـام، وقِـدر طعـامٍ، وعبـاءةٍ



t.me/qurssan

مـن القطـن الخشـن، يعمـل السـكّان الأصليـون أعوامـا في الضِيـاع. يندفـع ينـت بأجـور يوميـة مُتحدّيـة. فيبـدأ عـمال المياومـة في الضِيـاع المجـاورة في الهـرب. وسريعـا، سريعـا جـدا، ينطلـق ثلاثمائـة مـن المخلصـين لهـذا الإلـه الذهبـي الـذي يخلّصهـم مـن الشـقاء، في تشـييد منـزل لامتناهـي الأبعـاد. لا يتخيـل أحـد أنـه منـزل. يأمـر ينـت بنقـل أعـلى الأشـجار وأصلبهـا وأسـمكها مـن المواضـع القريبـة ووضعهـا في صفّـين غـير مفهومـين. بـين الشجرة والشـجرة مسـافة مـن خمسـة عـشر مـترا. يندهـش العـمال مـن أنهـم يؤمـرون بحـرق الغابـة ليغرسـوا أخـرى فـوق رمادهـا. لكنهـا ليسـت أشجارا: بـل أعمـدةٌ. وليسـت غابـةً: بـل بيـتٌ. وبـدءاً مـن حلـوق الأشـجار العاليـة تمتـد شـبكةٌ مـن الأغصـان المتنوعـة، تشـبيكةٌ مـن أخشـاب الموينـا، والماسـاراندوبا، والباريـنـاري، والباشـاكو، والتاوبـا، والهواكابورانـا، والماهوجنـي. وفوقهـا في الأعـالي، سـماءٌ مـن الزنـك. فـذات مسـاءٍ تصـل سـفينة بحمولـة لم تُـرَ مـن قبـل قـط. ثـم تصـل أخـرى، وأخـرى عنـد حلـول الليـل، وفي اليـوم التـالي أسـاطيلٌ مـن اللنشـات تُفـرغ خـلال أيـام، مئـات ومئـات مـن ألـواح الزنـك قادمـة مـن إيكيتـوس. هـل تتخيلـون مـا يكلّفـه إحضـار تلـك المـواد مـن كل هـذا البعـد؟ يـصر هنـود الكامـپا: الأمريـكي يحـاول تسـقيف الغابـة. لكنـه لا يُسـقِّف الغابـة: بـل يسـقف بيتـه فقـط. فلـدى ينـت فائـضٌ مـن كل شيء، خصوصـا النقـود وأكـثر مـن النقـود، الجـمال. هـل قلـتُ بالفعـل أن أحـدا لم يـر ولـن يـرى مـرة أخـرى في كل منطقـة الأمـازون، ذكـراً بهـذا الجـمال؟ ذكـر بحـركاتٍ وئيـدة يجهـل جمالـه الـذي لا يصـدق. جانبيـا يبـدو أن رقبتـه السـميكة تشـده دائمـا نحـو الأمـام، أمـا صـدره العريـض والمحمّـص، بغابـةٍ في وسـطه، فيؤكـد ميلـه كأن أحـدا يجذبـه دائمـا مـن أدغـال صـدره. لـذا يسـير بخطـوات واسـعة، مجـبرا بـلا هـوادة عـلى التقـدم، عـلى أن يبـدو متعجـلا حتـى حـين يكـون متوقفـا. وبشـكل غـير مفهـوم نظـرا للحـرارة، يسـتخدم بنطلونـات سـميكة مـن الكشـمير المقلّـم، سـميكة وواسـعة، حوافهـا أكـثر سـمكا وثقـلا. ولا يثقـل قدميـه حـذاءٌ بـل يخففهـما خـفّ بلـون القرفـة. وفي رسـغه الأيـسر، سـاعة



t.me/qurssan

ذهبية ضخمة تشير دوما إلى الساعة الثالثة. الثالثة صباحا أم مساء؟ لم أسأله أبدا ولم يقل هو أبدا. هذه الأشياء تُعرف دائما بعدها لكن بعدها دائما ما يكون متأخرا جدا. فالبيت الشاسع الذي سرعان ما يمتد فوق هكتار، ليس بيته: إنه عنبر نوم لانهائي مستدير تارة، وتارة تعوقه لفلفة الممرات، وتارة تربطه حوائط سوداء هشة، مصنوعة من ألواح النخيل. وأنا، أحد القلائل الذين عرفوه، لم أبلغ أبدا حدّ المعرفة التامة به. فقد كان ثمة غرف محظورةٌ عليّ، ليس بأمرٍ منه ولا من أحد بل لنقص الوقت، كان الوقت ينقصني، كان الوقت شحيحا بالنسبة لي. تنتهي الأمطار حين تحضر طوابير من النساء من كل الغابات، وتستقر بصمت في البيت... وإليهن، بلا ضرورة، يبدأ ديفيد پنت في إضافة الإناث اللائي يشتريهن. لأن پنت يبدأ في شراء نساء. بلا ضرورة، قلت بالفعل. أيّ امرأة لا تودّ أن تنام، أو بالأحرى ألاّ تنام، طوال الليل، طوال كل الليالي، بجوار وتحت ذلك الجسد الأشقر الداكن الذي تظل الومضاتُ الوردية تلتمع خلف ليليّته المشمسة؟ لكنه يشتري نساء. فالسحرة الكامبِا، حين يلحق أذى بقوم الإقليم، يعزون الشرّ بصورة لا تتبدل إلى عقيدةٍ غابرة: أن الروح الخبيث قد تملك روح طفلة ويبعث المهالك انطلاقا منها. وهذه الطفلة، أية طفلة، حتى لو كانت ابنة الساحر ذاته، سيحكم عليها بالموتِ رميا بالسهام، الطريقةِ الوحيدة لمحو الشر. ويفضّل والدا الساحرة الصغيرة، هكذا يسمون الجسد التي تحدده الأحلام، بهدف إنقاذها، إهداءها أو، في أفضل الحالات، بيعها أو مقايضتها بحفنة من الطلقات، أو بسكينٍ جبلي، أو إناء طبخ، أو كيس ملح، أو أي شيء. ومن تلك التعاسات ولدت ثرواتُ كل مالكِي الضياع في الإقليم تقريبا. فأمثال دابيلا، وبيريرا، ورياتيجي، ورانينيري نظفوا أراضيهم بجيوش من العبيد الممنوحين. من لا يعرف حكاية المطار الذي أنشأوه لرانينيري المرهوب في ضيعته "بيستا إرموسا"؟ هو نفسه يتباهي: صنعه له جيشه من هنود الكوروإينثي على مدى عشرين عاما. كانت هنديات الكوروإينثي، النملات ذوات الأفكاك النهمة،



t.me/qurssan

تمزقن أوراق الشجر الضخمة والأغصان واللحاء، وهكذا، ضئيلات، كن ينقلن أشجارا برمتها إلى أوكارهن. لم تكن هنديات راينييري العجوز نملا، بل بشرا. مئات من الساحرات الصغيرات، آلاف من الساحرات الصغيرات الممنوحات كن يردمن تجاويف أراضيه المرتفعة، ويقطعن رؤوس التلال المكسوة بالغابات، ويمهّدن الأرض المنبسطة التي هي الآن "بيستا إرموسا"، ويمددن بين نهرين كبيرين هذا الطريق الشاسع المفروش بالحصباء الذي سواه عبيده الكوروإينثي التعساء كي لا تهبط فيه طائرة أبدا. حملت طِفلات النمل خلال أعوام مئات ومئات الأطنان من الحصى من الشواطيء الواقعة على انخفاض خمسمائة متر، من أجل تمهيد أرض الهبوط، والحدائق التي تطوّق دار الضيعة، والشوارع التي تحفُها حقول الموز والتي تمضي وتأتي من الميناء إلى غرف المعيشة، ومن غرف المعيشة إلى الأراضي المبذورة ومن الأراضي المبذورة إلى الاصطبلات، ومن الاصطبلات إلى كل الأنحاء لأن ثروة راينييري لانهائية. حين لم يكن العجوز يملك عبيدا، لم يكن يملك شيئا، بالكاد بضع بقرات كان يعرفها بأسمائها. وبعد هنديات الكوروإينثي صارت بهائمه من الكثرة بحيث فقد النطق.

لا يقبل پنت الهدايا. يشتري هنديات صغيرات لإنقاذ حياتهن. ويعشقنه بلا شفاء. فالعبدات لسن عبدات: بل زوجات. وطفلات الكامپا، في تلك الغابات التي يزدهر فيها كُلُّ شيء ويبلغ خريفه مبكرا، تصبحن نساء قبل أن تبلغن العاشرة. ومع بدء الحياة مبكرا تبدأ اللذة مبكرا. كانت هنديات راينييري الكوروإينثي تستفقن سريعا جدا على المعاناة. بينما تستفيق زوجات ديفيد پنت، بعجلة مماثلة، على المتعة. لم أر زواجه الأول. فقد بدا أن كل زيجاته كانت زيجات بعشر خطيبات. أتذكَّرُ هنود الكامپا العجائز الذين كانوا يصِلون لإهدائه ساحرات صغيرات. كانوا يتركونهن بعبارة باكية: "هأنا أسلم إليك ابنتي لتصبح زوجتك، إرعها جيدا". هل أنا بحاجة إلى القول بأن كل خطوباته كانت احتفالات تدوم أسابيع؟



t.me/qurssan

- زيجـاتُ أطفـال؟ - جـرى لعـاب البقـرة المقدسـة -. لم لا؟ شـهور عسـل طفولية؟ تريـز أنتيريسـان[70]. في الولايات المتحدة فهمت الوكالات الإعلانيـة جيـدا الحسّـية الخفيـة التـي تلهمهـا القـاصرات. وقلـةٌ مـن الإعلانـات تبيـع مثـل تلـك التـي تعـرض عُريـا صريحـا لطفـلات تروّجـن السـيارات، والعقـارات، والسـجائر، وكريمـات الحلاقـة... أهنئـك!

التمعت عيناه. للمرة الأولى كان يتابع المحادثة بشغف.

- مثـيرٌ تمامـا للاهتـمام، أكـرر. في أوقـات الأزمـة، يجـب أن يتسـلّى القـارئ. الإيديولوجيات تتهـاوى. والفـردوس الإشـتراكي قـد تعـرّى ليصبـح جحيـم سولجنتسـين. الإنسـان يطـوي نفسـه عـلى الحسية. يقـترح علينـا نابوكـوف الطيـب لوليتـا، أعنـي، حكايـة رغبـة. أمـا پنـت، أو لنـت، كيفـما كان اسـم شـخصيتك، فيقـترح علينـا كـثرة مـن الرغبـات، حشـدا مـن أمثـال لوليتـا الهنديـات. ممتـاز!

- ... لكـن فجـأة تنقطـع الاحتفـالات، ويتوقـف التشـييد. لا تعـاود النشـات المحملـة بالمـواد الرجـوع إلى الميـناء. يكتفـي سـكان ضيعـة پنـت بالعيـش عـلى صيـد الوحـوش والأسـماك. ويعلـن ديفيـد أنـه يجـب أن يتغيـب. يجمـع رؤسـاء عمالـه ويفـوّض إليهـم أعـمالا يوميـة لمدة شـهرين. وقبـل ثلاثـة أسـابيع يعـود مـع أربعـة جرينجـو[37] لا يتحـدث معهـم سـوى بالإنجليزيـة. في الليلـة السـابقة تصـل مـن إيكيتـوس سـفينةٌ محملـة بمؤن لا يسـتهلكها: مربـات اسـكتلندية، وبسـكويت أمريـكي شـمالي، وأجبـان فرنسـية، وفخـذ ودهــن خنزيـر إسـبانيين، وأنبـذة، وأنـواع ويسـكي، ومشروبـات روحيـة. أمـا رفاقـه: وجـوهٌ محمـرة، ونظـرات شـاحبة، فيرتدون أرديـة أجنبيـة. ولا يمكـن التعـرف عـلى پنـت وهـو يرتـدي نفـس الملابـس: إذ يزهـو الآن في قميـص صـارخ منقـوش بالـورد يظهـر فيـما بـين ياقـة معطـف سـماوي وعوينـات سـوداء تضـوي فيهـا الشـمس. يبقـى اليانـكي خمسـة أيـام في أراضي پنـت. خمسـة أيـام يستكشـفون غابـات الأخشـاب الثمينـة، بقـع أشـجار الأرز، وخشـب الـورد، و الماهوجنـي. يعـودون عرقانـين، ومنهكـين، ومتحمسـين. يتحدثـون ويشربـون حتـى وقـت متأخـر.


t.me/qurssan

وفي اليوم التالي، متعجلين دائما، يمضون. وما أن يغادروا، حتى يُلقي پنت ثيابه، على الفور، ويرتدي من جديد عباءته، ويستعيد مظهره المعتاد، وحركات جسده التي لوّحتها الشمس، و مشية الأمازوني، حافيا تحت العباءة الهندية. ومن جديد، في المرفأ، ينشط زحام من السفن محمّلة بالزنك، والأثاث، ومحركات المراكب، والمناشير النقالة، وكتلٍ ضخمة يأمر بعدم فتحها وتتكدس لا أدري أين في جوف بيته. تعاود النقود الدوران. وترجع روعة الاحتفالات، الحياة الحقيقية لديفيد پنت؛ حياةُ متعةٍ، بالمتعة، من أجل المتعة. كل ليلة ينام مع زوجات مختلفات. الاحتفال الكبير الذي كانته حياته دوما، لا تقطعه سوى رحلات قصيرة ومفاجئة إلى الولايات المتحدة. وتنطوي كل عودة على المزيد من النقود: رؤوس أموال مستثمرين جدد أقنعهم في بوسطون، وشيكاجو، وكليفلاند، بالإمكانات الرائعة لشركة "أمازونيان وود" ["أخشاب الأمازون"]. فالجذع من الخشب الثمين لا يكلِّف شيئا إذا وُضع عند مصب نهر الأمازون؛ لكنه عند تفريغه في ميناء هامبورج يساوي سعره مائة مرة بالدولار. العمل استثنائي، ورائع، وممكن. يتعارك المستثمرون على المشاركة في مشروع پنت. لكن بدل التصدير، تستورد "أخشاب الأمازون" سلعا تلو سلع يتم تفريغها في موانىء نهر التامبو. وذات يوم لا يحتمل الحمالون ثقل طرد يُظهر، حين ينفتح مصطدما بألواح المرفأ، لون أسلحة مائل للسواد. ودون أن يفقد هدوءه، ينظر پنت إلى مروحة البنادق الساقطة ويضحك: لن نفتقر إلى الأسلحة - يقول - لرحلات صيدنا. نسيتُ الحادثة مثل الجميع. في لحظتها تُنسى هذه الأشياء؛ وبعدها يتم تذكرها، لكن بعدها دائما ما يكون متأخرا جدا. يبادل پنت ليالي المتعة مع قراءات القصائد. يعجبه الشعر لكنه مولع بالاستماع إليه وليس بقراءته. يتعاقد مع رحالة أو هاربين من الخدمة العسكرية الإلزامية ليقرأوا له من جديد أشعار كتابه "المنتخب العالمي من الشعر الغرامي". تُجهّز إقامةٌ رائعة لما لا نهاية له من الأصدقاء، ويتم الدفع لبعضهم، حتى يرتّلوا



t.me/qurssan

لـه بصـوت عـال، عنـد نهايـة أعمالهـم، التـي تعنـي اختلاطهـم بهنديـات الكامـبا، قصائـد تعرفهـا ذاكرتـه. وخبـيرا في الفـراش وقصائـد الحـب، يقـرِّر ديفيـد پنـت التـدرب عـلى المهـارة السـامية لهنـود الكامـبا، أمهـر رُمـاة السـهام وأرهبهـم في منطقـة الأمـازون. ويظـل زمنـا طويـلا متدربـا لـدى الزعيـم سـيبيرو. ويبلـغ حـد احتقـار القربينـات. فتصويبـه أشـد سـدادا بالقـوس والسـهم. ويبتهـج هنـود الكامبـا بالمـرّة التـي، دون دليـل ولا رفقة، عـاد فيهـا مـن الجبـل بخنزيـر بـري عـلى كتفـه، ولا ينقـص مـن حقيبـة ظهـره سـوى سـهمٌ واحـد. ومتشـجعا مـن نجاحـه - كنـت أنـا هنـاك ذلـك الأصيـل، ورأيـت -، يقبـل ديفيـد تحـدي، أقـل مـن تحـدٍ، لعبـةً الزعيـم سـيبيرو. عـلى مسـافة عـشرة أمتـار، يسـتعد ديفيـد وسـيبيرو، مثـل كل مقاتـلي الكامـبا، وجهـا لوجـه، وهـما يبتسـمان. يتنـازل سـيبيرو عـن إطلاق السـهم الأول لـپنـت، ويعـدُّ عباءتـه، عبـاءة الزعيـم، لاصطيـاد السـهام التي سـيطلقها عليـه الأمريـكي الشـمالي. يشـدّ ديفيـد قوسـه، ولا يصـوّب إلى جسـد سـيبيرو، بـل إلى الحافـة اليمنـى لعباءتـه، ويطلـق السـهم. يخـدش السـهم الهـواء، ويسـقط عنـد أقـدام سـيبيرو منشـطرا إلى اثنـين. لا يريـد سـيبيرو الكـف عـن الابتسـام، يبتسـم، يدعـو پنـت مـن جديـد. يسـقط سـهم جديـد، عنـد أقـدام سـيبيرو وينشـطر إلى اثنـين. لا يريـد سـيبيرو النظـر إليـه، ولا ينظـر إليـه. يطلـق ديفيـد سـهمه للمـرة الثالثـة وللمـرة الثالثـة ينكـسر السـهم عنـد أقـدام الزعيـم الـذي يطلـق صرخـة أجشّـة، يحوطـه الأن الهنـود المفزوعـون. وعنـد الفجـر يرحـل پنـت إلى إيكيتـوس: إذ تجلـب لـه شـحنةُ حمقـى جديـدة نقـودا مـن بوسـطون. لكـن الطقـس السـيء يمنـع الطـيران. يجوب‌پنـت شـارع "پروسـپيرو"، يـروح ويجـيء عـبر ميـدان 28 يوليـو، يشـتري سـلالا مـن القـش في المرفأ، ويهديهـا للصائـدات في حـي بيلـين، يعـاود شراء السـلال وإهدائهـا، وهكـذا يقـضي النهـار. وفي الليـل، تلـك الليلـة، يقـوم هـو، الـذي لم يعـرف ملهـىً ليليـاً أبـدا، بزيـارة المـاو مـاو. يدخـل كالمسرنـم، يفتّـش عـن منضـدة معزولـة، ويطلـب ثـلاث زجاجـات مـن البـيرة المثلجـة. يُعـرف ذلـك بعدهـا لكـن بعدهـا



t.me/qurssan

دائما ما يكون متأخرا جدا. لا يدرك لغط صف المناضد التي عليها يحتفلون إلى جواره بخطوبة نقيب الحرس المدني فلوريستان أرثي على الكونتامانينا[7] صوفيا لورين. ليس اسمها الحقيقي. فاسمها في الواقع ماريتا موري. لكن زبائن الماو ماو المتنهّدين، يعرفونها أكثر باسم تلك الإيطالية التي تُرجف صالة المسرح وتُلوِّث بالمنيّ قاعات قصر الحمراء. كانت صوفيا لورين قد استقرت على أن تسعد مع النقيب. لكن عينيها الواسعتين لامرأة عشرينية تتبينان ديفيد پنت في الغبش. ومنذ تلك اللحظة تغيب صوفيا موري. لا تعود ماريتا لورين على منضدة الماو ماو تلك ، في حفل خطبتها ذاك، ولا في قصف مدعويها، لا في الماضي ولا في الحاضر. فكل أزمنتها، كل أشكال وجودها، كل ضروب ماضيها، كل ضروب مستقبلها تتركز في الدوامة التي تطوّق الحضور الشارد لذلك الذكَر المعجزة. كما أنها لا تسمع صوت خطيبها يطلبها للرقص، ولا توسُّلات أمها التي تنخسها بكوعها وتأمرها بالعودة إلى صوابها، ولا التوبيخات المفزوعة لأختها، التي تصرخ من جديد بنخب السعادة للخطيبين.

عندئذ تمطر أسماكاً. من فوق سقف نخيل الماو ماو تبدأ في التساقط تلك الأسماك المستطيلة والمخاطية التي يعرفها أهل المكان باسم شوبّو. إيكيتوس مدينة مقامةٌ فوق تربةٍ رقيقة. حيثما جرى الحفر ينبثق الماء. ومرات كثيرة، دون حاجة إلى الحفر يغطي الماءُ بالطين الشوارع، والحدائق، وحدائق البيوت. وليس من الصعب التعثر، حتى في المرفأ، في احتضار الأسماك التي ألقتها موجات المدّ. لكنها لم تمطر شوبّو من قبل أبدا. نعم، أسماك بوكيتشيكوش، بل وأكاراهواسوي، وحتى پالوميتا. لكنها لم تمطر شوبو أبدا. والشوبو، ليس فقط بسبب حجمه، ولونه، وتصرفاته اللاهثة، بل خصوصا بسبب التضاريس المخاطية لرأسه، هو صورة قضيب تكسوه القشور. يحيا في برك طينية. وحين تجفّ هذه، تنتقل أسماك الشوبو عبر الأرض، تسير كيلومترات، تزحف فوق أوراق الشجر الجافة مخلّفة خيطا من



t.me/qurssan

اللعاب المائل للبياض، حتى تجد بيتا جديدا من الماء. تفرز أمعاؤها سائلا مخاطيا يحول التربة إلى درب قابل للعبور تنزلق فوقه. فوق الدروب الضيقة يمكن، مع الحظ، رؤية كتائب من الأسماك، حشود من القضبان تتقدم زاحفة. ودائما ما يبتهج من ينظرون إليها. وإذا ميزها زوج عشاق، يصبح الابتهاج مضاعفا: فرؤية أسماك الشويو المهتاجة يهيجهما، يدفعهما إلى ممارسة الحب الملتاث.

في تلك الليلة المشئومة، أثارت زوبعة من الهواء في بحيرات نائية سحابةً من أسماك الشويو، ونقلتها فوق الغابات، وتركتها تمطر فوق نعاس إيكيتوس. يُظهر القمرُ شوارع تفترشها أسماك الشويو الحائرة التي تحاول يائسة التوجه صوب ضفاف نهر الأمازون. يصيح الناس في الشوارع: "إنها تمطر شويو!"، ويشرعون في الرقص، وفي العناق، في الاختفاء خلف الجدران الطينية، في التهاوي خلف الشجيرات، في الامتزاج بموجاتٍ مضاجعةٍ هائلة. كذلك يُخلي الجنونُ ملهى الماو ماو. وفي وحشة الكباريه، لا يفصلهما إلا سجادةٌ من أسماك الشويو. لا يتبقى سوى صوفيا وديفيد. الساعة الثالثة صباحا. يُعرف ذلك بعدها، لكن بعدها دائما ما يكون متأخرا جدا. عندئذ، للمرة الأولى، يرفع بنت عينيه عن المنضدة. لا يرى شيئا. يستنشق ريح الجنون التي تتسرب من الشقوق وبلا كلمة واحدة ينهضان، ويلتقيان، ويتهاويان متعانقين تحت المناضد.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 21. ذكرياتٌ اعتاد الرقيب موراليس أن يخلِط بينها في شيخوخته

- إنـه مواطـن أمريـكي شـمالي، يـا سـيادة النقيـب - أبلغـه الرقيـب موراليـس في اليـوم التـالي -، لا تسـتطيع حضرتـك أن تُدمِّـره.

- أيّ أمريـكي شـمالي وأي زفـت؟ هـل أناسـك جاهـزون؟ هـذه المـرة احصـل لي عـلى أنـاس بخصيتـين، لا مخصيـين مثـل مـن كانـوا يفتشـون عنـه في نانـاي...

- ليـس فقـط في نانـاي، سـيدي النقيـب. لقـد مشّـطنا حـيّ بيلـين بيتـا بيتـا، وكل الفنـادق غرفـة غرفـة. وقـد عثرنـا عـلى الرجـال الجرينجـو. وقـد نطـق الجميـع ويعترفـون جميعـا بأنهـم مذنبـون.

- أحضره أمامي الآن!

- أحضر من من المذنبين، يا سيدي النقيب؟

- الوحيد، اللعنة.



t.me/qurssan

- إنهـم عديـدون، يـا سـيادة النقيـب. وقـد اعـترف السـتة وتحققنـا مـن أن السـتة كانـوا في مـكان الأحـداث.

- نهض الكابتن آرثي.

- أين هم؟

- في الغرفة المجاورة، يا سيادة النقيب.

هنـاك كان الجرينجـو السـتة المضروبـين، المركولـين، الميتـين مـن النعاس، لـنر الآن فيـم تفيدهـم قنصلياتهـم اللعينـة، ونجـوم علمهـم الـ 48.

- هي 52 نجمة، يا سيدي النقيب.

- فلتكن السماء برمتها، بكل نجومها، وأقمارها، اللعنة.

تقـدم صـوب المجموعـة التـي أسـينت معاملتهـا وبالإنجليزيـة، بإنجليزيـة متعـثرة، بمخـارج حـروف أنكاشـية[72] لا تخطئهـا الأذن، ألقـى في وجوههـم:

- خو إيز پن؟

- *Je réclame la présence de mon consul...*

- *Ich habe die Rechte und meiner seite deshalb.*

- *la raison de mon voyage est mon travail de botaniste...*

- *You do not have the right of treating me like this.*

- *Je ne suis pas Pent, je suis belge.*

- خو إيز پن، اللعنة؟

بلغت صيحة النقيب آرثي ظلمات العنبر.

- خو إيز پن، يا أبناء العاهرة الكبرى؟



t.me/qurssan

- لا يُدعى أيٌّ منهم پنت، يا سيدي النقيب. أنا نفسي راجعت جوازات سفرهم وكل شيء مضبوط، إلاّ إذا قررت سيادتك شيئا آخر.

- أعتذر لهم، إدعهم إلى زجاجة بيرة و وأطلق سراحهم. ثم تعال إلى مكتبي.

استقبله النقيب وساقاه منفرجتان ويداه في خصره. رأى الرقيب موراليس في عينيه النظرة التي رآه ينظرها يوم أن أمر في لوريجانتشو بأن يتمدد نزلاء الليمان/، كي يجري فصيلٌ من الحراس الجمهوريين فوق ظهور السجناء المرعوبين حتى يخلّفوا أرضا من اللحم الذي يئن.

- پنت الحقيقي تحول إلى دخان، يا سيدي النقيب.

- وحيدا؟

- في صحبة، يا سيدي النقيب. وأستطيع أن أؤكد لسيادتك أنهم لم يعودوا في إيكيتوس.

- لابد أنهم في مكانٍ ما. إعثر عليهم!

لكنهم لم يعثروا عليهم. لا فيما تبقى من ذلك الأسبوع ولا في الأسابيع التالية. ولا في مارس، حين توقفت الأمطار التي تعوق المسيرات، وانخفضت الفيضانات التي تكسر رفاصات لنشات الدورية. جرى تعميم علاماته المميزة. إسم الأب: پنت. إسم الأم: مجهول. إسمه: جون ديفيد. طول القامة: بين 180 و 190 سم. الشعر: أشقر أجعد. العينان: زرقاوان أو خضراوان، واسعتان. "وله رموش كثيفة"، صرخ الرقيب موراليس. علامات مميزة خاصة: ثلاث شامات في العنق، يطلق شاربه احيانا. الشفتان، ممتلئتان، "متوردتان كإست خنزير"، ظل موراليس يصيح. مطلوب: حيا أو ميتا. ابتسم موراليس. لم يكن البحث عن حيّ، كان البحث عن ميت. لكن ما لا يمكن أن يظهر


t.me/qurssan

في التقارير، لكنه يظهر في ذاكرة من رأوه كان هيئته المُدوَّخة، عيناه الموهنتين، رجفة الدفء التي يثيرها تأمله.

في يونيو بعثت قيادة إيكيتوس مذكرةً رسمية إلى رئاسة بحرية الحرب النهرية للبيرو. تطالبهم أن يبحثوا بكل الوسائل عن جانح خطير يتظاهر بأنه أمريكيٌّ شمالي وبالتواطؤ مع عناصر تشيلية وإكوادورية يُعرِّضُ الأمنَ القومي للخطر. فقامت سفن المدفعية، وسفن الدورية، ومشاة البحرية بسدّ كل فوهات الأنهار. عبثا.

- النقيب آرثي: إحتراما لرغباتك ودوافعك المشروعة لم أشأ تعطيل البحث عن المطلوب، لكنك ستفهم أن كل العاملين لدينا لا يمكن أن يظلوا مكرّسين حصريا لهذه المطاردة. وقد أبلغني القائد العام للقوات الجوية المتمركزة في نهر الأمازون هذا الصباح، رسميا، أن أية طائرةٍ لن تنفقُ ساعةَ طيرانٍ أخرى. في رأيه أن الفارين خارج البلاد.

ضرب النقيب فلوريستان كعبيه أمام المقدم بالنتين تويستا، ورفع يده حتى الكاب، وأدّى التحية:

- في هذه الحالة أطلب إحالتي فورا إلى الاستيداع، يا سيدي المقدم.

- أُعلِمك، يا آرثي، أن القيادة التي أتولاها قد فعلت أكثر مما هو مسموح لنا عمله.

بدا أن النقيب آرثي يستسلم لكن صوته تصلّب بعدها:

- سأبحث عنه أنا، يا سيدي المقدم.

صافحه المقدم تويستا. أدى النقيب آرثي التحية من جديد، وخبط كعبيه، وخرج. وهادئا، هادئا تماما، دون أن ينظر إلى من يحاولون ألاّ ينظروا إليه، عاد إلى مكتبه. ودون تعجل، متذكرا يوم أن زرّر للمرة الأولى، يوم تخرّجه، السترة الخضراء لزي العريف، فك أزرار القميص الذي يحمل الرتبة العسكرية. ومتذكرا، أخرج من حقيبةٍ



t.me/qurssan

سـوداء بنطلونـا أزرق وقميصـا أصفـر فاتحـا بأقـلام حمـراء. يخـرج إلى الشـمس الغاربـة. لا يراهـا. يـرى زوارق تمـر في نهـر الأمـازون، أمـام "فنـدق السـيّاح". لا يراهـا. يـرى صرّافـا ذا وجـهٍ ممصـوصٍ صرف لـه في بعـض المـرات شـيكات في بانكـو دى كريديتـو [بنـك الائتـمان]. لا يـراه. لا يـدري متـى وجـد نفسـه جالسـا عـلى تلـك المنضـدة، في ذلـك البـار، أمـام زجاجـة كتـي سـارك في منتصفهـا وأخـرى فارغـة. رأت عينـاه:

*Berry Bros & Rudd Ltd. Established in the /17/ Century 3rd. St. James' Street, London, SW 1.*

شرب لثلاثـة أسـابيع. النقيـب لا يسـكر، بـل يـشرب. ومـع بدايـة يوليـو، لا نعـرف شـيئا، يبـدو أن الرقيـب موراليـس، لا نعـرف شـيئا، قـد أقنعـه، لا نعـرف شـيئا، فطلـب الحسـاب.

- الحسـاب مدفـوع، يـا سـيدي النقيـب - قـال لـه صاحـب الخـمارة باحـترام.

- كم الساعة؟ - سأل لمجرّد السؤال.

- قاربت على الثالثة، يا سيدي النقيب - أجاب صاحب الخمارة.

لـن يعـاودَ الـشربَ مطلقـا طـوال عمـره. يُشـاهَدُ سـائرا عنـد آخـر ناصيـة لشـارع سـارختنتو لوريـس. كئيبـا، نحيـلا، عاطفيـا. يـراه أنـاس طريق لا أبينيـدا ثيركـولار في "دابيـلاس بـار". لا يدخـل البـارات إلاّ للتدخـين. ودائمـا مـا يطلـب مـن الموسـيقيين "وداعـا يـا فتيـان". وفي دابيـلاس بـار، عندمـا يرونـه يضعـون ذلـك التانجـو في صنـدوق الموسـيقى، وداعـا، يـا فتيـان، يـا رفـاق حيـاتي، أيهـا الشـهود الأحبـاء لتلـك الأوقـات، مـن نصيبـي اليـوم أن أقـوم بالانسـحاب، يجـب أن أبتعـد عـن فتـاتي الطيبـة. يشـاهَدُ وهـو يختلـط بقـوم مشـبوهين، فرؤسـاء مهـربي المخـدرات هـم بعـض أكـثر النـاس تهذيبـا في إيكيتـوس. ملـوك تهريـب المخـدرات هـم ملـوكٌ، إذن، يـا موراليـس. يشـاهَدُ مـع ملـوك تهريـب المخـدرات. يشـاهَدُ في



t.me/qurssan

لنشـاتٍ فاخـرة فائقـة السرعـة، ففـي تلـك الـزوارق وحدهـا يتـم نقـل أنقـى كوكايـن، ذلـك الـذي يسـافر إلى كولومبيـا ومـن هنـاك إلى الولايـات المتحـدة. يدخّـنُ مثـل حريـق. الآن نعـم، يـا موراليـس، الآن نعـم، اللعنـة، نقـودي مـن الكـثرة بحيـث لم أعـد أدري كـم مـن النقـود أملـك. نملـك، يـا سـيدي النقيـب، قـال موراليـس، وهـو يقـرأ

*distilled and bottled in Scotland under British Government Supervision.*

- لنتعاقد مع أناسٍ أكثر لو كان ذلك ضروريا.

- لدينا بالفعل خمسون قصاص أثر، يا سيدي النقيب.

- تعاقد مع خمسين آخرين.

- لقـد مشّـطنا فعـلا كل أنحـاء كونتامانـا، وريوخـا، وتاراپوتـو... ونمشـط الآن منطقـة التراپيثيـو، حتـى ليتيثيـا.

- تتبقى پوكالـپا.

خمســون رجـلا آخـرون عـدد كبـير، فكـر موراليـس. سـخطي كبـير، إذلالي كبـير، صوفيـاي أكـثر مـن كبـيرة، فكـر النقيـب آرثي.

- وتتبقى مادرى دى ديوس. وغابات كوثكو، وأياكوتشو، وخونين.

الأم العاهرة، لن تكفي حياتي!، فكر موراليس.

لـدي حيـاة، لـدي حيـوات كثـيرة، لـدي حيـوات لا نهائيـة للبحـث، اللعنـة، فكـر النقيـب آرثي.

- في غابــة أياكوتشــو اللعينــة تلــك، يمكــن لأي شــخص أن يختبــيء. تعاقـد مـع خمسـين آخريـن ممـن يتكلمـون الكتشـوا. وممـن يعرفـون عن ظهـر قلـب كل الشـعاب. الرتبـة العسـكرية هـي الرتبـة، فكـر موراليـس. وعـاودت عينـاه قـراءة



t.me/qurssan

*distilled and bottled in Scotland under British Government Supervision.*

النقيـب معـه حـق، خمسـون رجـلا شيء قليـل. أمـا صيـادوه، مائـة وخمسـون وحشـا مسـلحا ببنـادق وينشسـترز 44، أغلبهـم مجرمـون حقـا وفعـلا، فقـد تدفقـوا عـبر الأنهـار التـي تخطّهـا الـزوارق، وأفزعـوا كل البيـوت، وحطمـوا الأبـواب، واسـتجوبوا النسـاء والأطفـال عـلى طـول نهـر أونـين بكاملـه.، وعـبروا إلى الضفـة الأخـرى لنهـر الأوكايـالي، وكادوا يلمسـون مجـرى نهـر الأوروبامبـا، نصبـوا خيامهـم تلـك الليلـة في أتالايـا، في موقـع الـحرس المـدني، الـذي كانـت قناديلـه ترسـم خطـوطَ الميـدان الموحـل بالأمطـار، كان ديسـمبر قـد حـل

*by appointment of Her Majesty the Queen, Wine and Spirit Merchandise.*

- لكـن، يـا سـيدي النقيـب: لـو كنـتَ قـد قلـتَ أنهـم يبحثـون عـن الجرينجـو پنـت، لـو كنـت قـد قلـت لي مـن قبـل! - تنهـد العريـف رينالدو كاماتشـو -. هنـا حتـى السـلاحف تعـرف أن ذلـك الجرينجيتـو يستأسِـدُ عـلى ضيعـةٍ ضخمـة، هاهنـا، عنـد المنعطـف، عـلى الحافـة اليـسرى لنهـر التامبـو...!

- فلنخرج على الفور! - صرخ النقيب أرثي.

- السـاعة تقـارب الثالثـة. مـن الأفضـل أن ننتظـر الـشروق. فـلا الجرينجـو ولا نسـاؤه يفكـرون في الرحيـل، أؤكـد لـك.

نظر إليهم بحسد.

- يالـه مـن حـظٍ مـن أجـل المصائـب، يـا سـيدي النقيـب! وددتُ لـو ألتقـي بالنسـاء الـلائي سـتصادفهن غـدا...

- ليس غدا، الآن على الفور!



t.me/qurssan

ثمة أيام يبزغ فيها الشروق مبكرا. الأشجار الأولى التي ترفع رأسها فوق الأسود المخضرّ، بين الوردي المخضر، خلف الأحمر المخضر هي ثلاث شجرات لوبونا تتاخم مدخل أراضي بنت. وقممها التي ما زالت مشعثة تمشط الضباب. أم أن الضباب يمشط قممها المشعثة. تحت أول الندى تمر زوارقٌ مثيرةً فزع طيور البشروش، محطمةً أغصانا ميتة، وصخب قردة وببغاوات. يستيقظ هنود الكامبا، ويحاولون الإنذار. أم أنهم تمكنوا من الإنذار ولم يشأ الجرينجو الخروج. في كبريائه أو في هدوئه لم يكن ثمة مكانٌ لاحتمال الفرار. كان ضخما. لم يروا أبدا بيتا بهذه الضخامة. اللعنة، كلُ الدُورِ تحت سقفٍ واحد. لم يتخيلوا أبدا مقاومةً ضارية إلى هذا الحد، كل هؤلاء الهنود المندفعين إلى الموت، اللعنة، يواجهون بالسهام زخات طلقاتنا، لمجرد الدفاع عن ابن القحبة، عن الجرينجو الخرائي الذي يستغلهم وبالأحرى لم يتخيلوا أن يجدوه حيا تحت حطام مدينته. وكان الخندق الأخير، خط دفاعه الأخير هو هاتيك الهنديات الصغيرات اللائي كن تحتضنّ فوهة بنادقنا الوينشستر، وتسقطن وأحشاؤهن تتناثر، صارخات، ديفيد، ديفيد، اللعنة. وبالأحرى لم يتخيلوا أن ذلك الجرينجو المخنّث سيقاوم كل هذا القدر من ضربات كعوب البنادق دون أن يصرخ، كل هذا القدر من شد الخصيتين دون أن يموت، كل هذه الأحذية العسكرية في وجه الدمية، كل هذا القدر من ضربات السونكي في ذلك الصدر الذي لوحته الشمس والذي يبدو صدرَ هنديٍ يُرقصه سيدي النقيب.

في شيخوخته، حين أخذت تختلط منه الذكريات، وصار يخلطُ الجليدَ بالشمس والشمس بشبيه، في قرية هواماليس حيث مات رقيب الحرس المدني ماركو سيميون موراليس، قال:

- الحقيقة، يا سيدي الكاتب، يا دكتور، أن أسوأ ما صنعت في أعوام خدمتي الثلاثين أنني سحقتُ وجهَ ذلك الجرينجو، سحقت جسده، جعلتُه عبرةً وهو الذي، أقسم على ذلك، ورغم أنك قد تتهمني



t.me/qurssan

بالخداع، كان صورة الرب ذاتها. والغريب: أنني من كل الجسد المحطّم للجرينجيتو لا أستطيع أن أتذكر سوى ذراعه. آه، أعرف لماذا: كانت به ساعة ذهبية ضخمة، لم أر ابدا ساعة بهذه الضخامة، وذهبية، أذكر أن تلك الساعة الذهبية التي أظهرها ذراعه عند تحريكه كانت تشير إلى تمام الثالثة صباحا... ولا أذكر كيف كان اسمها. انتزعتْها، على ما أظن، خطيبة واحد من نقبائي. أما هي فأتذكرها. وجدناها بجوار الجرينجو، ميتة. تماما مثل هندية مهدّدة كانت قد غرست سهما مسموما في بطنها. سحبتُ صفيحة بنزين وبدأت أرشُّ حواجز الجريد. أخذت أرش وأرش البيت المطوّق بعويل الأطفال وفزع الطيور. أخرجت عود ثقاب. قف هناك!، أمرني سيدي النقيب، قبلها أريد أن أفتش كل دار هذا المخنث!... ومصوبين بنادقنا إلى لا أحد، دخلنا الدار. لا أدري كم غرفة، وكم خُصًا، وكم حارة، وكم ميدانا صغيرا وطأناها في العتمة، حطمناها تحت تلك السماء الزنك. وفي الخلفية، وجدنا غرفة، غرفة هائلة مفروشة بمرتبةٍ لم أر مثلها ولن أري أبدا، مرتبة ضخمة محشوة بريش أعناق طيور الجواكامايو، ذات ألوان متحدِّية. وخلفها اكتشفنا عددا هائلا من الطرود. صرخ أحدهم: "هنا تكمن جائزة تعبنا!" فقال سيدي النقيب: "اقتسموا كل البضاعة!" لم تكن بضاعة، يا سيدي الكاتب. يا دكتور: كانت تلك الحُزم تحتوي على بنادق، وقنابل يدوية، وأحذية ميدان، ومدافع رشاشة، وذخائر. "سيدي النقيب، يبدو هذا متجر سلاح!"، أعلنتُ. فقال سيدي النقيب: " لا تكن ساذجا، لقد اكتشفنا بالصدفة مستودعات مقاتلي العصابات أولئك". بالصدفة؟، يا سيدي الكاتب. ضع على هذا إمضاءَ الرقيب موراليس: لم تنته فرقُ مقاتلي العصابات حين قتلت القواتُ آخرَ الجرحى، ولا حين قبضنا على ذلك الوغد الذي هرب من معتقل السيبا، ولا حين ألقينا من طائرةٍ شخصا يُدعى بيلاندو، ولا حين جرجرنا بيخار في أياكوتشو وقد نهشته الليشمانيا[73]. ضع على هذا إمضائي: انتهت فرق مقاتلي العصابات في نفسِ نفس اللحظة التي



t.me/qurssan

أمطرت فيها الأسماك من بين نخيل ملهى الماو ماو، تلك الليلة، في إيكيتوس! مازلت أرى الساعة. كانت الثالثة: الساعة الوحيدة التي بدا أن تلك الساعة الذهبية الضخمة تعرفها.

- خسارة حقيقية! - قاطعني الصوت المصدوم للبقرة المقدسة -. للحظةٍ، أعترف، حسبتني إزاء قصة ممتازة، إزاء نصٍ لعِبيّ. شيء كان يمكن أيضا أن يبهج قراءنا. كان يبدو أن كل شيء يشير، أكرر، إلى أن الحكاية عبارةٌ عن لعبٍ لذيذ بحسيةٍ مطلقة العنان... وشيءٍ أعتبره أكثر أهمية: رفضا للتقاليد المتعصبة لنوع معين من الرواية الأمريكية اللاتينية التي تعجّ بشخصيات الجرينجو الشريرة، والمستغِلة، والمتعسِّفة إلى حد الكاريكاتور، سيبدو پنت باعتباره الأمريكي الشمالي الذي بدل الاستغلال يحمل الحضارة إلى الغابة. لكن، ماذا تفعل به؟ تحوّله إلى شريكٍ متواطيء لفرق حرب العصابات الأمريكية اللاتينية، أو بالأحرى تقتله...

لم أكن أسمعه. لأن المجهولةَ واصلت التقدم. جمال وجهها مثل كل ما هو سريع الزوال وما هو جميل، كان في آنٍ واحد هشا، ولا شفاء منه. من أجل من أتت؟ عمّن كانت تبحث الزرقةُ المجنونة لنظراتها الملتهفة؟ أدارت وجهها: فوضى نصفُ مطرِ شعرِها الأسود، حين أخفاه، ببورتريهِ جانبي لا يوصف. فجأة أعماني وجهها. ومثلما يتقدم سخطُ الانتفاضة إلى مركز مدينةٍ، مشى صوبي، دون النظر إليّ، ذلك اللغزُ الذي يبعث فيّ اليأس. ضجيج المطعم وزبائنه، الميترات والجرسونات الذين أخذوا يتباطأون ليتأملوها، المجموعات التي تدخل، الأزواج الذين يخرجون، كلهم وكل شيء، فيما عداها، اختفوا. وأخذَت كلها تلتمع. فتمردَت عليّ الرغبة، الرغبات، حشد رغباتي: عطشُ أن ألمسها، أعتصرها، أقبلها، ألعقها، أهدهدها، أحلمها، أسيء معاملتها، أتمتع بها، أحبها...



t.me/qurssan

## 22. العشاءُ الاحتفالي الذي تقيمه السيدة فرنثيسكا دى ثنتناريو على شرَفِ زوجها

كانت أوراق شجرة ستيكو[58] تخطُّ بالظل وجه فرنثيسكا الذي تغمره الشمس. "أي أنك ستسافر غدا، يا نيكولاس؟ - سألته بحنينٍ متوقع. ظلّلت ابتسامتَها أوراقُ شجر أعرض -. إذن سأعدُّ لك عشاءا رائعا"، قالت مُشيحةً بوجهها. ودائما دون أن تنظر إليه: " ليس هناك غدٌ، لا نوجد إلاّ اليوم، لنعش...!" هبطت جريا إلى الشارع، وعادت محمَّلةً بسلةٍ من الأنبذة، وسمك موسي، وعجائن الفطائر، والخضروات، وأنواع لحم الخنزير المقدّد، والبلح، والمزيد من الأنبذة، والزهور، زهورٍ كثيرة، وتماسيح تتظاهر بالنوم، وأغصان خطرة كالسهام مموَّهة بين خمائل الضفة. "هل تحب صغار أسماك الأنقليس؟ - سألت فرنثيسكا -. انظر إلى هذه كأنها رسوم مصغرة من الأنقليس، مفضضة، ونحيفة مثل الشعيرية. تُقلى في زيت يغلي، مع الثوم،



t.me/qurssan

وتُقـدّم في أطبـاق خشـبية، وجدُتهـا في مطبـخ البروفيسـور. لمـا كان كل شيء هنـا يمجّـد الحضـارة الهللينيــة - ضحكـت فرنثيسـكا -، فـلا شـك أن عوليـس كان يـأكل أسـماك أنقليـس قبـل المعـارك". كـرر نيكـولاس أن المعركـة الحقيقيـة لا يمكـن أن يشـنها الشـعب إلاّ إذا كان عـلى رأسـه ذراعـه المسـلحة: البروليتاريـا الواعيـة. أمسـكته فرنثيسـكا غـير الواعيـة مـن ذراعـه المنزوعـة السـلاح و أخذتـه إلى المطبـخ. وهنـاك أوقفتـه وظهـره إلى البلكونـة الصغـيرة، وابتعـدت بضـع خطـوات، دائمـا في مواجهتـه ودائمـا تمـزح، وبمنشـفةٍ مطويـة عـلى ذراعهـا وإيمـاءات جرسـون أرسـتقراطي، فخّمـت صوتهـا: "قائمـة طعـام العشـاء الاحتفـالي الـذي تقدمـه دونيـا[74] فرنثيسـكا دى ثنتناريـو عـلى شرف زوجهـا النبيـل دون نيكـولاس ثنتناريـو، قومنـدان الجيـش الثـوري للبـيرو: أنقليـس عـلى الطريقـة الاسبانية، سـمك مـوسى مشـوي بالبطاطـس المسـلوقة. الحلـو: سـلطة برتقـال مخفوقـة مـع الجـبن الطـازج. النبيـذ: سانسـير مثلـج جيـدا. شريـط الخلفيـة، للسـمع وللذكـرى: لاس باخيانـاس لفيللالوبـوس التـي تقافـزت درافيلهـا أزواجـا، وهـي تغـطُّ فـوق المـاء المائـل للخضرة، راسـمة أقواسـا رماديـة تلتمـع بالشـمس التـي أظلمـت لأن هنـاك لحظـات، يكـون فيهـا ابتـذال الضـوء الكهربـائي مهينـا، أليـس كذلـك، يانيكـولاس؟" أشـعلت فرنثيسـكا شـموعا سـميكة مزينـة بشرائـط مـن الـورق المفضـض. وكي يقـاوم دافـعَ أن يأخذهـا بـين ذراعيـه وحتـى لا ينفعـل أكـثر، تذكـر أن الحـرب الإمبرياليـة تؤكـد عمليـة تحـوّل الرأسـمالية الاحتكاريـة إلى رأسـمالية دولـة إحتكاريـة. نظرت إليـه بحـب، بتعاطـف، بعذوبـة. "نيكـولاس لـن يعـود - قـال لهـا لاينيـث - : هـو يعـرف جيـدا أنـه لـن يعـود". قدمـت فرنثيسـكا، بيديـن ترتعشـان بصـورة غـير محسوسـة، كأسـين مـن نبيـذ سانسـير. "نخـب انتصـار الثـورة، يـا نيكـولاس، نخـب تحريـر البـيرو، نخبـك، نخـب النـصر!" وهـن صوتهـا: "وإذا لم نلتـق ثانيـة، أريـدك أن تعـرف أننـي فخـورةٌ وسـعيدة بـأن كنـت زوجتـك". يقـترب حاجـز الجـذوع بصـورة خطـرة مـن الطـوف، يجـدّف باتجـاه الضفـة، لكـن التيـار يجذبـه تحـت الـبروق، لا يدعـه المطـر يـرى



t.me/qurssan

فرنثيسكا التي تنهض لتضع شيئا في الجراموفون: "لا أدري إن كنت تعرف "السوناتا للكمان والبيانو لسيزار فرانك"". "لا - قال هو -، أنا لم أتجاوز بينجلو[75]". "هذه التي تسمعها هي سوناتا فينتوي الشهيرة جدا، النشيد الوطني لغراميات سوان وأوديت، هل تتذكر ما قرأته لك من بروست...؟" ودون أن تنهي سيجارتها، أشعلت فرنثيسكا أخرى وقالت دون أن ترفع رأسها: "نيكولاس، هل كنتَ تعرف أنني انخرطتُ في الحركة من أجلك؟ كنت متعاطفةً منذ أن دخلت الجامعة، لكن إضرابك عن الطعام جعلني أحسم. جميع الطلاب كنا معجبين ببطولتك، ونتابع يوما بيوم تفاصيل إضرابك، كنا نعرف أنك تموت ولن تتراجع". رآها بالغة الجمال، بالغة التأهب بحيث شعر بإلحاح الرغبة في هدهدتها، لكنه لم يجرؤ: كان يعرف أنه قادر على مواجهة كل شيء باستثناء لمس هذا الوجه، هذا الجسد، هاتين اليدين اللتين تناديانه. جلست فرنثيسكا على الأرض، في مواجهته: "هل انتابك الخوف في لحظة معينة؟" "كلنا ينتابنا الخوف، لكن الخبرة تعلمنا أن نهزمه؛ الخبرة واليقين بأن قضيتنا عادلة وسخية". وهنا يكمن تفوقنا في مواجهة العدو الذي كان يمطر ويمطر دون توقف، بقطرات سمينة، وثقيلة ترتطم بجسده العاري، حين تمطر تختفي كل حيوانات الجبل، تحتمي، إلاّ هذه الطيور الطويلة السيقان الملعونة التي لا يدري أحد لماذا تمرُّ وتفتش تحت المطر دون أن تُسقطها قطرة واحدة، تطن حوله وهي تنقره وتُدميه. "ارتكبت خطأً، يا فرنثيسكا، ظننتُ أن الإضراب عن الطعام سيكون قصيرا ووقَّعت ثلاث رسائل أعفي فيها الأطباء من مسئولية موتي. رفضت أن يحقنوني بالمحلول. وبعد عشرين يوما نقلوني إلى مستشفى "2 مايو"، بين الجانحين العاديين للسجن". تذكر أولئك السجناء الستة. بالنسبة لهم كان مجرد تشارلي، ليس جانحا، ليس رجلا، بل واحدا من أولئك المحتالين الذين يقعون في السجن عن طريق الخطأ، بصدفة حظ سيء. كان يسمعهم يتناقشون من سرير إلى سرير: "منذ زمن ليس لدينا امرأة، متى نلوط بهذا التشارلي؟" أجاب


t.me/qurssan

كشجاع. كان الأمر أسوأ. حاول إقناعهم. كان الأمر أسوأ. ومعتقدين أن إضرابه عن الطعام كان حيلة، كانوا يسخرون، يعذبونه بتقديم الطعام له: كل شيئا، أيها الخصي، لا أحد يراك. وهو، أبدا. وبعد 8 أيام، حين تأكدوا أن الإضراب حقيقي، بدأ الأشرار يتغيرون. كانوا يسندونه من ذراعيه حين يذهب للتبول. وبعدها لم يعد يتبول. وتغيّروا تماما حين تولّى محامو الحزب الدفاع عنهم أيضا. وكان الجانحون، وقد صاروا أصدقاءه، يسبّون دون سبب المضربين عن الطعام الذين جيء بهم إلى العنبر المجاور: "لماذا تأكلون خفية، يا مخنثين؟" "الإضراب عن الطعام يُنفّذ مثلما يفعل هذا الرجل، إنه مثال لكم جميعا، أيها الأقذار...!" ويوم أن غادر المستشفى أخذوه محمولا حتى الممر وطالبوه بأن يأخذوا صورة معه. شريط الخلفية للسمع وللذكرى: لاس باخياناس لفيللالوبوس خارجةً وداخلة إلى الماء أزواجا بظهور لامعة، في أقواس رمادية تنبثق من النهر وتضوي بالشمس.



t.me/qurssan

# 23. الحفل الراقص الحقيقي لدوق آلينسون

دلفتُ إلى أي مقهى، بحثتُ عن طاولة منعزلة، وطلبتُ كوب بيرة. كانت الساعة العاشرة صباحا. على الطاولة المجاورة، كانت فتاة تقرأ. تلصّصتُ رغما عني. "التحليل النفسي للجماهير عند الفاشية"، "نقد برنامج جوتا"، "خطّتا الاشتراكية الديموقراطية في الثورة البروليتارية". وغير عابئةٍ بقدح الشيكولاتة التي تبرد، كانت تأخذ ملاحظات في كراسة ذات مربعات. في المرآة رأيتُ ضيقاً غير محدد. فتلك الشابة، تلك الكتب، ذكّرتني بالصراع الذي سرعان ما سيواجهه رفاقي. "سيواجهه"، فكرت، بدل "سنواجهه"، ومُعذّبا قلت بصوت عال: "سنواجهه"، لكنني شعرت في كلماتي بقلق الذين، كي يُخفوا الفزع الذي تثيره فيهم الأماكن الموحشة، يكلمون أنفسهم. "بعد هذا ستذهب إلى الجبل معي"، قال لي راميرو. "نعم، سأذهب"، صرخت بالقشتالية. نظرت إليّ الفتاة مستغربة. هل سأذهب؟ شعرت بأن جسدي كله يتمرد على



t.me/qurssan

فكرة الرحيل. رفض لحمي، وعظامي، ودمي»، ونَفَسي، الانفصال عن لحم، وعظام، ودم، ونَفَس ماري كلير. لا: لم أُرِد أن أموت. للمرة الأولى رأيتُ أنني لم أكن ذاهبا إلى المعركة بل إلى الموت وبوضوح وحشي رأيت مسبقا مهاوي الجبال المروية بالجثث، ودخان الانفجارات التي تجعل الوحوش تلوذ بالفرار. وشعرت في عظامي بالقدَرية البطولية التي تنطوي عليها وعودنا. يمكن لراميرو، ونيكولاس، ولاينيث أن يموتوا في العيون الممتلئة لتلك "الوعود". لكنني لم أعد قادرا على استبدال امتلاء الحاضر، العيون الحاضرة لماري كلير، بوجه المستقبل الذي بلا عيون. ليس للموتى زوجٌ. أنا لي. كانت لدي امرأة حية، دافئة، متشوقة، تنتظرني. كنتُ زوجا من حيوانين جميلين يمكن أن ينظرا إلى الشمس، ويأكلا، ويشربا، ويتضاجعا، وينجبا أطفالا، ويرياهم يكبرون ويصبحون جميلين أيضا، امتلاءين يمكن أن يشيخا دون أن يشيخا، ويتحابا دوما. بلغت بهجتي بكوني حيا حدّ الفضيحة. نعم: وددتُ أن أعيش. وددت أن أوجد ويكون لي اسم ولقب. رفضت أن أظل شبحاً سريا، أن أناضل بين الأشباح ضد الظلمة. رفضتُ أن أكون اليوم سانتياجو، وغدا آنخل، وبعدها خوسيه كارلوس، ثم من يدري ماذا. نعم، نعم، نعم! - قلت لنفسي -. سأكون من أنا، من أنا حقاً! سيكون لي جسدٌ واقعي، وامرأة واقعية، وحياة واقعية، دون أقنعة، ودون مخاوف، ودون فخاخ! تقتُ إلى استعادة وجهي. كان للبشر دوما وجه. كان للمجتمعات وجه، كل المجتمعات، في كل العصور. في المجتمعات البدائية كان وجه الزعماء الطغاة، الزعماء المحليين، الزعماء الإنكا، الزعماء الشامانات. الرب نفسه كان له وجه. قال يهوه لموسى: "لا تقدر أن ترى وجهي. لأن الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الرب هوذا عندي مكان. فتقف على الصخرة. ويكون متى أجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز. ثم أرفع يدي فتنظر ورائي. وأما وجهي فلا يُرى". كان من المستحيل رؤيته، لكن كان للرب وجه! وكان وجه الموناركية هو وجه الملوك. لماذا قبضوا على لويس السادس عشر؟ لأن



t.me/qurssan

صاحب خانٍ تعرَّف عليه. وكيف تعرَّف عليه؟ لأنهم دفعوا له بعملة ذهبية تبين صورته. في كل العصور كان وجه السلطة مرئيا. ماذا تكون عمارة، ورسم، وموسيقى تلك الأحقاب، إن لم تكن صروحا، ومدائح أبدعت تكريما لوجوه السلطة: لملوكٍ، وأمراء، وملكات محسوسين؟ كان للسلطة دوما وجه يمكن حبه أو كرهه، مدحه أو سبّه، التضرع إليه أو إعدامه بالمقصلة. ومع جنون الرأسمالية ولد المجتمع بلا وجه. بالنسبة للينين كانت آخر مراحل الرأسمالية هي الإمبريالية، لكن لا، آخر مراحل الرأسمالية هي الفصام، الانفصال عن الواقع. عند نهايات القرن التاسع عشر - فكرتُ - وقع حدثٌ غير مسبوق: اختفى وجه الرأسمالية متنكرا خلف قناع الشركات المساهمة. كان شذوذ عصرنا هو ظهور الشركات المساهمة. بفضل ظلمات الشركات المساهمة يمارس البشرُ السلطةَ دون عقابٍ لأول مرة في التاريخ. فرؤساء الجمهوريات ليسوا سوى دُمى، أقنعة: ووراءهم يكمنُ الوجهُ بلا وجهٍ للشركات العابرة للقوميات. اليوم يمارس السلطة بشرٌ لن نعرف وجوههم أبدا: إنهم المالكون اللامرئيون، بشر الشركات المتعددة الجنسية الملغزون بلا وجه. كنت قد ناقشت ذلك مع لاينيث.

- لكن الأمر الفظيع، يا لاينيث، أننا نحن الثوريون أيضا، طوال المعركة، ومضطرين بسبب المعركة، قد صرنا بلا وجه.

- في الوقت الراهن، يا سانتياجو! في الوقت الراهن فقط. لأن إظهار وجوهنا سيعني تسليم أنفسنا للموت. ربما من المؤكد أننا لا وجه لنا. لكننا قد أخفيناه. أما وجههم فقد اختفى. وحين يجبر النضال ذاك الجسد العليل على إظهار سحنته، ستكون سحنة جثة متعفنة. هم موتى. ونحن أحياء. هذا هو الفرق!

- لا، يا أخي؛ لكي تبقى الثورة على قيد الحياة يجب أن تُظهر نفسها. ففي المعركة الوحشية للأشباح ضد الأشباح، في الظلمات، يمكن للواحد أن يصبح الآخرَ. أن أكون أنا، مثلا، المالكَ السري لشركة عابرة



t.me/qurssan

للقوميات، أو أن تكون أنت، يا لاينيث، بدل كونك عضوا في منظمة سرية ثورية، عميلا للسي أي إيه. ألم يكن الأب جابون، الذي أشعل شرارة انتفاضة عام 1905، عميلا للأوخرانا، للشرطة القيصرية...؟

- المقاتلون، الثوريون، حتى مع قبول فرضيتك بأننا قد تحولنا إلى أشباح، وهي فرضية لن أدحضها الآن، الثوريون هم الضوء لأنهم المستقبل. المستقبل هو وجه الثوريين الذين نجد أنفسنا مضطرين بشكل مؤقت للقتال في الظلمة، في هذا الحاضر الذي أصبح ينتمي إلى الماضي...

- هذه مجرد عبارة، يا لاينيث. لسنا مُلاّك المستقبل. فذات يوم بالنسبة لبشر المستقبل، سنكون بشر الماضي. سنكون عجائز لم نعرف كيف نغيّر الحياة! المستقبل وهمٌ خطير.

- يمكنني أيضا القول بأن كل ما تقوله مجرد عبارة. لكنني لا أقول ذلك. أقول فقط أنني لا أظن من الضروري إثارة كل هذه الحجج لتبرير فعلٍ أو غياب فعل...

- تريد أن تقول فراراً من الخدمة...؟

- أنا لا اقول هذا، يا سانتياجو. لقد قلته أنت لتوك. سمّيته أنت لتوك. وتسميته تعني خلقه، أليس كذلك...؟ إعطاء إسم للفرار من الخدمة يعني البدء في إعطائه حياة... على أية حال، أكرر لك، أعتقد أنك لست بحاجة إلى تبرير شيء على الإطلاق...

- ماري كلير! - صرخت في المرأة الشابة التي فتحت لي الباب -. ماري كلير، أريدك أن تكوني دوما ماري كلير، كما أنني، منذ هذه اللحظة، سأكون إلى الأبد سانتياجو...!

تعلّقت برقبتي كأنها تخفي شهقة ولا تستطيع مقاومة كل هذه البهجة.



t.me/qurssan

- لماذا، إذن، لا نعود إلى الشمس؟ - قالت.

خرجنا إلى النهار الذهبي، متأبطين بعضنا، وسائرين ضد البرد القاطع، الذي ينعشنا. هبطنا صوب الكي[76]، حاذينا جزيرة إيل سان لوي، وذرعنا الأرصفة المبلّطة التي تشكل ضفة السين، وارتقينا السلالم الحجرية التي تنتهي في ميدان پلاس دو پون نوف. كنا نشعر بالجوع، وبالبرد، وبالسعادة.

- هل تعرف حانة هنري الرابع؟- سألتني، مشيرة إلى محلٍ مواجه لنُصُب للملك على صهوة حصان -. إنها مؤسسة شهيرة بأنبذتها الجيدة، وفضلا عن ذلك يبيعونها بالكأس، وليس بالزجاجة.

جلسنا قرب منصة البار، المكسوة بالنحاس. وعلى سبورة، بالطباشير، يجري الإعلان عن أنواع النبيذ الأبيض، والوردي، والأحمر، و "اللقاء مع نبيذ البوچوليه نوڤوه يوم 20 نوفمبر. هكذا ترتّبُ السماءُ والرجال الجادّون".

- سنكون هنا - قالت ماري كلير المتألقة -. ما أروع ذلك! تستطيع اختيار نبيذ كابرنيه 71، أو سانسير 73 أو شيڤرني 78. لكنني أقترح البدء بنبيذ شينون خفيف... أنا ميتة من الجوع، فالساعة تجاوزت الثالثة! السندوتشات هنا ممتازة أيضا. ما رأيك في سندوتشات پاتيه أرانب بالأرمانياك؟

أحضروها فوق قطع من خبز الشعير، في أطباق من القيشاني مزينة بورود زرقاء.

- الآن لابد من كأس من مورجون پيرون - اقترحت ماري كلير. واصلنا مع كأس كوت دى بون رائع. وخرجنا متعانقين. هبطت مراكبُ بليدةٌ عبر اتساخ السين. عبرنا جسر الپون نوف. جبنا ببطء كِي اللوفر. بالنسبة لي كان كل شيء جديدا. فلم أكن قد ذرعت باريس، جهارا، قط. لم تكن المدن بالنسبة لي مدننا: بل مخابيء. لم تكن


t.me/qurssan

الشـوارعُ موجـودةٌ لنذرعهـا ببـطء بـل لنقطعهـا دون أن تقـع علينـا عيـون الخصـم. مـع مـاري كلـير فقـط انتهكـتُ، بوجـل، بصـورة غـير مسـئولة، تلـك القاعـدة. لم أكـن قـد توقفـت قـط أمـام الواجهـات ولا زرت المتاجـر مثلـما تفعـل هـي، لمجـرد مـزاج فضـولي. أُعجبـت مـاري كلـير بالـدروع، والخـوذات، والقربينـات في محـل أو بـون ڤـ-يـو شـيك ديـز أركابوزيير،الـذي كان كـما تعلـن اللافتـة، "مُـوردُ السـادةِ المهذبـين منـذ 1760". وبعدهـا تأملَـت بتمهـل المعـدات السـماوية، تليسـكوبات محـل متخصـص.

- كل مـا في الكـون يـدور في اتجـاه عقـارب السـاعة - قالـت مـاري كلـير- كل شيء، باسـتثناء أورانـوس، الـذي يـدور مـن اليسـار إلى اليمـين، ونوتـة موسـيقية لبـاخ، هـي الوحيـدة المكتوبـة في الاتجـاه المعاكـس في كل تاريـخ الموسـيقى.

وعند ناصية شارع الأميرال كولينيي، طالعنا اللوڤر بعمارته المهيبة.

- أخـيرا جمعـوا كل لوحـات رمبرانـت في قاعـة واحـدة! - اندهشـت -. مـاذا لـو كافأنـا أنفسـنا بزيارتهـا؟ يمكننـا أن نعجـب بلوحـة "رمبرانـت الشـاب" أو "رمبرانـت في زي أمـير شرقـي". إنهـا أعـمال الشـباب، لكـن يالهـا مـن أعـمال. فيهـا يمكـن أن نلمـس بـذخ الثيـاب، ويقـين العبقريـة، وسـمو الجلـود، والريـش، وبريـق الذهـب. كل مـا فيهـا بدايـة! أتخيـل رمبرانـت يتمـشى فخـورا عـبر أمسـتردام أو لاهـاي: "كان يعيـش حينئـذ مـع كاتيـا زاكـس "- قلـت -". مـن يمكـن أن يتعـرف في تلـك اللوحـات عـلى الأرمـل المحطـم، المطـرود مـن منزلـه، الـذي أُعلـن إفلاسـه، عـلى ذلـك الشـقي المتداعـي الـذي تبينـه مثـلا، لوحـة" الرسـام أمـام الحامـل"، إحـدى الصـور الذاتيـة المؤلمـة لشـيخوخته...؟ ورغـم ذلـك، بمـاذا تُقـارن لوحـة "الفنـان ضاحـكا"؟ ليـس هـذا وجهـا: إنـه قنـاع شـوّهه إخفـاق الحيـاة، شـوهته هـذه الحيـاة التـي هـي دومـا إخفـاق؟..".



t.me/qurssan

- وماذا عن الحب، يا ماري كلير - ترددتُ -. هل هو أيضا إخفاق إذن...؟

- الحب...؟ هو لحظة! - قالت وهي تعاود احتضاني -. لحظة أبدية...!

في عينيها ومضت نظرةُ امرأةٍ مجهولة، أو خيّل إليّ أنها ومضت مرة أخرى. لكن حلّت مكانها على الفور نظرة ماري كلير. وأشعلت برق ضحكتها.

عبرت قلّةٌ من السياح الأرض الواسعة المرصوفة للكور كارّيه [فناء المربعات] ، الذي لمّعته الريح الثلجية. وتحت قوس البناء كان عازف فلوت شاب، برأسٍ مجتهدة محمية تحت بيريه أخضر، وملفوف في عباءة خضراء، يعزف نوتة موسيقية لباخ. مختلطين بين السياح، والطلبة، والأزواج، والمنفردين، المتعجلين، والمتمهلين، دخلنا المتحف، وارتقينا الدرج، لمسنا تمثال النصر من ساموتراقيا، وعبرنا الباحة الكبرى دون أن نتوقف عند مازوكية أمثال القديس سباستيان المرشوق بالسهام، والعذراء المقدسة المجردة من الجنس، والأطفال الآلهة غير الحليقين للأساتذة العظام الذين حكمت عليهم الكاثوليكية بأن يعكسوا الظلمة ولا شيء سوى الظلمة. ما أبعدهم عن الحياة التي يتطلبها مزاجنا!

- وددتُ أن أشاهد حفلا - قالت ماري كلير.

- حفلا؟ - اندهش حارس القاعة -. حسب علمي، بين آلآف لوحات اللوفر، لا توجد سوى لوحتين على هذا النحو.

- لا يمكن؛ هل تريد حضرتك أن تقول لي أن ما تم رسمه طوال قرون هو لاشيء؟

- لا، يا آنسة: لدينا أباطرة، وبابوات، وملوك، ودوقات، وحكماء، وقديسون، وعذراوات مقدسة، ومناظر طبيعية.



t.me/qurssan

- لقد قلتها حضرتك: لاشيء.

شعر الحارس بالإهانة البالغة:

- يا أنسة: ما تبحثين عنه ستجدينه في قاعة بتي كابينيه سين، إلى جوار قاعة لوحات روبنز...

إتضح أن "الحفل الراقص لدوق آلينسون" لوحةٌ متواضعة، عملٌ ثانوي من عهد الملك هنري الثالث. مستاءةً رأيتها تتأمل الحفل الماسخ. لم يكن حفلا بالمعنى الدقيق. ابتعدت عيناي عن اللوحة؛ كنت الآن أرى ماري كلير جانبيا. كان الضوء يواجه، برقة، معمار هذا الجسد الذي، بالنسبة لي، يسند الكون كله. أدارت وجهها: فالتقت عينانا مثل كوكبين من عمق الآماد، من اللازمان، يرتحلان خلال ملايين السنوات الضوئية لمجرد أن يتماسّا للحظة فريدة ثم ينفصلان إلى الأبد. شعرت بالدّوار. وكأن عيناها تنظران إليّ من شاهق، وأنا أتأمل من الأرض، لا الرمالَ الذهبية الميكروسكوبية التي تجعل نظرتها تتلألأ كقوس قزح، بل نجوما لا يمكن بلوغها، أجراما تجعلني أنعس. تعرفت على شعر برنيقة، وبطريقة عبثية، على صليب الجنوب، والالتماع الذي لا يخطيء للسماك الرامح، والدب الأكبر، ودروب تبانة كثيرة لا دربا واحدا. وبغتة طوقتني الظلمة. "ماري كلير"، قلت، لكن صوتي لم يرن. ماذا يمكن أن يحدث؟ لم هذا الظلام الدامس؟ في إهمالٍ لا يمكن تصوره، هل نسيّنا حارسُ المتحف هناك؟ كان كل شيء سكونا؛ لم تكن تُسمع خطوةٌ واحدة. لكن عندئذ بلغَنا وميضٌ وأصوات غير معقولة لأوركسترا. اقتربنا من بعضنا وقد خفّف عنا ذلك الضوء وتلك الموسيقى، وعبرنا قاعتين أو ثلاث، ووصلنا إلى صالون بأرضية شطرنجية: لا أدري بأية عيون رأينا عشرات من الأزواج بحللٍ زاهية اتباعا لتقليدٍ عتيق، يرقصون بتؤدة، - رقصة پاڤانا؟-. شككت فيما كان يجري: من أجل تكريم شخصيةٍ بارزة دون شك، ضيفٍ رسمي، رجل دولةٍ يهمُّ تعاطفَه فرنسا بصورة حيوية، قدم وزير العلاقات الخارجية،



t.me/qurssan

الـكي دورسيه، استقبالا غير مسبوق: ليلة احتفال رسمي تنتهي بذلك الحفل التاريخي، وفي اللوڤر! فمن أجل إسعاد جاكلين كينيدي، أهداها الجنرال ديجول عرضا خاصا في مسرح ماري أنطوانيت، في قصر ڤرساي. وهذه المرة تجاوز رقي ذوق الـكي دورسيه الحدود. فكل المدعوين: الوزراء، والسفراء، والموظفون، وحتى المستخدَمين من رؤساء الخدم، والجرسونات، وسيدات الخدمة، كانوا يتألقون في بزّات تاريخية غالية. وبلغت دقة الـكي دورسيه حدّ إحياء أوركسترا من ذلك الحين. "أوركسترا من آلات النفخ،والقرب، والأعواد، لا يجب أن تكون داخل صالون"، فكرت. لكنها كانت هناك. ترن مدوية فوق الأزهار التي تفرش الأرضية والتي يرقص أو يتحادث فوقها رجال بلاطٍ متنكرين، دون أن ينظروا إلينا. اقتربنا من فتحة المدخل الذي يحرسه حمَلةُ رماح يعرضون بذخ دروعهم وحرابهم اللامعة. نظروا بصرامة إلى ثيابنا وكانوا على وشك أن يطردونا حين ظهرت في صمت شخصيةٌ أخرى أعلى منزلةً خلفنا وغطّت أكتافنا بعباءتين لمستا الأرض. أخذت الأزواج ترقص على إيقاع آلات العود والكورنو. "أردتِ حفلا؟ هاهو"، قلت لها. وكان جواب ماري كلير أن أجبرتني على أن ننضم إلى الراقصين. كانت قدماي تجهلان كل رقص، لكن ماري كلير والموسيقى وسعادة ما ليس متوقعا، أضفت براعة على تعثري. أخذنا نرقص، ونرقص. كم من الوقت؟ ودون أن تخرج من الرقصة، سألتني ماري كلير:

- ما اسمك الحقيقي، يا سانتياجو؟

دون تردد أجبت:

- ماري كلير، وأنت ما اسمك؟

- سانتياجو - قالت.

عندئذ، خائفين، مبتهجين، مرعوبين، لم نعد نرى أنفسنا داخل الحفل بل أمامه، أمام الرقصة الساكنة المؤطرة في "الحفل الراقص



t.me/qurssan

لـدوق آلينسـون" في البتـي كابينيـه سـين باللـوڤر. لم نكـن نسـمع أوركسـترا: كنـا ننظـر إلى أوركسـترا. لم نكـن نشـارك في حفـل راقـص: كنـا ننظـر إلى حفـل راقـص.

- سـيل ڤو بليـه، سـيل ڤو بليـه[77] - أيقظنـا صـوت الحـارس الـذي يُذكّـر السـائحين المتأخريـن بانتهـاء وقـت الزيـارة.

ومصابـين بالـدوار لا نـزال، ومحتضنـين بعضنـا حتـى لا نتعـثر، خرجنـا مـن اللوحـة، مـن المتحـف، مـن تلـك اللحظـة بـلا زمـن، ورجعنـا إلى باريـس، إلى الحيـاة التـي لا تتوقـف ولا تتراجـع، إلى الاهتيـاج العصبـي لشـارع ريــڤولي، إلى الضجيـج المختلـط للسـيارات، للرجـال والنسـاء الذيـن يتعجّلـون نسـيانَ سـأم روتـين أشـغالهم ليعـودوا إلى سـأم روتـين منازلهـم.



t.me/qurssan

# 24. فرنثيسكا بين التماسيح[32]

من بين أوراق الشجر الجافة التي تخفيه فوق الطوف، وطوال كيلومترات، يراقبُ خلسة، بين الحين والآخر، جماعاتٍ من القردة، الحراس المحليين الذين يجوبون تلالا وتلالاً تغطيها أعشابٌ خضراء مسودّة: عندها يسكُن أكثر تحت أوراق الشاپاخا[78] العريضة التي تَغطّى بها أعلى النهر، وهي سعفاتٌ نخيل قادرةٍ على إخفاء ثور إذا جُدلت جيدا، مروحةٌ مروحة. لكن ما من جدائل ضد الشمس، ففي ساعات جَفّفت أوراق الشاپاخا. لا أحد يتحمل هذه الشمس! الشمس، الشمس! مصابا بالدوار، بينما يقيس الأصيل، يصل إلى ثييناجا: مياهٌ تسكنها تماسيحٌ بيضاء، مسالمة بالنسبة لفرنثيسكا التي تقفز فوقها كأنها جذوع، فرنثيسكا أمامي هنا، ضاحكة. ضاحكة؟ لقد دقت ساعتي، سأموت - قرأت فرنثيسكا في كتابٍ بصفحات بيضاء، بحروف ذهّبها وهج الشمس -، ورغم ذلك، ما أجمل ما كانت الحياة! بدأ عملي بآمال كثيرة! - شكا موتسارت، جالسا فوق تمساح قريب -، لكن لا يمكن تعديل القدر! رفعت فرنثيسكا كأس نبيذ سانسير المثلج: "نخب



t.me/qurssan

انتصار الثورة، يا نيكولاس، نخب تحرير البيرو، نخبك، نخب رجوعك!" وهن صوتها: "وإذا لم نلتق ثانية، أريدك أن تعرف أنني فخورة وسعيدة بأن كنت زوجتك". نظر إليها. وتخيّل أن فرنثيسكا في حياةٍ ما، لكن هنا على الأرض، كانت زوجته حقا. شعر بالهناءة، وعلى الفور بالخجل، ثم بالبهجة، وبعدها بالحزن. اعتقد، أراد أن يعتقد، أنه هنا والآن، بينما هو حيّ، وينظر إلى تلك المرأة المثيرة للإعجاب، تلك المرأة الحية التي تُشتِّت العقل، يبدأ حياةً أخرى، وله مستقبلٌ آخر، قدرٌ آخر... "نعم"، قالت فرنثيسكا متضرّجة. "هل تقبل زوجة لك...؟" "نعم"، قال هو أيضا. ورنّ خلف ظهره التصفيقُ الودّي للرفاق. وبعدها الحياة، الحياة مع فرنثيسكا، والأعوام، الأعوام مع فرنثيسكا، وبعدها الأبناء، أبناء فرنثيسكا، أبناؤه... "ألا تريدُ أن تشرب معي، يا نيكولاس؟ - استغربت فرنثيسكا -، ماذا يشغل بالك؟..". حاول هو ألاّ يرى البلوزة المنفرجة أكثر مما يجب، بداية النهدين، المياه المرصوفة بالتماسيح البيضاء، هذه الوحوش التي تبلغ ستة أمتار، مئات التماسيح تخطّط الماء، لا يخاف، التمساح الأسود يهاجم، والأبيض لا، الأبيض لا؟، كل التماسيح تهاجم إن كانت جائعة، وهذه جائعة، تقترب، تضرب حواف الطوف، تحاول تسلقه، بالمجداف يضرب الفكاك الضخمة البيضاء، بيضاء لا، مفضضة، رمادية، التماسيح المضروبة تتراجع، تغطس، تتظاهر بالانصراف، تتقهقر تحت الماء، تهاجم الطوف بذيولها. "أيتها التماسيح اللعينة، الأطواف لا تغرق!"، يصرخ ليهدّيء نفسه، لكن بساط التماسيح اللامعة، الضئيلة، المتوسطة، العملاقة، يفزعُه. يعرق عرقا باردا، وتبلّل الرغبة يديه. "فيم تفكر، يا نيكولاس؟"، أصرت فرنثيسكا. لو ظلّت تحدثني بهذا الصوت الواهن، ماذا أفعل؟ فكر، ولكي يبتعد عن كل إغواء، عن أي انتهاكٍ محتمل للانضباط والروح الثورية ورغم أن الصوت لم يجبه، رد: "فرنثيسكا تمشي فوق التماسيح!" الطقطقة الوحشية للمجداف وهو يسقط ويسقط فوق الفِكاك الضخمة، تُخرج الهنود من أكواخهم، على الضفة ينظر إلى أجسادهم الملونة بالهويتو[79] الأسود، والأتشيوق[26]



t.me/qurssan

الأحمر، وعصارة الزهور الصفراء، الألوان البراقة للرسوم السحرية على عباءاتهم، ومجنوناً بالسعادة ينظر إلى الدخان الرفيع الذي يتصاعد بين البيوت عارفا أنه دخان مطابخ، يتمكن من الهبوط، فيسنده أحدهم من ذراعه، "من فضلكم، قليلٌ من الطعام! - يتضرع، لكنهم لا يفهمون القشتالية -، من فضلكم طعام!"، يكرّر ويقوم بإشاراتٍ لا لبس فيها. يومىء أحد الرجال فتروح امرأة قصيرة وتجيء بسُباطة موز أخضر. من يعرف أعداده ولديه نار، يصنع العجائب بإصبع موز أخضر، لكنه لا يعرف، وحتى لو كان يعرف فالأمر سواء. يتهاوى فوق طين الضفة الجاف. وحين يفتح عينيه يجد نفسه داخل كوخ، مستلقيا على حصيرة؛ يرى أيدياً تتحسسه، تقرُب منه شرابا من القرع يحتوي سمكا، ويوكا مسلوقة وقطعة سلحفاة مطهية. ينعس وهو يمضغ. حلمتُ بأنني طير بشروش أبيض، من تلك الطيور التي طولها متران، متران ونصف، التي تشبه طائرات مائية حين تعبر البحيرات الضخمة. كنت أطير في مؤخرة جيش أبيض يستعد لاحتواء إعصار من طيور البشروش البنية، المنقّطة. اشتبكنا في حرب. بعثرت صفوفَنا ضرباتُ مناقير الطيور المنقّطة، صفّت الطليعة حتى أصبحتُ على رأس طيور البشروش. بدأتُ هبوط مناقيرِ مُدوِّخة. لم يكن هبوطا ولا بشروشَ ولا حربا: كنتُ واحدةً من قطرات الألوان التي تقفز من ضربات فرشاة غاضبة يضربها فنان ممرورٌ المرّةَ بعد المرة على القماش الذي لا يتمكن من تثبيت رؤيته عليه. تمكنتُ من رؤية نظرة الرسام غير المصدِّقة. يستيقظُ في يوم آخر. يصطحبه الهنود حتى الطوف، مطلقين صرخات ضاحكة، يبتهجون من لاشيء، يعطونه قطع يوكا ساخنة ملفوفة في ورقة موز، "وداعا، يا أولاد بلدي"، يغلبه التأثر، وهو يبتعد، في التيار. يضحك الهنود على الضفة التي تضوي بالشمس، بالشمس، بهذه الشمس!، ويصيحون له بكلمات لا يفهمها، وتتضاءل الأذرع المرفوعة، وتنمحي. يربط نفسه بالطوف. يخوض مياها حُلميةً مليئة بتماسيح حلمية بين ضربات حلميةٍ، على طوفٍ حلمي يبحر



t.me/qurssan

فـوق تماسيح حلميـة، سـاعيا إلى مطـاردة خائـن حلمـي. حيوانـاتُ وحيـد قـرنٍ خائفـة تبصقُ شـلالاتٍ مـن الياقوت باتجاه السـماء. لمسـت فرنثيسـكا وجهـه بعقودهـا، ومـن خلـف المقعـد شـبكت يديهـا فـوق صـدره، فـوق اهتياجـه الـذي يحـاول، وقـد صـار عـلى حافـة اليـأس، أن يتذكـر، حسـب لينـين، أهميـة اسـتبدال النزعـة البرلمانيـة اللفظيـة والفاسـدة للبورجوازيـة بتنظيـماتٍ ابتكرتهـا الكوميونـة، حيـث لا تنحـطُّ حريـةُ الـرأي والنقـاش إلى خـداع، لكـن نَفَـس فرنثيسـكا كان يحـرقُ قفـا البورجوازيـة، رقبـةَ النزعـة البرلمانيـة السـامة والفاسـدة، الجلـدَ الـدافئ للتنظيـمات التـي ابتكرتهـا الكوميونـة، الشـلال الأسـود لشـعر لينـين وعـرف أنـه لا يمكنـه مواصلـة العيـش دون أن يلقـى بنفسـه إلى تلـك الهاويـة. واصلت فرنثيسـكا جرحـه بقبـلاتٍ رقيقـة في أذنـه، غـير محسوسـة تقريبـا عـلى خـدّه. وفقـط حـين لمسـت شـفتيه، تجاسـرت يـداه العرقانتـين عـلى لمـس شـعرها، ال-ألليجريتـو پوكـو موسـو، فكّـت أصابـعُ فرنثيسـكا أزرار قميصـه، وهبطـت شـفتاها عـلى صـدره الـذي حلقتـه الشـمسُ، والريـحُ الحارقـة، عـلى عضـوه المتوهـج الحمـرة تحـت الشـمس، لم يـدرِ في أيـة لحظـةٍ انتهـى بهـما الأمـر عاريـين بـين أجسـاد التماسـيح فـوق الشـمس التـي ولـج بهـا جذعـه المـوج حيـث تـئنُّ فرنثيسـكا، فـمُ فرنثيسـكا، شـمسُ فرنثيسـكا وهـي تحـرق في الظلمـة. أفزعـه طنـين موتـور، زورقٍ مـا يتقـدم خلـف الجزيـرة، يتوجّـه صـوب الضفـة الأخـرى، لكـن التيـار لا يدعـه، يعـود مستسـلما، يموّه الطـوف في شريـطٍ تحفّـه أشـجارُ المـوز والأوراق العريضـة. مختبئـا بـين الأشـجار يـرى مـرور لنـشٍ مـليء بـذوي البـزّات الرسـمية. ليسـوا شرطـة ولا حراسـا جمهوريـين: هـم جنـود جيـش، يعرفهـم مـن أسـلحتهم: مظليـون مـن القـوات الخاصـة، يميّـز بنـادق "فـال"[80] التـي يتلهـي بهـا القـرود عـلى الأغصـان العاليـة لقـوس قـزح، القنابـلَ اليدويـة التـي تتـدلى مـن حـزام المانجـو، لحمَـه الممـزّق بطعنـات الاطـلاق، الوجـهَ الآخـر للدمـوع التـي تحاذيـه عـلى طـول الـدرب المصفـوف بأشـجار الهـواكاپو. هاهـي الشـجرة!



t.me/qurssan

## 25. النقيب باسوركو
## يأمر بصنع قفصين خشبيين

هـذه الشـمس، هـذه الشـمس، هـذه الشـمس! وهـجُ القيـظ فـوق المياه المعدنيـة يُغرقـه أكـثر في الـدوار الأحمـر. تحـت ضراوة الظهـيرة يبـدو لـه أن الـپامـاكاري، السـقفَ الصغـير مـن سـعف النخيـل، الـذي أقامـه لحمايتـه، ليـس موجـودا. يحـس بجسـده ضخـما، منتفخـا بالحمّـى؛ هـواءٌ مغـلي يطبـخُ شـعره، وجلـده، والآن مخـه. يميـل إلى جانـب الطـوف، يجوّف يديـه، يأخـذ مـاء فاتـرا، ويبلل رأسـه، ورقبتـه، ووجهـه، وصدره المسـلوخين، هـل سـأموت مثـل "كوتشـاريتا" و "المجنـون" هيجـيراس، هذيـن الفاريـن مثـلي، اللذيـن هربـا مـن السـيـپا مثـلي، اللذيـن طاردهـما الجنـود مثـلي؟ لقـد بلغـا مـا لا يمكـن بلوغـه؛ أن يهربـا مـن مسـتعمرة اعتقـال السـيـپا، بالطريـق الوحيـدة التـي تفشـل فيهـا مراقبـة آلآف الـزوارق: بطريـق الـبر، عـبر الغابـات الخانقـة، الطينيـة، التـي تطـن بالفهـود السـوداء، والأفاعـي الضخمـة، والعناكـب القاتلـة، بحيوانـات ومخاطـر بإسـم وبـدون إسـم.



t.me/qurssan

حقّـق "كوتشـاريتا" و"المجنـون" هيجـيراس مـا لم يحلـم ببلوغـه حتـى أمهـر هـواة شـاي المـاق، أولئـك الباحثـين المحنكـين عـن الأخشـاب: عبـورَ الغابـات عـلى الأقـدام مـن نهـر الأوروبامبـا حتـى نهـر التامبـو. خرجـا عـبر منطقـة الشـيرينتيارى، عـلى حـواف منطقـة هنـود الكامـبا. أمـر النقيـب باسـوركو بإغـلاق كل الأنهـار. لاشيء! صرخ النقيـب باسـوركو: "ماذا سـيقول قريبـي الجـنرال، أن اثنـين مـن الحثالـة يهربـان مـن تحـت أنفـي ويتبخـران مثـل الأشـباح: هـل سـتجعلونني أصـدق، يـا حمقـى، أن هذيـن اللعينـين قـد اختفيـا تحـت المـاء مثـل أسـماك البـايـشى[8] وأننـي أرسـل بعثـاتٍ وبعثـات مـن العميـان والزعـران؟ لابـد أنهـما في مـكان مـا! إذهبـوا للبحـث عنهـما مـن جديـد ولا تعـودوا، اللعنـة، بدونهـما!" هانحـن ذاهبـون، يـا سـيدي النقيـب". "لا يؤلمنـي أن أبقـى نقيبـا بـل مـا سـيقوله أبي بالعـماد حـين يُضطـر لشـطب اسـمي مـن قائمـة الترقيـات. سـيقول لـه أحدهـم "لكـن يـا سـيدي الجـنرال، هـذا هـو ابنـك بالعـماد باسـوركو"، وسـيجد أبي بالعـماد نفسـه مُجـبرا عـلى القـول: "إنـه ليـس بحاجـة إلى أن يُرقيـه أحـد؛ لقـد ترقّـى بمفـرده إلى مرتبـة أحمـق...!" اعترضـوا الأنهـار، أغلِقـوا المسـارب، راقبـوا مصبـات الجـداول. لم يخطـر ببـال أحـدٍ أن بإمـكان بـشرٍ أن يعـبروا تلـك الغابـة أحيـاء. ظهـر "كوتشـاريتا"و "المجنـون" هيجـيراس ذات يـوم عـلى بـلاج في أتالايـا. ظـل الرقيـب مـوري يلاحـظ الهنديـين الكامـبا، المكسـوين بعباءتـين مهلهلتـين، وهـما يطبخـان عـلى البـلاج. "لـن يسـتغفلوني! أيهـا الحـارس ديّـاث، اسـحب بندقيتـك واتبعنـي. يـا فتّـي الموتـور، أنـت أيضـا احمـل سـلاحك وأدر موتـور هـذا اللنـش!" ظـل هنديـا الكامـبا فـوق الرمـال الضاربـة إلى الرمـادي. باغتهـما الرقيـب مـوري ورجليـه وصوبـا إليهـما فوهـات بنادقهـم. "يـا حثالـة، لـو تحركتما، سـأطلق النـار!" رد "كوتشـاريتا": "اخفـض بندقيتـك، يازميـل، لا تظـن أنـك تخيفنـي. منـذ برهـة نعـرف أنكـم قـد رأيتمونـا. أتعـرف لم نسـلّم أنفسـنا؟ نسـلّم أنفسـنا لأننـا لا نعـرف إلى أيـن تـؤدي هـذه الأنهـار الملعونـة!..". "وكيـف تعرّفـت علينـا، يـا سـيدي الرقيـب؟ - قـال "المجنـون" هيجـيراس، بصـوتٍ



t.me/qurssan

مرتعش، محاولا التودد إليه -. أنا من لوريتو وأعرف أن هنود الكامپا ليس لهم ذقون، ياحمقى..". الشمس، الشمس، الشمس تطرقع فوق طاولات شرفة المقهى في بولفار ڤولتير. من الداخل رأى نيكولاس الوجه المهموم لسانتياجو يقترب. دخل، فتّش عنه بين الطاولات، ولم يجده. جلس قرب نيكولاس، ودون أن يراه، اختبأ خلف صحيفة "لوموند". ابتسم نيكولاس، بلا حراك: كان، حين يقرّر، قادرا على بلوغ حالة أن يكون لامرئيا تقريبا، وهي الحالة التي تطبعها على بعض الكوادر سنواتٌ وسنوات من النضال السرّي. لكن عيني الكادر الجيد تعرفان كيف تريان الآخر مهما تنكّر. لماذا لم يره سانتياجو؟ راقبه نيكولاس دون أن يرفّ له جفن. تأكد من قلق سانتياجو الذي يقلّب بسرعة مفرطة صفحات "لوموند"، ويشعل ويطفيء السجائر بإفراط، ويمد عنقه باتجاه الباب، وفكر: "راميرو على حق".

- يا أخي العزيز، لديك مهمة بالغة الدقة هنا في باريس. الأمر يتعلق بسانتياجو...

- كما تشاء، يا راميرو.

مستندا على ظهر المقعد، واصل نيكولاس مراقبة سانتياجو. للحظة استعادت عيناه دفء الصداقة، فكم من سنوات التآخي في النضال، لكن بعدها، عارفا بتردّداته، تصلّب. بعدها، عاود النعومة، بشكل محسوب.

- هل تشعل لي، لو سمحت؟ - سأل بالإسبانية.

استدار سانتياجو مُباغتا. وتلكأت ابتسامته في العودة:

- أنا أنتظرك منذ فترة - قال، ومقتربا من طاولة نيكولاس، جلس وظهره للباب.

"ثمة شيءٌ ينتابه، حقا - فكر نيكولاس -: فالكادر المُدَرَّب لا يجلس أبدا وظهره تجاه باب".



t.me/qurssan

- بالتأكيد ظننت أنني لن آتي - قال سانتياجو.

- لماذا تقول ذلك...؟ فيما يبدو أنني أثق بك أكثر منك. أنت تعرف جيدا، يا سانتياجو، أنني أفضّل أن أخطيءَ عن ثقة عن أن أصيبَ عن عدم ثقة..

- الثوري يجب أن يشُكَ دوما، يا نيكولاس.

- هل تطلب مني أن أشك فيك؟

- ماذا تشرب؟ - راوغ سانتياجو.

- كنت أود كأسا من الپيسكو[82] الخالص، لكن لما كنّا حيث نوجد لا حيث يجب أن نكون، فإنني أرضى بكأس نبيذ.

- كأسان من [نبيذ] البوچوليه - أمر سانتياجو.

ظل نيكولاس ينظر في عينيه، وضع يده اليمنى فوق كتف سانتياجو وسأل بصوت ودود:

- ماذا بك، يا صاحبي؟ لماذا لا تحضر الاجتماعات؟ لماذا لا تنفذ التوجيهات الأخيرة؟ عشية عودتنا إلى البيرو، لا يمكن للحركة أن تسمح لنفسها ولا أن تسمح لأحد بمثل هذه الأفعال غير المسئولة. وأقول الأفعال غير المسئولة في الوقت الراهن فحسب. كلّفتني القيادة القومية بتوضيح حالتك، بمطالبتك بتحديد وضعك. لكن قبل أن أخاطبك كقيادي، بودّي أن أخاطبك، إذا سمحت لي، بوصفي أخيك الذي عهدته دوما. تعرف جيدا أن الانضباط هو أساس منظمتنا، وتعرف أيضا أن الانضباط لا يستبعد بل يحفز الأخوة. لست الأول ولن تكون الأخير. كلنا نعيش أزمات روحية، أزمات ضمير، أزمات وجدانية، إيديولوجية، عاطفية، كيفما تفضل أن تسميها. أنت تعرف عن هذا قدر ما أعرف. وهذه الأزمات عادة ما تحتدم بالضبط قبل



t.me/qurssan

الرحيل إلى المعركة. إننا لا نبحر صوب البيرو فحسب بل ربما صوب الموت، وهذا أيضا تعرفه...

اعتقد نيكولاس، بابتهاج، أنه يستشعرُ مرة أخرى في عيني سانتياجو نظرةَ الرفيق، عزمَ الرفيق. ودون أن يرفع عنه عينيه أخذ رشفة من البوچوليه. وكان سانتياجو قد أنهى كأسه، واصل:

- عشية كل فوج نشعر كالمعتاد، بالعصبية. هل تتذكر توماسيتو، ذلك الدومينيكاني الضخم، الخجول، الذي لم يكن يدري ماذا يفعل بجسمه...؟

- أتذكر: ذكي، مجتهد، ماركسي - لينيني متمكن، رفيق عظيم...

- هل كان شجاعا؟

- طبعا كان شجاعا!

- ورغم ذلك، يا سانتياجو، هل تتذكر الليلة التي قابلناه فيها في "لا ريساكا"، ذلك البار في هافانا؟ كان توماسيتو يفتّش يائسا عن امرأة، ليس لقضاء الليلة معها بل لمنحها ابنا. لم يكن يعرف أنه ميت من الخوف. في تشوُّشه اللحظي كان يشعر بأن الإبن المتخيل سيمدّ أجله أبعد من الموت الذي افترَض أنه حتميّ ووشيك. لكنه تمالك بعدها، وأبحر وسلك بصورة بطوليا.

- مات بصورة بطولية، أردت أن تقول.

- كانت السي أي إيه [وكالة المخابرات المركزية] قد اخترقتهم. كان الدكتاتور تروخيّو يعرف مقدّما الساعة المحددة والمكان المضبوط للإنزال. كانوا ينتظرونهم...

- وجعلوهم هباءً - قاطعه سانتياجو -. لم يبق واحدٌ منهم حيا.

- ثم ماذا؟ - رد نيكولاس وقد جُرحت مشاعره -. ثم ماذا؟... هل يعني موتُ مقاتلٍ إختفاءَه؟ ألم يتم إعدادنا بالضبط لمواجهة الموت،



t.me/qurssan

وللمـوت إذا لـزم الأمـر، عارفـين أن موتنـا، عـلى المـدى البعيـد، آجـلا أو عاجـلا، هـو الحيـاة للآخريـن...؟

طلب سانتياجو. _ *Encore, deux beaujolais* _

أصبح صوت نيكولاس أخويا من جديد:

- مـاذا بـك، يـا عجـوز؟ نحـن نعـرف بعضنـا منـذ كنـا نناضـل في "الشـبيبة الشـيوعية". معـا عشـنا في السريـة وبعدهـا اعتقدنـا معـا أن خط الحـزب خاطـيء، وطردونـا معـا مـن الحـزب، ومعـا دخلنـا الحركـة، ومعـا تدربنـا في كوبـا، ومعـا جئنـا إلى باريـس. لـن نكـذب عـلى بعضنـا بعـد كل هـذا. هـل لديـك اختـلاف مـا مـع القيـادة أو مـع الخـط السـياسي؟

أفـرغ سـانتياجو دفعـة واحـدة مـا تبقـى مـن كأسـه الثانيـة. نظـر بهـدوء إلى نيكـولاس:

- ليسـت مسـألة إيديولوجيـة، ولـو كان لـدي اختـلاف مـا فذلـك أيضـا أمـر ثانـوي. الـشيء الملمـوس هـو أننـي لـن أذهـب مـع حضراتكـم إلى البـيرو...

- هـل قلـت مـع حضراتكـم؟ حضراتكـم؟ أنـت وأنـا، أنـت والرفـاق، ألم نعـد بعـد نحـن...؟

- هكذا الأمر، يا أخي. لن أذهب لأموت مع حضراتكم.

- مـاذا يعنـي المـوت، يـا سـانتياجو؟ علينـا جميعـا أن نمـوت. المشـكلة ليسـت أن نمـوت بـل اختيـار المـوت.

- لمـاذا لا نختـار الحيـاة، يـا نيكـولاس؟ مـاذا لـو كان الثـوري الحقيقـي لا يسـتطيع تحقيـق الثـورة الحقيقيـة إلأ حيـا، في الحيـاة و بالحياة؟

- إنسانٌ جديد بقيم جديدة؟

- نعم، نعم.



t.me/qurssan

ربّت نيكولاس رأسه، وجذب شعره بمحبة:

- لكن ذلك الإنسان هو الثوري! وأنت تعرف، ياسانتياجو. الإنسانُ الجديد سيجسّد كل أحلام التاريخ، كلها جميعا بشكل مطلق، بما في ذلك أحلام الفوضوية. لكن "الإنسان الجديد" لن يمكن أن يولد إلاّ من حطام ورماد "الإنسان القديم".

- لا يمكنني الانتظار، يا نيكولاس.

تمهّل نيكولاس في الاستماع إليه، وتمهّل أكثر في الرد عليه:

- بل ستنتظر، يا سانتياجو! أعرف أنك ستتجاوز الأزمة التي تعيشها الآن وستأتي معنا. نحن مناضلون، ليست لنا حياة كحياة الباقين، نحن مدينون لقضيةٍ ومن أجلها نطيعُ انضباطا. حركتنا ليست قطارا يمكن للمرء أن يترجل منه وقتما شاء، في أية محطة.

ثم مُكسِبا صوته محبة:

- لكن ماذا يجري لك حقا، يا أخي؛ لم أعرفك جبانا قط! لماذا لا تريد الذهاب...؟

نظر إليه سانتياجو بوجه طفولي، موحش، يجهله نيكولاس.

- أبقى لأنني أحب امرأة كما لم أحب أحدا أبدا وأبقى مع المرأة التي أحبها، هل تفهمني...؟

- من أجل امرأة؟ - ارتبك نيكولاس.

- نعم، من أجل امرأة. إ ـ م ـ ر ـ أ ـ ة. يبدو أنك لم تسمع أبدا هذه الكلمة. لا أستغرب ذلك. بالنسبة لك لم يكن للحب قيمة أبدا. فقد عشتَ دوما بالحزب وللحزب.

حاول نيكولاس ألاّ يخرج عن طوره:



t.me/qurssan

- إ ـ م ـ ر ـ أ ـ ة - كرر كمن يتأمل -. نعم، سمعت هذه الكلمة من قبل. وسمعت كلمات غيرها أيضا. وبعضها ربما تكون قد نسيتها: ت ـ ح ـ رر ـ و ـ ط ـ ن ـ ي...

تمكّن من الابتسام:

- منذ متى، يا سانتياجو، كانت الثورة والحب متناقضين؟ حبك، وكل حب، نضالك، نضالنا، كلها لحم لنفس الجسد، دمٌ لنفس الدم. الاختيار بين الحب وبين الثورة هو مأزق مزيَّف. ليس ثمة ما يمكن اختياره، إنهما نفس الشيء...

- ليس بالنسبة لي، يا نيكولاس.

- لا أفهم.

- الأمر بسيط. أحب امرأة وأودّ أن أعيش معها. هل هذا واضح؟ أودُّ أن أعيش! لهذا أبقى. الأحياء وحدهم لهم امرأة، أما الموتى فلا... الآن أرى أشياء لم أرها من قبل.

- بما فيها الفوضوية، يا سانتياجو. كل أحلام "التاريخ"! سيدرك "الإنسان الجديد" أن الحبّ والسعادة هي الأفعالُ التخريبية حقا. لكن هذا الإنسان لم يولد بعد. إننا لا نحيا في الحاضر بل في الماضي. وبين الماضي والمستقبل حفرة. وربما لا يمكن ردم تلك الحفرة سوى بجثثنا. من الضروري أن يكون الأمر على هذا النحو، لأن من الضروري أن تمر "الإنسانية" فوق جثثنا.

- الفعل الثوري حقا بالنسبة لي ليس الموت ، بل العيش، يا نيكولاس...

- حتى لو توجب عليك أن تتخلى عن النضال كي تعيش؟

- حتى لو حدث... أنا...

قاطعه نيكولاس بحدة:



t.me/qurssan

- يـا رفيـق، لسـت هنـا لأسـمع أُملوحـة وقوعـك في الحـب. أنـا هنـا لأذكّرك بـأن الحركـة أخرجتـك مـن البيرو، بـأن الحركـة أنفقـت مـا أنفقـت لتدريبـك، بأنـك عرفـت تلـك المرأة لأن الحركـة وضعتـك مؤقتـا في باريـس. عليـك التـزامٌ لا يمكـن التملُّـص منـه تجاهنـا. وليـس تجاهنـا فقـط. لأنـك قـد أقنعـت العديـد مـن الرفـاق الذيـن هـم اليـوم في طريقهـم إلى الجبهـة، الذيـن ينتظرونـك اليـوم. مـاذا تعتقـد أنهـم سيشـعرون حـين يعرفـون أنـك أنـت، أنـت عـلى وجـه التحديـد، قـد هربـتَ مـن الخدمـة...؟

- لسـتُ هاربـا، يـا نيكـولاس. سـأكون هاربـا لـو تركـت باريـس، الحيـاةَ والحـبَ اللذيـن لي في باريـس...

- ليـس بالنسـبة لهـم. بالنسـبة لأولئـك الرفـاق، وليـس بالنسـبة لهـم وحدهـم، لـن تكـون حتـى هاربـا؛ بـل سـتكون خائنـا... أنـت منزعـجٌ جـدا: ألاحـظُ أنـك متغـير جـدا. مؤكـد أن لقـاء تلـك المرأة، إمرأتـك، قـد أفقـدك توازنـك. لكننـي، وأصرّ، أعـرف أنـك سـتتجاوز هـذه اللحظـة. ستسـتعيد هـدوءك وعندهـا سـتدرك أنـك تخـون نفسـك. لا يمكـن لأحـد أن تكتمـل سـعادته بينـما يظـل الآخـرون أشـقياء. لا يمكـن أن توجـد أيـة جزيـرة للبهجـة وسـط محيـط مـن الجرائـم والرعـب.

ابتلع نيكولاس نبيذه كله برشفة واحدة وطلب بالاسبانية:

- المزيـد مـن النبيـذ...! بـدون استشـارة القيـادة القوميـة، يـا عزيـزي سـانتياجو، ومـع اعتبـار سـوابقك الناصعـة، أخاطـرُ بالترخيـص لـك بالبقـاء في باريـس بعـض الوقـت، الوقـت الـضروري لتعـودَ مـن كنـتَ حقـا. فِرقتُنـا التاليـة سـتخرج خـلال ثلاثـين يومـا. إبـق في باريـس، عـش حياتـك مـع امرأتـك، فكـر بشـكل أفضل،ثـم نفِّـذ. أمـا امرأتـك، لـو كانـت امرأتـك حقـا، فيمكنهـا أن تلحـقَ بـك هنـاك. نحـن...

- لا تقطـع لي وعـودا، يـا نيكـولاس. أنـا أعـرف مـا هـي تلـك الوعـود. فقـد قضيـت حيـاتي أقطعهـا أنـا أيضـا. والأدهـى مـن ذلـك: أننـي عشـتُ


t.me/qurssan

مـن وعـدٍ إلى وعـد. كان أبـواي يعدونـنـي بقطعـة حلـوى، بتذكـرة سـينما. والآن تعـدُني الحركـة بأننـي سـأعاود الالتقـاء بامـرأتي بعـد أن ننتـصر. يعـدون بـأن يعطـوني غـدا مـا أملكـه اليـوم. لكننـي سـئمتُ أن يُصـادروا منـي الحـاضر باسـم المسـتقبل. سـئمت انتظـار فراديـسٍ تتباعـدُ باضطـراد.

- "سـيكون ثمـة دومـا ذرائـع لعـدم النضـال؛ في كل الحقـب وكل الظـروف سـيكون ثمـة دومـا ذرائـع لعـدم المشـاركة في النضـال..". - ذكَّـره نيكـولاس.

- أعرف هذه العبارة - قال سانتياجو.

- بالطبـع تعرفهـا! وكذلـك تعـرف هـذه: "يمنحنـا نضالنـا الفرصـة لنتحـول إلى ثوريـين، وأن نكـون ثوريـين يعنـي أن نبلـغ الدرجـة الأسـمى للنـوع الإنسـاني ونتخـرّج كبـشر..". وتعـرف بقيتهـا: "مـن لا يسـتطيعون بلـوغ أيٍّ مـن تلـك الحـالات يجـب أن يقولـوا ذلـك ويتخلـوا عـن النضـال".

- مـن السـهل أن يضحّـي المـرء بنفسـه، يـا نيكـولاس. نحـن معتـادون عـلى فعـل ذلـك. الأمـر الصعـب، البطـولي، هـو أن نحيـا.

- بالطبـع، يـا سـانتياجو؛ أنـت عـلى حـق: أصعـب مـن مواجهـة جيـش قمعـي في جبـال البـيرو، أكـثر بطوليـة أن يبقـى المـرء في باريـس بـين فخـذي أنثـى جيـدة... أنصـت إليّ جيـدا، يـا رفيـق. أنـت لم تـأت لتوضـح موقفـك معـي. أنـت أتيـت كي أعفيـك مـن التزاماتـك. أنـت لا تريـد الفـرار: أنـت تريـد الابتعـاد. لكنـك لـن تمـضي، كـما تريـد، لتحيـا بموافقتنـا الاكتـمالَ الأنـانيَّ لحـبٍ. لا! إذا لم تسـتطع أن تكـون ثوريـا، إذا لم تسـتطع مواصلـة أن تكـون كذلـك، يجـب أن تعـترف بذلـك، يجـب أن تقـول ذلـك وتتخـلى عـن النضـال. وسـوف تفعـل ذلـك، لـو فعلتـه، بكامـل وعيـك...

شرب المزيد من النبيذ

- أعتقـد أن أسـوأ مـا يمكـن أن يحـدث لرجـلٍ أن يُعـدمَ بالرصـاص لكونـه خائنـا وأن يمـوت معتقـداً أن مـن يُعدمونـه عـلى حـق.



t.me/qurssan

- لـو كنتـم تعتقـدون أننـي خائـن، وأنـا أعـرف العقوبـة، أعدمـوني. أفضِّـل المـوت عـلى أيـدي العبـث، قبـل أن أواصـل العيـش عبثـا.

ومبتسما، أزاح كأسي النبيذ جانبا:

- لمـاذا تـشرب كل هـذا، يانيكـولاس، وأنـت لا تـشرب مطلقـا؟ هـل يعذِّبـك شيء؟ هـل *Encore, deux beaujolais* يكـون مـوتي قـد تقـرّر وكان تصويتـك مؤيِّـدا؟ .

هل تعرف متى وُلدت الروح، يا نيكولاس...؟

- لا. لكنني أعرف، بالمقابل، متى وُلد الاستغلال.

- لكـن، ألا تعـرف متـى وُلـدت الـروح؟ سـيكون جيـدا، ربمـا، أن تعـرف قبـل أن تُصفّـي روحـي. سـأقول لـك: حتـى خمسـين ألـف سـنةٍ مضـت كان الإنسـان يتخـلى عـن موتـاه في أي مـكان: كان يتركهـم مُلقَـين لجـوع الجـوارح وللزمـن. لكنـه ذات يـوم قـرّر أن يحفـر لهـم قبـورا، أن يدفنهـم ويعيدهـم إلى التربـة. في الكهـوف حفـر ذلـك الإنسـان بالإزميـل أشـكالَ رعبِـه الرائعـة الجـمال. ومـن أشـكال الرعـب البدئيـة تلـك، مـن تلـك الرمـوز، صُنـع لحـمُ روح الإنسـان. ولا يمكـن لأيـة ميتـةٍ أن تقتـلَ تلـك الـروح...

أمسـك بنيكـولاس بعنـف مـن معصمـه، وبصـوت رخيـم، بعينـين تلتمعـان بالعذوبـة والحنـق:

- نيكـولاس، إن ثـورةً ليسـت سـوى ثـورةٍ ليسـت ثـورةً. إن الأنسـانية، إنسـانيتنا، تبلـغ مـن الهمجيـة، مـن البدائيـة، مـن القسـوة، حـدّ أنهـا كي تخـرُج مـن الوحـل بحاجـةٍ لا إلى ثـورةٍ واحـدة بـل إلى ألـف ثـورة، إلى ثـورة لانهائيـة.

- ألا تكفيـك هـذه الثـورة التـي يمـوت مـن أجلهـا ملايـين البـشر والتـي نناضـل نحـن مـن أجلهـا منـذ صبانـا؟



t.me/qurssan

- لا، لا تكفيني! الثورة السياسية تزيل الصديد من الخارج فقط، لكن، هل يمكن تعديل "الخارج" إن لم يتم تعديل "الداخل"...؟

- سانتياجو - قاطعه نيكولاس -، أطلب زجاجتين من النبيذ. مثلما في البيرو: واحدة لك، وأخرى لي...

- أحد أعظم شعراء عصرنا، قبل أن يغادر أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، قال: "سأذهب لأن الحب أشد إلحاحا من الحرب". كان شاعرا وكان ثوريا...

- لم يكن - غمغم نيكولاس من أنفه -، كان خراءً. لو كان كلُّ الناس قد فكروا مثله، لانتصر هتلر وما وُجد الآن بشر...

بدرت عن سانتياجو إيماءة إشفاق:

- تخطيءُ مرةً أخرى، يابن عمّي. لو كان كلُّ الناس قد انتبهوا إلى أن الحب دائما أشد إلحاحا من الحرب، لما استولى مجنونٌ مثل هتلر أبدا على السلطة ولما اندلعت الحرب أبدا.

- عذرا، يا أخي، لكنك في قمة الحماقة. لم يكن هتلر مجنونا استولى على السلطة لأن الناس يعتقدون هذا أو ذاك. هتلر كان النتيجة المنطقية والحتمية لوضع اقتصادي وسياسي متعيِّن، وكانت الحرب هي المخرج الوحيد لعالم بلا مخرج.

نظر إليه بعينين قاسيتين. وبصوت أقسى، قال:

- سانتياجو، آمرك بالسفر إلى البيرو خلال ثلاثة أيام. ستغادر مع مجموعة ماريو. وإذا لم تفعل، تحمّل العواقب...!

هذه الشمس، هذه الشمس، هذه الشمس...! لم يلمسوا "كوتشاريتا" ولا "المجنون" هيجيراس مجرد لمس. ماذا يريد، إبنا القحبة هذين، أكثر من أن يموتا خلال يوم واحد! مستحيل!، صرخ النقيب باسوركو. حبسوهما في قفصين من جذوع الأشجار، أضيق من تابوتٍ، وأكبر من



t.me/qurssan

مهدٍ، مصنوعين من جذوع صغيرة ذات عُقَدٍ تنغرسُ في اللحم، وأغصانٍ مقشورةٍ تسهِّل دخول الشمس، هذه الشمس!، وعرضوا القفصين في ميدان قرية مستعمرة السيبا: في أحدهما "المجنون" هيجيراس، وفي الآخر "كوتشاريتا"، عاريين تماما. شمّسوهما أياما وأياما. دون طعام، ولا ماء! سوّدت الشمس جلديهما على نارٍ هادئة. ماء!، تضرّعا من أعماق قبريهما المشمسين. ماء! - زاما لا يكادان يُسمعان، من الجروح المتقيّحة لجسديهما المُزرقّين من الشمس -. ماء! شهقا ليل نهار إزاء لامبالاة قاطني القرية الذين لا ينظرون، ولا يسمعون، إزاء الأطفال الذين يلعبون عميانا حولهما، وإزاء لاعبي كرة السيبا وأتالايا الذين على مبعدة أمتار، يتنافسون على الكأس البرونزية الصغيرة لمباراة وديّة. "عقوبةٌ نموذجية، اللعنة، حتى لا يخجل سيدي الجنرال من ابنه بالعماد باسوركو!"، والجسدان يوشكان على التعفّن تحت الشمس والديدان تتساقط مثل الدموع من الوجه بلا وجهٍ لـ"المجنون" هيجيراس. نظراتٌ لا تبكي شيئا فمن عيني "كوتشاريتا" لم يكن ينظر كوتشاريتا بل عيونُ ملايين وملايين البشر الذين يموتون دون عدل، ملايين المقتولين الذين لابد أنهم يشرعون في الميلاد، ملايين الضحايا من البشر الذين لابد أنهم يتحدّون القانون، القانون، القانون، الذين سيولدون ذات يوم. بجهدٍ رَمش بجفنيه وفي وهج قيظِ الظهيرة، فوق المياه المعدنية، متأرجحا دون محرك، تبيّن اللنش، رأي بزّاتٍ عسكرية.


t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 26. سانتياجو يشرعُ في الجري تحت المطر

- سانتياجو، آمرُك بالسفر إلى البيرو خلال ثلاثة أيام. ستغادرُ مع مجموعة ماريو. وإذا لم تفعل، تحمّل العواقب...!

شعرت بألم. ثم، بحزن. لأن كل ما قاله نيكولاس، كلمات تفهّمه التمهيدية كانت عباراتٍ مُعَدَّةٍ لتؤدي إلى ذلك الأمر. نهض نيكولاس واقفا كأن الطاولة لم يعُد عليها أحد. رأيت ظهره العريض يبتعد، بخطوه الوئيد، وربما، على وجهه الذي لم أستطع رؤيته، إيماءة مرارة. نعم هو سيذهب إلى الجبهة، نعم هو سيغادر. لن أراه مرة أخرى. نيكولاس كان أخي، أكثر من أخي. كان؟ الرفاق كانوا عائلتي، أكثر من عائلتي. والنضال، حياتي، أكثر من حياتي. لا أدري لماذا، في صندرة السنين، سمعت الصوتَ الرتيب للمعلم سيرنا وهو يحكي لنا في المدرسة، كانت السنة الرابعة من الثانوية، أن ثمّة يوما تنفصل فيه صغار الحيتان عن أمهاتها إلى الأبد، وفي وحشة المحيطات تسبحُ



t.me/qurssan

ساعاتٍ وساعات في دوائر، يبدو أنها تئن، تتحسّر، بعدها تضيع كبار الحيتان وصغار الحيتان في المسافات. كرهتُ ماري كلير التي أبعدتني عن رفاقي، أحببتُ ماري كلير التي أبعدتني عن رفاقي، أحببتها وكرهتها وأحببتها. واصلت الشراب. أنهيت زجاجتي وظللت ناظرا إلى زجاجة نيكولاس. كنت بحاجة إلى السكر، لكنني لم أجرؤ على لمس نبيذه. أنا الذي في كل الأوقات كنت أستخدم أشياءه، بنفس الألفة التي يستخدم بها هو أشيائي، أنا الذي طوال كل تلك السنوات كنت قد شاركته الملابس، والطعام، والساعاتِ المرة أو المفعمة بالأمل، والنقود التي نحفظها في عُلَب صغيرة حين كنا نجمع الصحف القديمة في باريس، لم اكن أجرؤ الآن على الشرب من زجاجته. طلبتُ زجاجةً أخرى. وضعها الجرسون على الطاولة. لم ألمسها. شربت نبيذه، رفعت الكأس وشربت نخبا منفردا:

- في صحتك، يا نيكولاس، نخبك، يا أخي...! لأنك يوما ما ستفهمُ ما لا تريدُ فهمَه الآن!

"وإذا لم تفعل، تحمّل العواقب!" في نظرته التمع التهديد. هل أصبحوا يعتبرونني خطرا على "الحركة"؟ حاولت أن أعلّل كمناضل، ماذا كنت سأفعل لو كنت مكان نيكولاس؟ سيكون تقريري إلى القيادة نزيها، نزيها بقسوة. لو كنت أنا هو، لو استمعت إلى تعليلاتي على لسانه، لو كان عليّ أن أقرّر في القيادة القومية، هل كنت سأعتبرني مناضلا ضالاً، واقعاً في المثالية، كما يمكن أن يقول هو عني، أم هاربا، أم أسوأ، خائنا، خطرا على "الحركة"؟ نعم، كنت سأعتبر نيكولاس خطرا، هاربا، خائنا. كنت سأتصرف مثله وربما بصرامة أشدّ. المناضل لا يمكنه التصرف في حياته. إنه يخصّ الحزب. وحين يعصي يُعرّض كلّ المنظمة لخطر جسيم. وبدرجة أكبر عشيةَ كفاح مسلح. أمام عينيّ عبَر الوجهان المهمومان لإيوسيبيو وأندريس، الرفيقين البوليفيين اللذين، في طريقهما إلى الجبال، بقيا في باريس. بدآ يختلفان وهما لا



t.me/qurssan

يـزالان في كوبـا: وفيـما بينهـما اتفقـا، منفرديـن، وسرا، عـلى أن مذهـبَ بـؤرةِ مقاتـلي العصابـات خطـأ. كانـا متماهيـن في البدايـة مـع أطروحـة أن "شرارةً يمكـن أن تُشـعِل مَرجـاً"، لكنهـما أدركا لاحقـا أن حـربَ العصابـات، المطروحـة عـلى ذلـك النحـو، أن نضـالَ حفنـةٍ مـن الرجـال المنفصلـين عـن نضـال الجماهـير، كان خطـأً قاتـلا، بطولـةً لا مجديـة. يجـب أن تتحـرك العصابـاتُ المقاتلـة مثـل السـمك في المـاء، نعـم، لكـن المـاء، بمعنـى الطبقـة الفلاحيـة، كان نائمـا. لم يتجاسرا عـلى الاختـلافِ بصـوت عـالٍ وهـما في كوبا. لكنهـما فعـلا في باريـس. وكان الجـواب عـلى شـكوكهما فوريـا: أن يغـادرا في اليـوم التـالي إلى الجبهـة. رفـض إيوسـيبيو وأندريـس. فحكـم عليهـما الحزبُ بالمـوت. كانـت أجهـزة الأمـن في بلدهـما تبحـث عنهـما كمقاتـلي عصابـات: لم يكونـا قادريـن عـلى العـودة إلى بوليفيـا "نظيفـين"، كـما لم يكونـا قادريـن عـلى البقـاء في فرنسـا. كان الحـزب قـد اتخـذ احتياطاتـه. كان إيوسـيبيو وأندريـس قـد خرجـا مـن بوليفيـا بجـوازي سـفرهما الحقيقيـين؛ لم يكونـوا قـد زوّدوهـما بجـوازي سـفرٍ آخريـن عـن عمـد، وكانـت هاتـان الوثيقتـان المختومتـان والمسـجلتان هـما كل مـا يملكانـه. كانـت الشرطـة الفرنسـية أيضـا تعرفهـما! لم يكونـا يسـتطيعان البقـاء، ولا الخـروج مـن فرنسـا. ومطـاردان، فضـلا عـن ذلـك، مـن رفاقهـم ذاتهـم، ملاحقـان مـن منظمتهـم ذاتهـا، كان يعيشـان يومـا بيـوم. وذات ليلـة شـتائية طرقـا بـابي:

- يـا رفيـق سـانتياجو، هـل تذكرنـا؟ كنـا معـك في نفـس المعسـكر في سـييرا كريسـتال... هـل يمكـن أن تؤوينـا هـذه الليلـة فقـط...؟

- أنا لا أخبيء فارين.

- سـانتياجو، لسـنا فاريـن. لـو أعطيتنـا بضـع دقائـق لشرحنـا لـك موقفنـا...

- ليس ثمة ما يمكن شرحه!

أغلقتُ الباب في وجهيهما.



t.me/qurssan

هـل أصبحـتُ أنـا الآن قرينـاً لإيوسـيبيو، أو أندريـس؟ إذا ذهبـتُ الليلـة ذاتهـا إلى منـزل إيـان أو ماريـو، هـل يغلقـان البـاب في وجهـي؟ أم يفتحانـه لأن مـن الأفضـل أن يضعـا أيديهـما عـلىّ لكـوني محكومـا عـليّ؟ هـل يبحثـون عنـي الآن؟هـل ينتظـر رفاقـي ذاتهـم خروجـي عـلى بـاب هـذا البـار. دارت في رأسي دوامـةٌ مـن الذكريـات. انضباطنـا حديـدي، لابـد أن يكـون حديديـا، لكننـا نحـن مـن نطبِّقـه أو نتحمَّلـه، هـل نحـن مـن حديـد؟ الوجـه الضاحـكُ، المتوقـد، السـاخر، المتهكـم، الأخـوي للاينيـث، ألم يتحـول إلى وجـهٍ مـن حديـد حـين قـام، بوصفـه مسـئولا عـن خليـة المسجونين السياسـيين في مديريـة شرطـة ليـما، بالحكم عـلى فيليكس دون تحفّـظ؟ لم يكـن فيليكـس قـد تحمـل الاسـتجوابات البوليسـية بالتماسـك الـذي يتطلبـه الحـزب. لم يخنّـا، لكنـه تـصرف بجبن؛ بـكى خـلال استجوابٍ. أعـاده الحـرّاسُ إلى الزنزانـة وقـد أصبـح خرقـةً أثخنتهـا الـركلات، بوجـهٍ منتفـخ ودامٍ. حكـم عليـه لاينيـث بثلاثـين يومـا مـن السـجن داخل السـجن: لم يكـن أحـدٌ ينظـر إليـه أو يحدّثـه أو يـردّ عليـه أو يقـترب منـه طـوال ثلاثـين يومـا لا تنتهـي. لكـن أولئـك الرجـال الأخويـين والذيـن لا يلينـون، أولئـك الرجـال مـن الصلـب والخبـز، كانـوا إخوتـه، إخـوتي. عائلتـي، أكـثر مـن عائلتـي! شـعرت بوجهـي سـاخنا مـن الدمـوع وكرهـتُ مـاري كلـير مـن جديـد. تركـتُ فـوق الطاولـة ورقـة مـن فئـة المائـة فرنـك وخرجـت إلى المطـر. أخفـى مـاءُ السـماء دموعـي فبكيـت وبكيـت وأنـا أقطـع بولفـار سـانت أنطـوان. "آمـرك بالسـفر إلى البـيرو..". كـم مـرّةً تـم اعـتراضُ حيـاتي بتعليـماتٍ مفاجئـة، وتعديلهـا بأوامـر أطعتُهـا دومـا دون نقـاش. لكـن هـذه المـرة كان أمـرُ الحـزب، "الأمـر"، يتعـارض مـع أمـري الخـاص، "أمـر" رغبتـي. فمـن أطيـع؟ ولمـاذا أطيـع، لمـاذا أواصـل الخضـوع؟ في الطفولـة أطعـتُ أبـويّ؛ وفي المدرسـة معلّمـيّ؛ وفي زمـن التجنيـد ضباطـي؛ وفي الجامعـة أسـاتذتي؛ وفي الحـزب قـادتي، اللجنـة المركزيـة. كانـت حيـاتي بكاملهـا، في العمـق، طاعـةً واحـدة، غـير منقطعـة، بالغـة الطـول. راكعـا، أصـلي في قـدّاس المدرسـة، سـمعتُ صـوت الأب بريسـثيا يعـظ: "وحـدث



t.me/qurssan

بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبرهيم. فقال له يا إبرهيم. فقال هأنذا. فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق واذهب إلى أرض المُريا وأصعده هناك مُحرقة على أحد الجبال الذي أقول لك. فبكر إبرهيم صباحا وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحق ابنه وشقّق حطبا لمُحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله. وفي اليوم الثالث رفع إبرهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد. فقال إبرهيم لغلاميه اجلسا أنتما ههنا مع الحمار. وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما. فأخذ إبرهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين. فذهبا كلاهما معا. وكلّم إسحق إبرهيم أباه وقال يا أبي. فقال هأنذا يا ابني. فقال هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبرهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني. فذهبا كلاهما معا.

فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبرهيم المذبح ورتّب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مدّ إبرهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبرهيم إبرهيم. فقال هأنذا. فقال لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا. لأني الآن علمت أنك خائفٌ الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنّي. فرفع إبرهيم عينيه ونظر وإذا كبشٌ وراءه مُمْسَكا في الغابة بقرنيه. فذهب إبرهيم وأخذ الكبش وأصعده مُحرقة عوضا عن ابنه..". دوّى الأب بريسـثيا مجلجلا، وأخذ السكين ليذبح ابنه. ارتعشت العباءة السوداء، الأنثوية، للأب بريسثيا، وللمفارقة، أنارتني عباءته الغارقة في الحداد. الآن فهمتُ غلطة ذلك "الأمر" الوحشي الذي يتطلب لاختبار الحب التضحية بالحب، تلك العذوبة التي تتغذّى على الموت. في مواجهتي رفع الرب، الوطن، أبواي، العائلة، الحزب وجوههم المُنذِرة، تعليماتهم القاتلة. أنا، الرب، إلهك، إلهٌ غيور، أفتقدُ ذنوبَ الأباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع ...! "وإذا لم



t.me/qurssan

تفعل، تحمل العواقب". لكني بالفعل قد دفعتُ ثمنَ العواقب. من لحظة الميلاد، وحتى قبلها، سددّت الديون. منذ قرون وقرون، أجيال وأجيال، وأنا أسدّد ذنبا أجهله. طاعة الوالدين، طاعة المعلمين، طاعة الحزب، قتل بشرٍ آخرين من أجل طاعة وطني أو حزبي. الطاعة، الطاعة، الطاعة! أطاع جدّي أبا جدي: هجرَ المرأةَ التي أحبها ليتزوج مجهولةً لم يخترها دمُه. فذبلت بهجتُه إلى الأبد: عاش جدي ومات مدمنا للكحول. وفي احتضاره كان ينادي "كونثبثيون، كونثبثيون!"، على المرأة التي كانت بعد خمسين سنة مازالت تشتعل في قلبه الذي يخمد. والآن كانت الحركة تأمرني بأن أجمع، بيدي ذاتها، الحطب من أجل المحرقة، وأربط وأضع فوقها أبدع ما في وجودي. لا! سأعصي. سأتمرد. وسأبدأ بعصيان نفسي. لأن الأوامر الأولى وُلدت من داخلي. فالدكتاتورية التي تخنق رغباتي، وتقمع دوافعي، وتُنكر عليّ الحياة، كانت قد وصلت إلى السلطة لأنني كنت شريكها المتواطيء. ودون تعاوني، دون سلبيتي، ما كانت لتسودَ أبدا في روحي. كنت أنا خائنَ نفسي. كنت قد أنزلتُ الجسرَ المتحرك حتى تعبر "الطاعة" الخنادق لتستولي على القلعة التي تستعد فيها رغبتي الآن للمقاومة! فكرت في كل أسلافي، وفي أسلاف أسلافي، المسيطرينَ الخاضعين المساكين! الحراسِ المعصوبين البائسين! المدينينَ الأبديين التعسين! وسحقني المغزى الحقيقيُ للدين الأبدي، هذه الاستعارة المشئومة التي بفضلها،كما يقول نيتشه، تمكنت "المسيحية" من إخضاع الأرواح. لقد ضحى الربُّ بنفسه ليخلصنا من خطايانا. هو، البراءة والخير اللانهائيان، مات بذنب ذنوبنا. "قدّم الدائنُ نفسَه لمدينه بدافع الحب. من سيصدق؟ بدافع الحب لمدينه...!" ونحن، الخاطئون، نَدينُ له بموته... فكيف سنستطيع، نحن، الخاطئون المساكين، أن ندفع ثمن موت الرب، ذلك الدَّين اللانهائي؟ وطالما بقيت لنا حياة، سنظل مدينين. ولا حتى بمائة ألف وجودٍ سنبلغُ حدّ دفع هذا الدين بلا نهاية! كان صوت الأب بريستيا يدوّي في الكنيسة حيث كنّا نرتعدُ من الخوف أكثر مما من



t.me/qurssan

البرد. لا! لـن أقـدم لا للـرب ولا للحـزب ولا لأحـد، لا للأحيـاء ولا للمـوتى، تلـك المحرقـة العبثيـة! رفضـتُ أن أقبـل الدَّيـن! لسـت مدينـا؛ بالعكـس: فأنـا دائـن! يدينـون لي بطغيـان أبـويّ، بالحـب المغتـال لجـدي، بعذابـات طفولتـي، بأيـام شـبابي بـلا امـرأة، بليـالي البطولـة اللانهائيـة للكفـاح السرّي، بحـسراتي، بالحيـوات التـي تخليـت عـن عيشـها، بعجائـب العـالم التـي لم ترهـا عينـاي لأن نظـراتي لم تكـن تـرى سـوى الكراهيـة، والذنـب، والمعانـاة، والسـخاء الـكابي دون ثمـار! رفضـت "الالتـزام الكئيـب" الـذي أبرمه باسـمي "أحـدٌ" لم أرخِّـص لـه أبـدا! منـذ آلآف السـنين، كان أفَـاقٌ، أفاقـون كثـيرون، مجتمعـين في ظلمـةٍ رطبـةٍ لأحـد الكهـوف، وفـوق الجلـد المنتـزَع مـن وحـشٍ مـازال ينبـضُ، قـد وشـموا الكتابـة المشـئومة "للطاعـة". وتحـت هـذا الـ"مديـن" دون "دائـن"، تحـت هـذا الالتـزام لآلاف السـنين المنظـورة، تحـت كشـف الحسـاب ذاك المقبـول إلى الأبـد، كانـوا قـد زيَّفـوا توقيعـي. نعـم! سـأتمرد! سـألقي السـكينَ وأبعـثرُ أعـوادَ الحطـب! لـن أطيـع! لـن أعـاود الطاعـة أبـدا...! وانطلقـتُ أجـري تحـت المطـر صائحـا، مثلـما منـذ ثمانـين عامـا: "كونتشيـون! كونتشيـون!"



t.me/qurssan

t.me/qurssan

## 27. ماري كلير تُعيدُ قراءة "البوبول فوه" للمرة الأولى

وصعدتُ الدَرَج صارخا "ماري كلير! ماري كلير!" لاهثا أخرجتُ المفتاح، وتحيّرتُ في الفتح، وأخيرا فتحتُ، دخلتُ، وعبرتُ فوضى الاسطوانات والكتب في الصالة الصغيرة، وعلى الأرض ميّزتُ الاسطوانة الكبيرة "كونستروساو" لتشيكو بواركي[83]، وحشدا من الوسائد الصغيرة مكسوة بأقمشة هندية. أتذكر جيدا: حشدٌ من الوسائد. وبلوفر بني. أتذكر جيدا: بنّي. تسابقَت كلُّ حيواتي في داخلي، في تلك الرغبة التي كُنتُها. تقدمتُ نحو باب غرفة النوم. فوق الفراش رأيت ورقة من الورق البرتقالي. أتذكر جيدا: برتقالي. قرأتها". ياحبي، حبي الوحيد، اليوم أبدأ من جديد قراءاتي في "المكتبة الوطنية"، هذا لو استطعت، بالطبع، أن أرى الحروف وليس وجهك. أحببتك منذ التقينا للمرة الأولى، هناك في المجرة الثالثة. ومازلت أحبك". ووقّعَت بزهرة رائعة. شعرتُ بالخواء، لكنني ابتسمتُ. أتذكر جيدا: ابتسمت. ولتهدئة قلقي عدت



t.me/qurssan

إلى الصالـة ووضعـت في الجراموفـون أسـطوانة تشـيكو بـوارك. وبينـما تنبعـث النغـمات الأولى مـن أغنيـة

"Amou doquela vez como sse fo'sse a u'ltima",

هـدّأت روعـي الذاكـرةُ. ففـي هـذه الصالـة، ونحـن نسـتمع إلى هـذه الأغنيـة ذاتهـا، كانـت مـاري كلـير قـد قالـت لي أن حبنـا هـو استمرارٌ لحبٍ بدأنـاه في مجـرّات أخـرى، وأننـا حتـى لـو اضطررنـا للانفصـال نهائيـا، فـإن انفصالنـا وحتـى موتنـا لـن يكونـا سـوى لحظـة بـين لقاءيـن.

- وليـس مـن الـضروري حتـى أن نعـاود الالتقـاء كبشر. فسـوف نلتقـي - ضحكَـت - عـلى أيـة حـال؛ سـنلتقي كأسـماك، كأحجـار، كأشـجار...

- سـتكون خسـارةً - قلـت لهـا - أن نسـتيقظ شـجرتين لكـن في غابتـين مختلفتـين.

انفجرت ماري كلير في القهقهة:

- عـلام تقلـق، يـا سـانتياجو؟ ألا تعـرف أن الأشـجار تمـشي؟ الأنـواعُ النباتيـة ليسـت بـلا حـراك. ورغـم أنهـا قـد تسـتغرق عقـودا أو قرونـا في التقـدم مسـافةً، فإنهـا تتحـرك، تصعـد، وتهبـط سـفوحا، وتعـبر سـهولا، كـما تشـتبك في حـروب قاتلـة مـع عائـلات أخـرى، وتتنـازع عـلى الأراضي وتطـرد بعضهـا منهـا. تتحـرك! كيـف يمكنـك أن تفـترض أننـا لـن نلتقـي مـن جديـد؟

أحزنتنـي الأغنيـة النفّـاذة - أو ربمـا غيـاب مـاري كلـير؟ -. ومصابـا بالـدوار مـن أثـر النبيـذ، اسـتلقيتُ عـلى الوسـائد المتناثـرة عـلى الأرض. تعـثر كوعـي قـرب المدفـأة، بترجمـة لكتـاب "الـبوبول فُوه". بالطبـع، كنـت أعـرف الطبعـة الرائعـة بالقشـتالية للمكسـيكي ميديـث بوليـو. وكي أفعـل شيئا بـدأتُ قـراءة التصديـر بالفرنسـية. رأيـت المقدمـة، بخطـوطٍ تحـت الـكلام، وملاحظـاتٍ عـلى الهامـش - بخـط مـاري كلـير! -، تؤكـد أن "الـبوبول فُوه هـو أقـدم وثيقـة عـن تاريـخ الإنسـان، وهـو أقـدم حتى من



t.me/qurssan

"الريـج ڤيـدا" وكذلـك مـن "الزنـد أڤسـتا"، اللذيـن يُعدّان أقـدم النصوص المقدسـة للإنسـانية". ظـل تشـيكو بـواركي يُـصرُّ، هـذه المـرة بصحبـة كورسٍ مؤلمـة. واصلـت تصفُّـح "الـپوپول ڤوه"، الممتـلىء بملاحظـات مـاري كلـير وأسـعدني اهتمامها بتاريـخ أسـلافي السـابقين عـلى كولومبـوس. بـذكاءٍ خـطّ قلمهـا الرصـاص أن "مونتـاني وديـكارت كانـا يزعـمان أن الأمريـكي هـو نمـط الإنسـان بـلا تاريـخ"، لكـن "الـپوپول ڤوه يوضـح ضخامـة خطئهـما". وشـدّد خطـان سـميكان عـلى أن "هنـود المايـا كيتشـيه لم يكـن لهـم تاريـخ فحسـب: بـل كانـوا يعيشـون في اسـتمرارية دائمـة مـع ماضيهـم". دون أن تبـوح لي بذلـك، كانـت مـاري كلـير، التـي تزعـم أنهـا بـلا مـاضٍ، قـد شرعـت تسـير في مـاضيّ أنـا، هـل يعنـي ذلـك، في مسـتقبلنا؟

لكـن لم تكـن الموسـيقى هـي مـا يقلقنـي بـل كـون السـاعة قـد بلغـت العـاشرة مسـاء وأنـا أعـرف أن المكتبـة تُغلـق في السـابعة. لمـاذا لا تصـل مـاري كلير؟لمـاذا لا يشـعر جسـدي، الـذي عـرف دومـا أيـن يكـون جسـدها، بأنهـا قريبـة؟ كنـت قـادرا عـلى تتبّـع انتقالاتهـا بالتفصيـل. وفي بعـض الأحيـان ، عندمـا تعـودُ مـن تمشـيةٍ مـا، وكي أتسـلّى، كنـت أسـأل عـن مسـارها. وكانـت تبلغنـي بمـا يعرفـه جسـدي: أنهـا قابلـت صديقـةً في ميـدان سـان ميشـيل، وبعـد تنـاول قهـوة صعـدت البولفـار، وبعـده شـارع جـاي لوسـاك، ثـم شـارع سـان برنـار باتجـاه ميـدان كونترسـكارب. وكـم مـن المـرات قـادني جسـدي، شـاعرا بقربهـا، لانتظارهـا في لا شـوب، ذلـك المقهـي الفظيـع بميـدان كونترسـكارب الـذي يتجمّـل بظهورهـا. لكـن شـيئا كان يقـف الآن بـين جسـدي وجسـدها. كنـت أعـرف أنهـا قريبـةٌ لكـن دون تحديـدِ أيـن هـي بالضبـط. فاجـأني حفيـف المفتـاح في الكالـون. انفتـح البـابُ بابتهـاج ليفسـح الطريـقَ للابتهـاج، لذراعـيّ الابتهـاج اللذيـن امتـدا تجاهـي، اللذيـن ضـمّاني مـن بـين الوسـائد، اللذيـن انضفـرا حـول عنقـي، اللذيـن اسـتأصلا كل شيء، اللذيـن بـدّدا كل قلـق.

- سانتياجو، حبي.



t.me/qurssan

وقبلتنـي. قبلتنـي. أردتُ أن أقـول لهـا لا أدري مـاذا. فلـم يدعنـي فمُها في فمـي أتكلـم. لم يدعنـي بطنُها في بطنـي أفكّر. نهداها المتّقـدان، جسدُها كشـعلةٍ مـن شـهدٍ، ثيابُها التي تتسـاقط كالرمـاد، عريُهـا المباغت، لم تدعنـي أتنفـس. سـقطنا في هاويـةٍ إلى قـاع لـذةٍ مُلحّـة. امتلكتهـا بغضب. بتعجُّـل غريـقٍ جذبَتها يـداي إلى آخـر المحيطـات. ولم يصعـد جسـدانا ببطءٍ إلى السـطح إلاّ بعدهـا بكثـير، وظـلا راسـيين فـوق رمـال السـجادة، أرادا الراحـة يغطيهـما الزَّبَـدُ، والطحالـبُ، لكننـا لم ندعهـما، سـبحنا مـن جديـد صـوب تلـك الجُـزُر الطافيـة، التـي سـتقيِّدنا بقـاع نفـس اللـذة التـي صـارت أخـرى، ودون أن نـدري إن كنـا ننتمـي للميـاه أم للنسـائم، عـاود جسـدانا الصعـود، عـاودا الرسـو، عـاودا الغـوص بنـا.

نهضـت مـاري كلـير لتوقِـف الجراموفـون الـذي يغنـي للأحـد، في الظـلام. أشـعلَت سـيجارة؛ قلدتُهـا، فامتـزج الدخـان. وكأننـي، وقـد نسـيتُ قسـماتها، كنـت لا أزال أخلـطُ بينهـا وبـين قسـمات وحـشٍ مـن الهاويـة، شـعرتُ بحاجـةٍ ملحـة لرؤيـة وجههـا فأضـأتُ الأباجـورة بجـوار المدفـأة المسـيّجة.

- ألا تـدري أي كتـابٍ راجعـتُ في "المكتبـة"؟ - قالـت بعينـين لامعتـين. ووضعَـت يديهـا فـوق جفنـيّ -: خمّـن! - انفعلَـت.

في الليلـة السـابقة كانـت قـد تحادثـت طويـلا عـن القبّالـة. "مثلـما الـرب في توليفـات القبالـة - كانـت قـد قالـت -، فـإن الـروح في الحـروف. أتعـرف أنـه بالنسـبة لبعـض القباليين، إذا اسـتطاع أحـدٌ أن يقـرأ إصحاحات التـوراه بترتيبهـا الحقيقـي، فسـوف تكـون لهـذا القـارىء القـدرة عـلى بعـث المـوتى؟..". وكانـت قـد حكـت لي أن الحاخـام مائـير، حـين سـأله الحَـبْر الحاخـام إسـماعيل عـن عملـه، وابلغـه هـو أنـه ناسـخ للتـوراه، حـذّره القبـالي: "يـا بنـيّ، احـترس جـدا، فعملـك مقـدّس: إذا حذفـتَ أو أضفـت حرفـا واحـدا، فهـذا الخطـأ يمكـن أن يدمّـر العـالم".



t.me/qurssan

- قرأتِ نصا من نصوص القبالة - قلت لها.

- أخطأتَ! - قالت -. كنت أراجع نصا من نصوصكم. اليوم اكتشفتُ "البوپول ڤوه". ياله من كتاب! هل تتفق معي في أن الأمر كان يستحق عناء أن أستخدم هذه الأمسية لأبدأ في ذلك النص الرائع. حتى اليوم لم أكن أتخيل أن من الممكن وجود شيء كهذا في أمريكا. و قد أُبدِع هذا قبل "الفتح الإسباني"! كنت أجهل أن "البوپول ڤوه" هو أقدمُ كتابٍ مقدس لدى الإنسانية، سابق حتي على "الريج ڤيدا" وعلى "الزند أڤستا". وإذا فكرت أن مونتاني وديكارت، المركزيين الأوروبيين في نهاية المطاف، كانا يؤكدان أن الأمريكي إنسانٌ بلا تاريخ...

- لم يكن لهم تاريخٌ فحسب - قلت لها، متذكرا خطوطها تحت الكلام في الترجمة الفرنسية -، بل كانوا يعيشون في استمرارية دائمة مع ماضيهم، وكان هذا موطن عظمتهم، كما كان مقتلهم. لأن الإسبان حين وصلوا إلى المكسيك، اعتقد الأزتيك أنهم الآلهة العتيقة تعود. و حدث نفس الشيء مع هنود الإنكا.

- الإنكا؟ - استغربت -. هل كان لدى الإنكا نفس مفهوم الزمن الذي لدي المايا؟

- لم يكن لدي الإنكا نفس المفهوم الدوري للزمن، لكنهم كانوا يعيشون في استمرارية تاريخية مماثلة.

- لكن لم يكن لديهم كتابة - لاحظت ماري كلير.

أجبرتُ نفسي على نزع عينيّ عن نسخة "البوپول ڤوه" خلفها، قرب المدفأة، وحدّدتُ:

- كان الإنكا يحفظون تاريخهم بتقاليد شفاهية. وخلال إمبراطورية الإنكا كانت توجد بعض الشخصيات يطلق عليها الكيپوكامايو، ربما كانوا موظفين، وربما شعراءَ ملحميين، وربما مؤرخين، كان أباطرة الإنكا يقلّدونهم الامتياز الرهيب لحفظ ذاكرة إمبراطوريتهم.



t.me/qurssan

- لماذا هو امتياز رهيب؟

- لأن أي واحد من الكيپوكامايو إذا نسي شذرةً من الماضي كان يحكمُ عليه بالموت دون رحمة. كان الكيپوكامايو يتعلّمون استخدام حبال الكيپو، وهي حبالٌ معقودة وفق مبادىء نجهلها. يبدو أن ألوان تلك الخيوط، تلك العقد، تحدِّد الحِقب. كانت الخيوط الحمراء تناظر حقبة المدينة الحرة، والبنفسجية تناظر حقبة الزعماء، السادة، والقرمزية ترمز إلى حقبة حضارة الإنكا. وفي حبال كيپو الحرب، كانت الخيوط الخضراء تشير إلى المهزومين والكستنائية إلى المنتصرين. وكان الأحمر هو الحرب. وكان الأسود هو الزمن. ويبدو أنهم كانوا يحفظون التاريخ حتى عمق أربعمائة عام...

كنت أتكلم من أجل الكلام. عارفا أنها لم تقض الأمسية في "المكتبة الوطنية"، أنها لم تقرأ "الـپوپول ڤوه" هذا المساء، ومتماهيا مع هلع كيپوكامايو فقدَ الذاكرة فجأة، كنت ألخبِطُ ألوان خيوطي، وأخلط بين عُقدي. ياللكيپوكامايو التعس الذي انتزعوا منه عقدةً محورية، لونا محوريا، ولم يعد يعرف أن الأحمرَ يعني الحرب، والأسودَ الزمن، والبنفسجيَ الشك، والأصفرَ الخداع، والأخضرَ الخيانة، والأزرقَ الغيرة! ، الشاعرِ الملحميّ البائس الذي لم تكن ذاكرتهُ قادرةً على أن تتسع حتى لتاريخ أمسيةٍ واحدة!



t.me/qurssan

# 28. الزعيم سيبيرو يكتشفُ محارباً زائداً بين محاربيه

- ماذا يقولون في طوكيو؟ - أبديتُ اهتماما.

- إشتروا الحقوق الحصرية لكل الأفلام السابقة لريجان.

- وميتران؟

- أوه، لا، لا! - كان هذا كلّ ما صرّح به.

- والبابا؟

- "أسهلُ على رئيسٍ أن يدخل من ثقب الإبرة من أن يخرج من كوبا".

- وماذا يقول فيديل؟

- يقول أنه كان قد توقع ذلك، أن ريجان - بدل تضييع الوقت في الحروب البكتيريولوجية وقنابل النيوترون - يجب أن يعود إلى مهنته الأصلية: السينما. قال أنه "في كوبا، سيكون لريجان عملٌ بأجرٍ عادل



t.me/qurssan

لأنه لا يوجد بيننا لا بطالةٌ ولا استغلال ولا تمييز. وإذا رغب رونالد، يمكنه الحصول على دور نجم في إنتاجنا التاريخي الكبير القادم "الخنازير في خليج الخنازير". لن تواجه ريجان صعوبات؛ وقد تحادثتُ مع موظفي معهد السينما الثورية، الذين أكدوا لي أنهم، مثل كل الشيوعيين الكوبيين، شيوعيون وكوبيون، لكنهم ليسوا طائفيين. وإذا قبل رونالد، لن تكون ثمة مشكلةٌ مع الملابس لأن لدينا الكثير من الحُلل العسكرية الأمريكية الشمالية التي استولينا عليها من حفنة الديدان التي تم إنزالها في خليج الخنازير. وبالنسبة للخيول، فإنني في وضع يتيح لي التأكيد على أن رونالد في الفيلم، سيكونُ الوحيدَ الذي يهبط من السفينة على صهوة حصان، وأن الباقين جميعا سيستسلمون على الأقدام..".

مفاجئنا حتى مخابرات كوبا، كان الرئيس (أو الرئيس السابق) رونالد ريجان قد هبط من السفينة على شاطيء باراديرو وطلب اللجوءَ السياسي. وعند إجراء حوار معه في هافانا، حصريا من جانب پرنسا لاتينا، كان ريجان واضحا ومقتضبا: "**إخترت الحرية**"، قال. وأضاف: "**أثق في أن الشيوعيين يعرفون كيف يغفرون**". "طيلة حياتي كنت أرغب في العيش في بلدٍ حرّ. وهو حلمٌ مستحيل في بلد إمبريالي. أعرف عمّ أتحدث. و مثل مارتي يمكنني القول: "لقد عشتُ في أحشاء الوحش". لستُ أثق فقط في أن الشيوعيين يعرفون كيف يغفرون بل في أنهم سيمنحوني الفرصة لبدء حياة جديدة".

بلغ سعرُ صرف الپيسو الكوبي في وول ستريت دولارين وثلاثين سنتا وتسابق المضاربون على الموجودات المتاحة من روم "كاني". أما روم "باكاردي" فلا يمكن الحصول عليه بأي سعر.

فرغنا من قراءة الأخبار. أطللنا متعانقين ومازلنا نضحك من نافذة غرفة النوم، فتحتها هي على مصراعيها.



t.me/qurssan

- ياله من يوم جميل!

- لِمَ لا نجعلـه أجمـل ونخـرج لنتمـشّى؟ وحيـث يقرصنـا الجـوع نـأكل بيتـزا...

- رائـع، لنخـرج! - صاحـت مـاري كلـير -؛ لكـن بـدل أن نمـشي بـلا هـدف، أقـترح عليـك أن نعـاود رؤيـة "سـيدة وحيـد القـرن" في متحـف كلـوني.

في الطريـق، مقابـل مقهـى فلـور، أوقفنـي صـوتٌ مـرح؛ إنـه رولـدان الـذي كان خارجـا مـن المقهـى، الـذي يـكاد يجـري صـوبي، الـذي احتضنني، الـذي ضمنـي بقـوة إلى معطفـه الطويـل مـن جلـد الثعلـب. أبهجنـي أن أراه.

- منذ متى يرتدي البيروانيّون الشماليون زيّ الروس؟ - قلت له.

- ومنـذ متـى يمـضي قحـاف الجنـوب مـع فرنسـيات مثـيرات لـكل هـذا الاهتـمام؟ - أجابنـي بـين القهقهات.

قدّمتهما.

- آه، حضرتـك النّحّـات الشـهير؟ - أبـدَت مـاري كلـير الاهتـمام -؛ لقـد رأيـتُ الكثـير مـن أعمالـك، لكنني كنـت أودّ الإعجـابَ بالعمـل الأول...

- أعمالي الأولى، للأسف، معروضةٌ في متحف الفن الحديث بنيويورك.

- لا أظـن - قالـت هـي -، فعملـك العظيـمُ الأول لا يمكـن تأملـه. أعرف، مـن سـانتياجو، أنـه قنـاع مـن الجـص، عمـلٌ رائـعٌ لايمكننـا الإعجـاب بـه حتـى تقـرر جبانـة ليـما تنظيـم معـرض للنحـت تحـت - الأرضي.

ضحكنـا ثلاثتنـا. دعانـا خيلبرتـو رولـدان، الفـارع، المتدفـق الحيويـة، الـذي لوّحتـه الشـمس منـذ مولـده، إلى الدخـول إلى مقهـى فلـور. بمـاري كلـير تحـت ذراعـه اليمنـى وأنـا تحـت ذراعـه اليسرى أدخلنـا إلى المقهـى: بـين مناضـدَ مزدحمـةٍ بالفنانـين، والكُتّـاب، والسـياح الذيـن كانـوا منـذ



t.me/qurssan

ثلاثين عاما ينتظرون ظهور سارتر، وكامو، وسيمون دى بوفوار، وفتيانٍ بالغي الأناقة يصطادون رجالا فاتري الهمة مثلهم، ومخترقين الدخان، بلغنا طاولة رولدان.

- فلورنس، حيي أصدقائي - أمر خيلبرتو مبتسما المرأةَ الجميلة الجالسة على طاولته. ابتسم لنا جمالٌ فارع وممتلىء، بسيطٌ وباذخ، بشعرٍ كستنائي مفرود، وعينين وقحتين وعذبتين بلون النعناع. ودون أن يستشير أحدا، طلب رولدان شمبانيا، وشرب نخبَ اللقاء، ونخبنا، نخبَ فلورنس، ونخبي، نخب رحلاته، ونخب نفسه، نخب الحياة، اللعنة!، ونخبَ نفسه، نخب المستشار بقناع الجص، ونخبنا، نخبَ نهر المارانيون، إلى حيث سأعودُ قريبا، ونخب سكانه المضيافين: هنود الخيبارو، أصدقائي قاطعي الرؤوس!، ومرةً أخرى نخبَ نفسي، وحتى يقطعوا في المرة القادمة رؤوس النقّاد الحسودين الذين يعتبرونني ثاني نحاتٍ في العالم!، ونخبكِ، يا فلورنس، ياحبي! - صاح، جاذبا إياها نحو صدره، نخبكِ، يا فلورنس، رغم أنك تواصلين خيانتي مع زوجك...!

وحين فرغت الزجاجة، وأيضا دون أن يطلب رأينا، أمرنا بمرح:

- أيها المُجنّدون، أدعوكم على الغداء!

وصاحبا على الدوام أجبرنا على الخروج وعبور بولفار سان جيرمان ورسا بنا على إحدى موائد مطعم شيه ليپ. وبانتهاء الغداء الرائع، مكثنا مع المشروبات الروحية.

- جيدٌ جدا هذا الكورڤوازييه - تذوّق رولدان -، لكنني في الحقيقة كنت أفضّل قرعةً من الماساتو الجيد التخمير...!

- ما هو الماساتو؟ - سألت فلورنس.

- هو مشروبٌ لهنود إقليم الأمازون البيرواني - رددتُ أنا -. عادةً ما تُعدّه النساءُ الهنديات، وتصنعنه بمضغ درنةٍ شبيهة بالبطاطس،



t.me/qurssan

لكنها أكبر وأكثر أليافا، هي اليوكا، ثم تبصقن فتافيف اليوكا في وعاء يخمّرها فيه لعابهن ذاته...

لعق رولدان شفتيه تلذذا،بينما أبدت فلورنس وماري كلير إيماءات قرف.

- هل شربتَ هذا حضرتك؟ - سألت ماري كلير.

- كان الماساتو واليوكا غذائي طوال شهور وشهور - تباهى رولدان.

- إذن فحضرتك لابد أنك تعرف الغابة جيدا جدا...؟

- بعض الشيء - قال خيلبرتو بتواضع زائف -؛ كنت مستكشفا، وباحثا عن الأخشاب الثمينة، ومحرّرا للأسبوعية المخطوطة "صوت إقليم أونيني"، وصائد فهود سوداء، ومروّض تماسيح، وزوجا لهنديات كثيرات من إقليم نهر التامبو، وفوق كل شيء قريباً روحيا لكارليتوس كاسانابي ...

- كارليتوس كاسانابي؟ - استغربتُ.

- كارليتوس كاسانابي، "العظيم"! - انفعل رولدان -. كارليتوس كاسانابي، سيد إقليم أوكايالي الأعلى، والزوج الذي يقوم بواجبه لمائتي هندية، وكله بالزواج! لأن كارليتوس، الزوج الوفي، رفض دوما اتخاذ رفيقات...

وضع رولدان بطريقة مسرحية مِبسما من العاج المصفرّ المنقوش، وأشعل سيجارة دنهيل، ونظر برهة إلى الدخان ثم تابع:

- تعارفنا كارليتوس وأنا ونحن نهربُ من الخدمة العسكرية الإجبارية، في الغابات المجاورة لأرض هنود الكامبا. لم نُرد أن نضيّع عامين من شبابنا في الثكنات. توغلنا مصعّدين في مياه نهر أونيني. لم نكن الوحيدين. فقد تفرقنا عشراتٍ من المراهقين الشاردين بين ذلك الإقليم ومنطقة نهر التامبو. لكن كارليتوس وحده من بلغ



t.me/qurssan

حدّ الإندماج مع قبائل تلك المنطقة حتى وصل إلى أن يكون رئيسا لمجموعة كاملة من المحاربين. لم يكن ليبلغ أقل من ذلك. وتكفي رؤيته لمعرفة أنه وُلد ليكون زعيما هنديا. مع كونه طويلا وضخما كان يبدو أطولَ مما هو. كان ممشوقا وصلبا لكنه، في المقام الأول، ودودٌ بصورةٍ لا تُقاوم. كان قومُه يعبدونه. وأكثرهم أحد أصهاره الزعيم سيبيرو، الذي ربما كان أرهبَ رامٍ بالسهام في إقليم أوكايالي الأعلى. وكان يرعى كلَّ زيجاته. فحيثما حلّ، كان كارليتوس كاسانابي يتزوج. وكان سيبيرو الأبَ الروحي لكل الأعراس. وسرعان ما بلغ عدد زوجاته مائتين. وكلهن يعبدنه. وعرفَ بالأمر شيرامباري، زعيم زعماء قبائل الكامبا التي تتنقل في أراضي الأجمات تلك، وهو ذكر طويل القامة، بارز العظام، هادىء، عميق الأثر. أمر شيرامباري سيبيرو بأن يمثُل أمامه بصحبة كارليتوس كاسانابي لأنه يريد التعرّف على الذكر الذي يكاد يعادله في عدد الزوجات. سأل كارليتوس كاسانابي سيبيرو:

- ماذا نفعل؟ نذهب أم لا نذهب...؟

- يا كارليتوس - أبلغه سيبيرو -، إن ذهبنا، يمكن للزعيم شيرامباري أن يقتلنا، وإن لم نذهب سيبعثُ من يقتلنا. الأفضل أن نذهب. على الأقل، قبل أن تموتَ، ستبلغُ ما لن يستحقه أيُّ أبيض: رؤيةَ وجه زعيم زعماء إقليم الپاخونال الأكبر.

متبوعين بثلاثين محاربا صعدوا ثلاثة أيام عبر التلال. وحين افترضوا أنهم في أراضي شيرامباري بدأوا يمشون في الهواء، بمعنى أنهم لا يثيرون أدنى ضوضاء فوق تلك الأوراق الجافة حيث يثيرُ خطو النملة فضيحة. تنقّلوا في صمت، بهدف مباغتةِ جماعة شيرامباري. لكنهم لم يجدوا أحدا. شيءٌ غير معقول: فحتى الكلاب التي دائما ما تنبّه، لم تنبح. شكّل سيبيرو ومحاربوه دائرة ووضعوا وسطها كارليتوس كاسانابي لحمايته. وفي تلك اللحظة، منبثقين من العدم، طوّقهم رجال شيرامباري. كان زعيمُ الزعماء ينتظرهم في بيته. لم تتحرك جماعة سيبيرو. عاد رجال



t.me/qurssan

شيرامباري إلى أكواخهم، تتبعهم كلابُهم البكماء. غير معقول! دون أن تنبح استلقت على الأرض تحت عتبة المساكن. ثمة شيءٌ لم استطع اكتشافه أبدا: اللحظة المضبوطة التي يمكن فيها للمرء و يجب عليه الذهاب لتحية زعيم الزعماء. إذ يتوجَّبُ انتظارُ إشارةٍ للاقتراب منه، وأنا لم أر في أية لحظة إشارة واحدة. ورغم ذلك، لابد أنها ظهرت في لحظة بعينها، إذ انفصل سيبيرو فجأة عن الجماعة وسار إلى بيت شيرامباري. تبادلا الكلمات الطقسية لتحية الكامپا:

- أويرو؟ - التي تعني: "أهذا أنت؟"

- ناروِي! - التي تَعني: " مازلتُ من أنا".

واحدا تلو الآخر، مر رجال سيبيرو بنفس التحية أمام الزعيم شيرامباري. وفي النهاية اقتاد سيبيرو كارليتوس كاسانابي:

- إنه هو! - قال له.

نظر شيرامباري إلى كارليتوس كاسانابي. لابد أنه نظر إلى روحه، ولابد أنه قد أعجبه لأن عينيه لانتا وأومأ بيده وعلى الفور اقتربت هنديةٌ بقرعةٍ ممتلئة بالماساتو. أخذ شيرامباري الوعاء، ورشف بضع رشفات ثم قدم الباقي إلى كارليتوس كاسانابي. كان يعرف أنه يجب أن يعيده فارغا. وهكذا فعل. وكان يعرف أنه يجب أن يتجشأ بعدها، برضا. وهكذا فعل أيضا. ابتسم شيرامباري ابتسامة عريضة؛ فحوّلت ابتسامتُه كارليتوس كاسانابي إلى ضيفٍ. لن تكون ثمة حرب. عندها بدأت نوبةُ احتساء ماساتو كبرى دامت ثلاثة أيام. وسهرت نساء شيرامباري اللاتي لا تُحصين على الضيوف دون راحة. وعند فجر اليوم الرابع منحهم شيرامباري الإذنَ بالرحيل. أخذ كارليتوس كاسانابي، وسيبيرو، ورجاله يهبطون الجبال ويهبطون. في المقدمة سيبيرو، وفي الخلف كارليتوس كاسانابي. وفي توقُّف للأكل عدَّ سيبيرو رجاله. كان ثمة واحدٌ زائد. ومستغرِبا، شرع ينظرُ في وجوههم واحدا واحدا. زادت



t.me/qurssan

دهشته إلى حد الخوف حين اكتشف أن الزائد واحدةٌ من الزوجات الأساسيات لشيرامباري. سألها سيبيرو قلقا لماذا تتبعهم. فأشارت المرأة إلى كارليتوس كاسانابي:

- إنه هو زوجي.

- عودي! - أمرها سيبيرو.

- لا! - قالت الهندية -. أنا أتبعُ زوجي!

نظر سيبيرو إلى كارليتوس كاسانابي مستفسرا.

- أيها الزعيم سيبيرو: منك تعلّمتُ أن أهم ما في هذه الحياة هو الحب. وهذه المرأة أتي بها الحب.

- أنت تعرف أنها إن جاءت معنا، فهذا يعني الحرب - حذّره سيبيرو.

- ايها الزعيم: أنت من يقرِّر.

- لنواصل - أمر سيبيرو.

ما أن بلغوا أراضيهم حتى بدأ قومُه في ضبط طبولهم وإعداد سهامهم. كانوا يعرفون أن الصراعَ وشيكٌ. وكما توقعوا، بعدها بأيام، ظهر رسولٌ لشيرامباري، مُتقلداً زي الحرب.

- شيرامباري يأمرك بأن تعيد إليه امرأته.

فرد سيبيرو:

- ستبقى. وإذا أراد شيرامباري، فليأت بنفسه ليأخذها.

في اليوم التالي حضر شيرامباري، الذي كان يتقدم بالفعل، مع كل رجاله ونسائه وأطفاله. استمرت المعركةُ الأولى أسابيع؛ والحربُ شهورا. استدعى شيرامباري من جانبٍ وسيبيرو من الآخر محاربيهما وكلّ حلفائهما. وكان الكثير من رجال سيبيرو يعيشون كأجراءٍ، وحطابين، ورعاة، في الضِياع الكبيرة. واستجابوا جميعا لنداء طبوله. من كل



t.me/qurssan

الأرجاء أتى هنود الكامـپا للقتـال. كانـت النسـاء والأطفـال، وسـط النـزاع، يجمعـون السـهام ويـزودون بالمؤن مـن جديـد محـاربي الجانبـين، الذيـن كانـوا يسـقطون ويسـقطون. لأن الكامـپا يقاتلـون وجهـا لوجـه من مسـافة قريبـة جـدا. غـير معقـول! استسـلم شيرامباري في النهايـة! إذ أن حشـود الكامـپا الكبيرة لصاحـب الضيعـة خايمـى پـيريث، الذين جـاءوا فجأة ذات صبـاح، حسـموا انتصـار سـيبيرو. صـارت الغابـات مُدمَّـرةً، مليئـة بالجثـث التـي لم تُدفـن، بالـدم والعظـام عنـد سـطح الأرض. أمـا أراضي الأجـمات حيـث تزدهـر ماشـية أصحـاب الضيـاع، فصـارت أرضـا پورمـا، أي، أرضـا ميتـة، تـلالا جـرداء تحتـضر فيهـا قطعـانٌ و قطعـان مـن الحيوانـات الأليفـة...

عـاودت سـحنة رولـدان، التـي كانـت قـد التهبـت خـلال الحـكي، اسـترخاءها:

- في ذلـك الحـين، حزَنـا خابيـير دابيـلا دورانـد، والأكتـع بينابيـدس، ورافاييـل ميتشـيلينا، وأنـا، العـددَ الأول مـن صحيفـة "صـوت إقليـم أونينـى"، التـي لم تتعـدّ نسـخها أبـدا خمسَ نسخ لأننـا كنـا نكتبهـا بأيدينا. لم تكـن "صـوت إقليـم أونينـى" تُبـاع: بـل تُقـرأ. كنـا نذهـب بأنفسـنا في زوارق، مـن بِركـة إلى أخـرى، ونحـن نقـرأ الأخبـار. أبلـغَ العـددُ الأول عـن نهايـة الحـرب بـين سـيبيرو وشيرامباري ونبّـه إلى أحـدث زيجـة لكارليتـوس كاسـانابي. أتذكـر العبـارة التـي أختُتِـم بهـا الموضـوع الرئيـسي، المكتـوب بعـد اسـتعراض الوحشـةِ التـي سـادت كل الضّيـاع وخصوصـا ضيعـة مـربي الماشـية الغاليـسي دون أندريـس روّا: "في البـيرو توجـد ثـلاثُ مـزارع ماشـيةٍ كـبرى: مزرعـة تشـالا، التـي تمنـح اللحـم، ومزرعـة مارانجـا، التـي تمنـح اللـبن؛ ومزرعـة روّا، التـي تمنـح الأسى".

وعـاود خيلبرتـو رولـدان القهقهـة. كنـا، مـاري كلـير، وفلورنـس، وأنـا، نسـتمع إلى حكايتـه مذهولـين. لكننـي لم أسـتطع متابعـةَ سـماعه. كانـت السـاعة قـد بلغـت الرابعـةَ مسـاء، وهـي السـاعةُ التـي كنـت قـد تواعـدت



t.me/qurssan

فيها لإجراء مكالمة تليفونية مع صديق من "مطبوعات أرتميس" للتأكد من وظيفةٍ محتملة كمصحح بروفات. وعند كابينات التليفون الثلاث عاديت سيدتين وصبيا يافعا كانوا يتكلمون ويتكلمون كأنهم في غرف نومهم. وأخيرا فرغ الصبي المخنث في الكابينة الوسطى من زينته، واستطعتُ إجراء المكالمة. "لا، يا سانتياجو، لا شيء في الوقت الراهن؛ قررَت الإدارةُ هذا الصباح إرجاء مطبوعاتنا الإسبانية حتى العام القادم".

على الطاولة وجدت خيلبرتو رولدان وحيدا ينتهي من تخطيطه على منشفةٍ لوجه فتاةٍ تحتل الطاولة المجاورة. وبينما ينهي لمسات رسمه قال بالقشتالية:

- انتظر برهة، يا سانتياجو، الآن أفرغ من رسم بورتريه هذه المرأة الهائلة! أنظر أية أثداء، وأية مؤخرة، ياله من فم عازفة كلارينيت، وَيحي...!

ثم نهض كدوامةٍ صوب الفتاة وأعطاها الرسم بينما يقول بالفرنسية:

- كان رافاييل يجد موديلاته على هذا النحو، لكن أياً من مادوناته لا يمكن أن تقارن بك..

فأجابته بالقشتالية:

- صورةٌ بديعة. خسارةٌ أنه لا الأثداء ولا المؤخرة تظهر هنا...! ومع ذلك، هل يمكنك أن توقِّع لي عليها...؟

- نعم، سأوقِّع لك عليها - ابتسم رولدان -، لكن برقم تليفوني. أعرفه من الذاكرة لأنه نفس رقم القميص المخطط الذي ألبسوني إياه في سينج ـ سينج بسبب قضية تشهير. ما اسمك، أيتها الأم الصغيرة...؟

- دينيس.



t.me/qurssan

- أؤكـد لـك، يـا دينيـس، أننـي لم أضـع السُّـم لأولئـك الأزواج، ولم أزيِّـف شـهادتي، وأنهـم قـد تركـوا لي كل أملاكهـم عرفانـا بالجميل.

أضاف شيئا لم أسمعه، قبّلها على خدها، ورجع إلى الطاولة.

- وماري كلير؟

- خرجَت بعد فلورنس : تركت لك هذه الرسالة...

أعطـاني مظروفـا مختومـا بخاتـم "شـيه ليــپ". "يـا حبـي، أراك مـسرورا بتذكـر أشـياءٍ مـن بلـدك، مـا يجعلنـي أعتقـد أنـه سـيبهجك مواصلـة الأمسـية مـع صديقِـك. سـأكون في "المكتبـة الوطنيـة". أراك في البيـت بعدهـا. حبيبتـك ، حبيبتـك دومـا، م. ك".

- هل نواصل الأمسية؟ - اقترح خيلبرتو رولدان وهو يدفع الحساب.

اصطحبتـهُ عـن طيـب خاطـر. كنـت أريـد المزيـد مـن الـشراب، أريـد أن أنـسى، أريـد ألاّ أفكـر.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 29. سانتياجو وماري كلير يتمشيان خلال خمسين عاما في حديقة لوكسمبورج

فجأة تساقط الجليدُ. عبر زجاج النوافذ رأيتُ الشارع يكتسي بالأبيض. ذهبتُ إلى الصالة وفتحتُ باب الشرفة. مددتُ يديّ بحثا عن تربيتة الشتاء اللينة. لكن نعومة الجليد المكفهّرة لم تهدئني. ظل الكربُ قائما. أغلقتُ الشرفة، رجعتُ إلى غرفة النوم؛ من أرفف الخشب غير المدهون اخترت كتابا كيفما اتفق، بدأت أتصفحه. لا أدري بعد كم من الوقت انتبهت إلى أن يديّ تقلبان وتعيدان تقليب الأوراق، وأن عينيّ لا تقرآن. أعدتُ الكتاب إلى المكتبة واتجهتُ إلى المطبخ. فتحتُ الثلاجة، أخرجتُ علبة بيرة، وفتحتها. ودون ضرورةٍ صببتُها في كوب، ولم أشربها. عدت إلى الصالة؛ من الشرفة السيئة الإغلاق كان ينفذ هواءٌ مثلج. ظل الكربُ قائما. أطللتُ. كان الجليد يُضَبِّبُ الشارع حيث تتصايح جماعاتٌ من الأطفال بسعادة. ذهبت من جديدٍ إلى المطبخ، فتحتُ الثلاجة، أخرجتُ علبة أخرى من البيرة،



t.me/qurssan

فتحتها، ودون ضرورةٍ صببتها في كوب، ولم أشربها بدورها. "ماذا دهاني؟"، قلت، متأملا الكوبين اللذين لم يتطلّبهما أيّ عطش. فتحتُ الثلاجة مرة أخرى، أخذتُ بضع بيضات، ضربتها، تركتُ الطاسة فوق المنضدة. ماذا يجري؟ رجعتُ إلى الصالة. ظل الكربُ قائماً. فوق رف المدفأة، على ورقة حمراء، كانت تكويني الرسالة. أعدت قراءتها للمرة الثالثة. "يا حبي: اضطررت للخروج لأمرٍ لا يقبل التأجيل. سأشرح لك فيما بعد. قبلاتي". منذ الصباح، منذ ساعة استيقاظي، كانت الرسالة هناك. أغلقتُ باب الشرفة. كان المساء يخيّم. توجهتُ نحو الجراموفون. لا أدري أي موسيقى آلمتني. أين كانت ماري كلير؟أولا كانت "المكتبة الوطنية"، ثم المرضُ المفاجيء لأمها، وبعدها ضرورة أن ترعى ابنة تلك الصديقة التي سافرت إلى ليون. والآن؟ قررتُ الخروج. لا أدري كيف وجدُتني في شارع رو ديزيكول واقفا في طابورٍ على باب سينما، ثم في الظلام في مواجهة الوجه الهاديء، الرزين، المتفوق، والقاسي تقريبا لهمفري بوجارت، والوجه الباكي للورين باكال يستجديه حبّاً. ثم لم أعد أسمعُ شيئا، تتابعت الصورُ مثلما في فيلم صامت، أضيئت أنوارُ الصالة وتقدّمتُ من جديد نحو المدفأة. ظل الكربُ قائماً. ذهبتُ إلى المطبخ، نظرتُ إلى الكوبين الفارغين. في أية لحظة شربتهما؟ شعرتُ بالسُعار. وفي نفس الوقت، بالرغبة. أردتُ ألاّ أريدَ لكن في سروالي كان يؤلمني باضطرادٍ إلحاحٌ مبتلّ. زاد سعاري. ورغبتي. كرهتُ رغبتي التي، ضد إرادتي، كانت تتضرع إلى جسدي. احتقرتُ نفسي. عدتُ إلى غرفة النوم: خاوية، عدتُ إلى الصالة: خاوية، عدتُ إلى المطبخ: خاوٍ، فتحتُ الشرفة: خاوية، نظرتُ إلى أضواء باريس: خاوية. انزلقَت عيناي فوق الشارع: توقفت سيارةٌ فارهة قرب الناصية، وانفتح بابها، لكن لم يخرج أحد. عدتُ إلى المطبخ وشربتُ بيرة أخرى. بدل السكر شعرتُ بضيقٍ مُصفَرُ. عدتُ إلى الشرفة. مازالت السيارة هناك، بأنوارها مضاءةً وبابها مفتوحاً. تخيلتُ حبيبين يتلكآن في الوداع. امتدت ساقُ امرأة من الباب حتى الرصيف، ثم بعد برهة طويلة



t.me/qurssan

خرج الجسمُ كلـه. أظهـرت أضـواءُ الشـارع أناقـة معطـفٍ بيـج. عـدتُ إلى غرفـة النـوم، اخـترتُ كتابـا آخـر، اسـتلقيتُ، قرأتـهُ دون أن أقـرأ. في خـواء المنـزل دوّت فضيحـةُ مفتـاحٍ في الكالـون. هـي أخـيرا! ببهجـةٍ لا تُغتفـر أنصـتُّ إلى خطواتهـا تعـبرُ ظلمـة الصالـة، إلى ابتسـامتها تُطـلّ مـن فتحـة بـاب غرفـة النـوم. نزعَـت مـاري كلـير عـن عنقهـا كوفيـةً اسـكتلندية، تخلّصَـت مـن المعطـف البيـج - إذ كان يكسـوها معطـفٌ بيـج لم أكـن قـد رأيتـه مطلقـا - واقتربَـت، وجلسَـت عـلى حافـة الفـراش، وجذبتنـي يداهـا نحـو فمهـا. بعنـفِ حشـدٍ عاجـزٍ يشـاهدُ ضرب طفـلٍ، كان جسـدي كلـه مسـكونا بخليـطٍ متنافـر مـن الرغبـات المتباغضـة. تركتنـي أعرّيهـا، تركتنـي أقبّلهـا، تركتنـي أعتصرهـا، تركتنـي ألجهـا، تركتنـي أعضهـا، تركتنـي أؤذيهـا، تركتنـي أبلّلهـا بنبـع معـدني مكتـوم طـوال يـومٍ، طـوال قـرنٍ، طـوال ألفيـة. اعتدلَـت، مـدَّت يدهـا نحـو الطاولـة الليليـة، أخـذَت سـيجارة، أشـعلَتها، دخنَـت قليـلا، وناولتنـي إياهـا:

- نيكـول في حالـةٍ سـيئة جـدا، لا تسـتطيع الخـروج مـن اكتئابهـا. اضطـررتُ للبقـاء طـول اليـوم معهـا، لكـن ثمّـة لحظـات لا تخفـف فيهـا الوحشـةَ أيُّ صحبـة...

- بقيتِ معها حتى هذا الوقت المتأخر؟

- أجبرتُهـا عـلى الخـروج، أكلنـا في مطعـم، وتركتهـا في منزلهـا. بعدهـا لم أجـد تاكسـيا وجئـت بالمـترو. أنـت تعـرف كيـف يكـون ذلـك، أن يكـون عليـك أن تبـدّل المـترو مرتـين.

- وهل أعارتكِ نيكول هذا المعطف؟

- أي معطف؟

- المعطف البيج، ذاك...

- لكنه لديّ من زمان.

- هنا؟



t.me/qurssan

- نعم: هنا...!

كنت أعرف أنها تكذب. لم يكن أيّ شرود ليجعلني أُفوِّت شيئا، ولا حتى منديل، ناهيك عن معطف. حتى دون رغبة، كانت عيناي اللتان لمقاتلٍ مُدرَّب تحتفظان بأدق التفاصيل، بأقل تغيُّر في أتفه الأشياء. نظرتُ إليها عاريةً، منافقة، رائعة الجمال، خائنة، بلا بديل. احتقرتُ نفسي من جديد. لأنني كنت أعرف، جيدا جدا ومتأخرا جدا، أنني كي أبقى بجوارها، بجانب ذاك الفم، بجانب هذين النهدين، حتى ولو بجانب قطعةٍ من جسدها، كنتُ قادرا على تصديق كل الأكاذيب، قادرا على تحمُّل ما لا يمكن تحمُّله، وما هو أبعد مما لا يمكن تحمُّله. حين يعشق رجل جسد امرأة - أين قرأت ذلك؟ -، حين يعشق رجلٌ ولو جزءاً من جسد امرأة - ولا يمكن أن يفهم هذا سوى شخص حسّيّ - يكون قادرا حتى على إعطاء أبنائه من أجلها، قادرا على أن يبيع أباه وأمه ووطنه. أنا حتى لم أبع نفسي. ولا حتى بنقود مزيفةٍ تقاضيتُ ثمن هروبي. وكل ما تلقاه جسدي المتسوِّل على ناصية جسدها كان صدَقةً لا مبالية وباردة.

أيقظتني دندنةُ ماري كلير في المطبخ، والطقطقةُ اللذيذة للفناجين، والشذي الوقح للقهوة. كانت مفاجأة يومٍ شتوي مضيء تُذهّب الجدرانَ، والأرفف، والكتب، وملصقات معرض بروجل[84]، وجسدي القرير فوق الملاءات التي تحتفظ بدفئنا الأخير. كانت ماري كلير على حق: فمثلما تُظهر المدنُ الكبرى بالليل، مُصوَّرةً من طائرة بالأشعة تحت الحمراء، بدقةٍ بالغة الأثرَ المشوّش للحشود التي جابتها خلال النهار، ويبقى حضورُ الجموع ساعاتٍ وساعات بعد تفرقهم، هكذا، فكرتُ، لو صوّر أحدٌ خلال ألف عام من كوكبٍ آخر، هذا المنزل، وهذه اللحظة، وهذا الفراش، فلا بد أن يسجّل ما لا يمكن محوه، الدوامَ الشقي لعواطفي.



t.me/qurssan

- سانتياجو - صاحت -، لماذا تتركني وحدي؟ أعرف أنك مستيقظٌ، أعرف أنك تفكر فيَّ، أعرف أنك تحبني كما أحبك...!

شعرتُ برفرفة آلآف العصافير. جئتُ. أمام طاولة المطبخ، وهي تقدّم الإفطار، كانت تتألق في الكيمونو الأبيض في أسود، ذي متوازيات الأضلاع الدقيقة، الذي كانت قد أهدتهُ لي منذ ثلاثة أيام. تركت ما تفعله وبدّد عناقها كلَّ الشكوك. بدأ ديسمبر. مرت أيامٌ، أيام كثيرة، وتحوّلت كل الصباحات من جديد إلى الصباح الأول، وكل الأمسيات إلى الأمسية الأولى، وكل الليالي إلى الليلة الأولى. وفي إحدى تلك الأمسيات الأولى عدنا نذرعُ باريس للمرة الأولى. وقرب ميدان فوسج، "هنا كان يبارزُ دارتانيان"، تذكَّرَت ماري كلير، اشتريتُ "لوموند" من كشك جرائد. وشاردا، ونحن جالسان داخل دفء مقهى، أخذتُ أتصفحها. فجعلني خبرٌ أرتجف: "مصرع تسعة جنود في اشتباكٍ مع مقاتلي عصابات في البيرو". أغلقتُ الصحيفة. حين يعشق رجلٌ جسد امرأة، يكون قادرا على أن يبيع أباه وأمه ووطنه. رفضَت عيناي قراءة بقية الخبر. من هي "الفصائل غير المحددة التي أبيدت" والتي تتحدث عنها "لوموند"؟ هل هم لاينيث، ورامِيرو، ونيكولاس؟ لقد اختاروا مصيرهم واخترتُ أنا مصيري!

- يالي من مستهترة! - تعجَّبَت ماري كلير.

- ماذا...؟

- نسيتُ تماما أن نيكول تنتظرني.

نهضَت إلى التليفون. تحدثَت بالكاد، وعادت مستاءة:

- نيكول على حافة الانتحار: يجب أن أذهب لرؤيتها حالا. من فضلك رافقني لأبحث عن تاكسي.

وحيدا مع تعاستي، هِمتُ على وجهي في فوبور سانت أنطوان. وحين تمالكت نفسي، كان المساءُ يهبط على أرصفة بولفار سان ميشيل.


t.me/qurssan

وشـاردا ، رغـما عنـي اصطدمـتُ برجـلٍ غضِـب. كان أطـول منـي، ومليئـا بالحيويـة. كنـت أشـعر بسُـعارٍ مفـرط جعلنـي شـاكرا لفرصـة تفريغـه في أحـد. لكـن الرجـل رأى في عينـي التلهّـف عـلى الانتقـام، فغمغـم اعتـذارا وابتعـد. ومحبطـا، ممـرورا، واصلـتُ السـير حتـى حديقـة لوكسـمبورج، تبيّنـت القضبـانَ الحديديـة التـي تنحتُهـا شـمسُ الشـتاء غـير المتوقعـة، ودخلـتُ إلى الممـشى المشـجر؛ كانـت الأمهـات تخرجـن مـع أطفالهـن وحشـدُ العجائـز البطـيء يجرجـر موكـبَ قبحهـم. لمـاذا يجـب عـليّ أن أتحمّـل تلـك الوجـوه التـي حفرهـا الفشـل، وشـقّقها البخـل، وقرضهـا بـؤس الطالـع والأنانيـة، أقنعـةِ مُقدِّمـةِ سـفنٍ عاطلـة؟ بتعـثرٍ سـلحفائي غبـي، ومتأبطـين، تقـدم زوجـان مـن أولئـك العجائـز الذيـن بعـد خمسـين سـنة مـن الحيـاة المشـتركة، مـن الملـل المشـترك، مـن الكـره المشـترك، انتهـى أمرهـما إلى أن يكـون لهـما نفـس الوجهـين اللذيـن غضّنهـما نفـسُ السـأم المشـترك. وهـذان الزوجـان الشـبيهان بمخلوقـات جويـا هـل بلغـا مـن الصفاقـة حـد الاسـتعراض بيديهـما المتشـابكتين بحـبٍ كأنهـما بـدل أن يخرجـا مـن إحـدى لوحـات دومييـه كانـا البطلـين الرقيقـين لقصـة حـب؟ شـعرتُ بالحنـق مـن إهـمال السـلطات البلديـة. لمـاذا يسـتخدم كلُّ النـاس الشـوارع في نفـس الوقـت؟ لمـاذا لا يُصنّـف الأفـرادُ وفقـا لمظهرهـم وطبقـا لـه تُحـدّدُ لهـم سـاعاتٌ صارمـة للظهـور؟ ويجـب أن تكـون أفضـلُ سـاعاتِ أفضـلِ التمشـيات محجـوزةً حصريـا للكائنـات الجميلـة، أو الشـابة، عـلى الأقـل. ثـم، وفقـا للإنحـدار في مراتـب القبـح أو الشـيخوخة، يُرخّـص للأقـل حظـا أن يظهـروا علنـا في أماكـن وسـاعات أكـثر تحفظـا. وأمثـال هذيـن الزوجـين لا يجـب أن يظهـروا إلاّ خفيـة، عنـد مشـارف باريـس، وفي الشـوارع المهجـورة لأسـوأ منتصفـات الليـل. وخلـف هذيـن الزوجـين مـن المسـنين الكريهـين لمحَـت عينـاي مـاري كلـير، مـاري كلـير؟، عـلى أيـة حـالٍ امـرأةً ذات مظهـرٍ مشـابه، ذات إيمـاءات مشـابهة. جالسـةً عـلى دكـةٍ كانـت تحـادثُ امـرأة أخـرى. اقتربـتُ. كانـت هـي! رأتنـي فنهضـت مبتسـمةً وقالـت لرفيقتهـا مشـيرةً إليّ:



t.me/qurssan

- هذا هو سانتياجو...!

ومشيرةً إليها:

- نيكول...

ابتسمَت لي بصعوبة فتاةٌ جميلة، بهالاتٍ حول عينيها.

- كنتُ أودّع نيكول لتويّ. هل نذهب؟ - اقترحَت عليّ ماري كلير.

وقالت لها:

- غدا لن أتخلّف عن مكالمتك تليفونيا.

وضعَت ذراعي على كتفها وهكذا سرنا باتجاه باب الخروج إلى بولفار سان ميشيل.

وحكى صوتُها المرح:

- حتى وقتٍ قريب كانت نيكول تعيش مع چيرار. لكن مثلما في الحكايات التي تنشرها مجلة "إلّ"["هي"]، إرتكبت نيكول خطأ تقديمه إلى چانين. أحبَّ چيرار وچانين بعضهما. والأسبوع الماضي، دون مقدمات، وبينما يتناولان الإفطار، قال چيرار لنيكول: "لقد أحببتُ چانين وقررنا أن نعيش معا". بكل هذه القسوة! "أريد أن أطلب منك معروفا: أنتِ قد احتفظت بإستوديو طريق مالشيرب. ومن ثم، لن تواجهي أي مشكلة سكن. هل تستطيعين الانتقالَ نهاية هذا الأسبوع؟ إنهار العالم بالنسبة لنيكول. لكنك لن تتخيل أناقة نيكول. إذ ردت: " إذا كنت لم تعد تحبني، فالأفضل بديهيا أن ننفصل". "حسنا. سأذهب في ويك - إند وأرجو أن تنتهزي هذه الأيام في الانتقال". وهكذا كان. ذهب چيرار بضعة أيامٍ إلى نيس: وربما من باب الاحتياط أو لتجنّب مواجهةٍ عاد الأربعاء. وجد الشقة خالية: لا غبار! قمة الاهتمام: كانت نيكول قد اشترت حتى ملاءات جديدة. الشيءُ الوحيد الذي كان متنافرا في غرفة النوم كان التليفون المرفوع. وقبل أن يضع السماعة سمع صوتا يتحدث باليابانية. كانت نيكول، بعد أن أكملت انتقالها



t.me/qurssan

قد طلبت الرقم الذي يحدّد الساعة في طوكيو. هل تدرك؟ خمسة أيام وخمس ليال في اتصالٍ مستمر مع طوكيو!

ضحكَت بسعادة.

- الانتقامُ طبقٌ يؤكَل بارداً، كما قال ستالين الذي كان يعرف الكثير عن هذه الأشياء - ضحكتُ أنا أيضا.

- لابد أن الحساب يتجاوز المائة ألف فرنك. وربما مائة وخمسين ألفا. يالها من هابي - إند جميلة!

دوّمت الريحُ أوراقَ الشجر. قابلنا الزوجين العجوزين. لم يكونا خارجين: بل يتمشيان. لم يكن تشوّشي قد فحصهما جيدا. كان هو، رغم سنه، يسير منتصبا، يكاد يكون متعاليا في بِزّةٍ من الصوف الخفيف الرمادي، ومعطفٍ من صوف الألپاكا وخفَّين ليس فيهما خطأ. وكان وجهه ذو التقاطيع النبيلة يشي بسَكينةٍ سخية. أما السيدة التي تستند على ذراعه فتلفت النظر أكثر بالتناغم الرقيق لملامحها. وبدا أن شعرها لا يتخلّله الشيب بل يمشّطه ضوءٌ عنيدٌ غير محسوس. وكان واضحا أنها لا تستند عليه بسبب هشاشتها: فقد كانا شخصا واحدا، نرجساً يتقدم نحو الغروب ناظرا إلى نفسه بحب. أُعجبت بهما، أُعجبت بحبهما دون وهن، ذاك الذي أتاح لهما أن يصلا سويا إلى تلك الحديقة النائية. كم من السنوات لابد أنهما عاشاها متحابين هكذا؟ أربعين، خمسين؟ في سياق ذلك الحب الذي وُلد قبلي لابد أنهما عرفا ضروبَ البهجة، والصعوبات، والغيرة، والنشوة، والخلافات، والشكوك غير المعقولة، والسعادة، والشقاء. وتجنّبا كلَّ الكمائن، وراوغا كلَّ الفخاخ، وتجاوزا كل الأخطاء! لم يُسلّم حبُّهما للشكوك الوضيعة، لضروب الغيرة غير المبررة أو الدنيئة! وهكذا نحن، ماري كلير وأنا، خلال ثلاثين، أو أربعين عاما، منتصرَين بنفس القدر، محسودَين بنفس القدر، في الطرق المستقبلية، هل سنتمشّى أمام ناظري شابٍ عاشق تُخجِله شكوكُه...؟



t.me/qurssan

# 30. سانتياجو يعاودُ الاختيار

- إذن، أتريدُ القول بأنك تخلّيتَ عن الثورة من أجلي؟ كنتَ تفكر في العودة إلى البيرو قبل أن تعرفني؟ كنت مصمماً على حمل السلاح والتضحية بنفسك مثل رفاقك؟

- نعم. كرّستُ شبابي للنضال ثم، حين حانت اللحظة، انضممتُ إلى الحركة وتدرّبتُ من أجل القتال.

- وتغيّر كلُّ شيء، تغيّر كل شيء تماما بالنسبة لك حين تعارفنا...؟

- تغيّر كل شيء بصورة مطلقة. كان النضالُ يقودني إلى الموت. كنتُ آلةً للقتل أو الموت، وأنت أريتني الحياة. لم أحبّ أبدا كما أحبك. ومنذ أن عرفتكِ صار كلُّ ما أريده أن أحيا وأحيا إلى جوارك. في "حديقة النباتات" تراجع الموت. كل ما رأيته قبلكِ لا وجود له...

- أولئك الأصدقاء الغريبون الذين كانوا يزورونك، ولم يعودوا للبحث عنك، هم إذن مقاتلو العصابات الذين تتحدث عنهم الصحف؟



t.me/qurssan

- أفترضُ أنهم هم.

- لكنهم كانوا يعنون الكثير بالنسبة لك، أليس كذلك؟

- أكثر من إخوتي، أكثر من عائلتي.

- وتخلّيتَ عنهم من أجلي؟

- ليس من أجلك فقط. من أجلي أنا أيضا. فقد أنذرتني الحركة بقرار: أمرتني بهجرانك. طالبوني بالاختيار بين أمر الحزب وأمر قلبي. فاخترتُ. كانت حياتي كلها، حتى تلك اللحظة طاعةً لا تنقطع. عشتُ دوما على الوعود. كان الفردوس ينتظرني في نهاية طريقٍ يزدادُ كل يوم بعداً، يزداد ويزداد نأياً على الدوام. لم يكن مستقبلي في المستقبل! وأنا لم أعد أريدُ العيشَ لا في الماضي ولا في المستقبل. أردتُ وأريد أن أحيا فردوسي أو جحيمي هنا والآن. إن ما ورائي هنا جالسٌ على هذه الطاولة، في هذه اللحظة، يبتسم في مواجهتي.

نظرَت إليّ بعينين زرقاوين أسيانتين:

- وددتُ لو عرفتُ كل هذا من قبل. هل راميرو الذي عرفتُه، هو راميرو الذي سقط حسب ما تقول الصحف؟

- إنه هو بالضبط من قال لي أن الثورة ليست وحدها من يجب أن تعرفَ كيف ترعى مناضليها بل الحبُ أيضا... كان يعرف في لحمه ما يجري لي. فقد أحبَ امرأةً بصورة يائسة وكان على وشك الانتحار من أجلها.

- لكنه لم يمت من أجلها...

- هو أيضا اختار، يا ماري كلير.

امتلأت نظرتُها بالتنائي:



t.me/qurssan

- هل تذكر يوم التقائنا؟ كانت الثورة، مأساة تشيلي، هي التي قرّبت بيننا... لم أنس ما تحدثناه تلك الأمسية. هل تذكر أنكَ قلت لي أن مما لا غنى عنه عملُ الثورةِ والشعر في نفس الوقت؟ وأن الثوري حين لا يكون شاعرا ينتهي بأن يصبح خائنا لأحلامه ذاتها...؟

- وما زلتُ أعتقد ذلك. اليوم أكثر من أي وقت مضى أصرّ على أن المرء يجب أن يكون مخلصا لأحلامه. لهذا بقيتُ في باريس.

- في باريس ستجد كلَّ شيء باستثناء الثورة. أوروبا ميّتة. هنا كل مستقبلٍ هو ماضٍ. جميلٌ، لكنه ماضٍ. إذا كان المستقبلُ الإنساني الوحيد هو الثورة، كما كنتَ تقول، فإن المستقبل ينبض في العالم الثالث، في أمريكا اللاتينية، في بلدك. وحتى نحن الذين وُلدنا في أوروبا نحيا مارّين عبر أوروبا. هنا ليس ثمة حياة، هنا نكتفي بأن نوجد، بأن نتعجّل اللحظة التي تمضي...

- أليس الحبُ هو الثورة الحقيقية؟

- ومن قال أن الحب والثورة يتعارضان؟

- يقوله الموتى.

- من هم الموتى، يا سانتياجو...؟

نهضَت، وأمسكَت يدي:

- ألا تظن أننا نصبح جادّين أكثر من اللازم؟ أدعوك إلى حفل موسيقي.

ورافعةً إياي من خصري:

- يتشرف الأوركسترا الذي أتولاه بأن يقدم لسيادتك "كونشرتو الكمان والأوركسترا" لسيبليوس...


t.me/qurssan

شـغّلَت الجراموفـون، جلسَـت عـلى السـجادة إلى جـواري، وأسـندَت رأسـها عـلى كتفـي:

- مـا مـن كلـماتٍ، يـا سـانتياجو، لكـن حتـى بـلا كلـمات، هكـذا، أريـدُ أن أقـول لـك أننـي لـو ولـدتُ مـن جديـد ذات يـوم لـودِدتُ أن أعـود كشـجرة حتـى أتذكَّرك ألـف عـام، أتذكـر حبـك، أتذكـر مـا أضـاءه حبـك فيَّ... كـم مـن الشـجاعة يحتـاج المـرء كي يقـرر أن يبقـى وحيـدا...!

- أنا لم أبق وحيدا.

- بلى: بقيتَ وحيدا مع الحب.

- أنا بقيتُ معكِ...

- أنا في مقابل ما تخلّيتَ عنه، لست أحدا، يا سانتياجو.

أنظـرُ إلى الصالـة: خاويـة؛ أذهـبُ إلى غرفـة النـوم: خاويـة؛ أدخـلُ المطبـخ: خـاوٍ؛ أخـرج إلى الشـارع: خـاوٍ؛ أذرعُ البولفـار: خـاوٍ؛ أفتـشُ عنها في المطاعـم التـي كنـا نـتردد عليهـا: خاويـة؛ أذرعُ "حديقـة النباتـات": خاويـة؛ أقـضي الأمسـيات في المكتبـة الوطنيـة: خاويـة؛ أسـكرُ في بـار ليتـوال دور: خـاو؛ اختلـطُ في زحـام اللوفـر: خـاوٍ؛ تتأمـلُ عينـاي الحفـل الراقـص للـدوق ألينسـون: خـاوٍ؛ أشربُ نبيـذا في حانـة هـنري الرابـع: خاويـة؛ أتمـشي خـلال غابـة فونتانبلـو: خاويـة؛ أذرعُ دروبـا: خاويـة؛ أعـبرُ أسـابيعَ خاويـة وخـلال النهـار الخـاوي أتسـكعُ مترنحـا صـوب الليـل الخـاوي لباريـس الخاويـة.

عـبر الشرفـة نظـرتُ إلى رجـال، ونسـاء، ورخـاتِ جليـد، إلى الشـمس غير المألوفـة، وقـررتُ النسـيان. ظهـرُ الحـبِ هـو الكراهيـة، وصـدرُ الكراهيـةِ هـو الحـب. سأنسـاها. كي أظـلَّ حيـا كان مـما لا غنـى عنـه ألاّ تكـونَ مـاري كلـير قـد وُجـدت. ولـن توجـد مـاري كلـير. الغريـزةُ تجبر أسـماكَ السـالمون عـلى العـودة إلى ميـاه مولدهـا لكننـا نحـن البـشر نمخـرُ الأنهـار، ونعـبر



t.me/qurssan

المحيطات، كما يحلو لنا. قبلها بأيام، في نشرة أخبار، كنت قد رأيت مشهدا فظيعا. إذ للاحتجاج ضد الدكتاتور دييم المفروض من جانب الأمريكيين الشماليين، كان راهبٌ بوذي، جالسا في وضع اللوتس، قد رشّ على نفسه البنزين وتحوّل إلى كومة نار. التهمهُ اللهب دون أن يُغيّر سكونَه قيدَ أنملة. كانت الروحُ قد أجبرت الجسدَ أن يُطيقَ ما لا يطاق. كان الموتُ ذاته قد أطاع. هكذا سأُجبرُ جسدي وذاكرتي على النسيان. ستتراجع المعاناة والرغبة وستعبر روحي النارَ سالمة. نظرتُ إلى باريس. كان الفجر وشَعبِه من الطيور يجرجرون سماءً رمادية. أمام الشرفة التي كنتُ منها أراها تبتعدُ أو تقتربُ مرات كثيرة، أغلقتُ عينيّ وكرّستُ نفسي للتدرّب على النسيان، ذلك العِلم الذي، بخلاف غيره من العلوم، لا يسعى إلى المعرفة بل إلى نزع المعرفة. لامباليا بالبرد، بالجوع، بالزمن، بالوحشة، وبتركيز فنانٍ يُعدّل ويُعدّل في عمله الأعظم، على هذا النحو كرّستُ نفسي لنسيانها. فقط بعد ليالي سهرٍ بلا كلل، وذات ليلةٍ محظوظة، تكتشفُ عينا الفلكي نجمة، لكن الفلكي يتحقّقُ فيما بعد من أنها جُرمٌ سماوي تم تحديده من قبل، فيعودُ بتواضع إلى تليسكوبه حتى يكتشفَ، أخيرا!، كم من السنوات بعدها، كوكبا مجهولاً. وأنا أيضا، بعد إخفاقاتٍ وإخفاقات، بعد ليالٍ كثيرة، ذات ليلة بدأت أعرفُ، أعني، بدأت أخطيءُ في لون عينيها، بدأتُ لا أتبيّن ملامحها، وأصبح جسدُها، و نهداها، و شعرها، و شفتاها غائمين بالنسبة لي، تلك المرأة، ماذا كان اسم تلك المرأة؟، لم أعد أتذكرُ شيئا ولم أعرف لماذا أقف أمام تلك الشرفة، منهكا، فاقدا للذاكرة، جائعا.

أظهر ضوءُ الصباح فقر الأثاث، الشيزلونج السيء الكسوة، المقاعد المغطاة بقماش قطني ذي أزهار باهتة، الوسائد المنسولة، الأصص التي


t.me/qurssan

تتهالك فيها ضروبُ بهاءٍ جافة. ماذا أصنع هنا، بين تلك الكراكيب؟ نزلتُ، بحثتُ عن أنطونيو، البوّاب الإسباني، ودعوته إلى الشقة:

- أنطونيو - قلت له -، أهديك كل ما تراه، كل ما في هذا البيت. الشرطُ الوحيد أن تجعله خاويا قبل السادسة مساء.

- أنت تمزح، يا سيدي - تحيّر.

- خُذ كلَّ شيء، يا أنطونيو، كل شيء. هاك مائة فرنك. لا أريد أن أجد شيئا حين أعود، ولا حتى ثيابي، لا شيء على الإطلاق!، أتفهمني جيدا؟ خرجتُ. شعرت أنني خفيف. كان الشتاءُ يحرق الأشجار. كنت حُرا. الحنين هو الألم الذي تُثيره ذكرى كوكب، هكذا كان الأغريق يظنون. قلت لنفسي، على أية حال، هو الألم الذي يثيره ضوءُ كوكبٍ خامد. عاودتُ اكتشاف الشوارع، والمقاهي، والناس، والبوتيكات، الحياة! كنتُ حرا! تذكّرتُ سنواتِ القتال التي أثارتها عاطفةُ تلك الهندية الكامبا المُغرمة بكارليتوس كاساناي، حرب الحب بين الزعيمين سيبيرو وشيرامباري. حربُ الحب؟ عيد الحب! أخذتُ تاكسيا وأعطيت السائق عنوان رولدان. كان مرسمه الجديد يحتلّ مركزَ حديقةٍ مباغتة في الطابق الأخير لمبنى شامخ في طريق أفينو سيجور. خرجتُ من المصعد، تقدّمتُ بين أشجار يابانيةٍ قزمة وأزهارٍ حتى الباب الأحمر، وقرعتُ الجرس. فتح لي رولدان مرتديا روبا حريريا أسود بحاشيةٍ حمراء وخُفاً، بهالة حول عينيه، سعيدا:

- أخي شقيقي قلبي - صاح منبعثاً من سحابةٍ من بخار التبغ، والماريجوانا، والكحول -. ادخل، يا أخي، جئت في وقتك، توجد نساء، وشراب، وكوكايين، وسعادة، وجنون، كيفما شئت! المعركة بدأت بالكاد منذ ثلاث ليال...!

من ذراعي، وبحبٍ، قادتني نشوتُه إلى الصالون: مكان مثمّن الأضلاع بحوائط بيضاء تحميها منحوتاتٌ شهيرة، ولوحاتٌ لأساتذة



t.me/qurssan

معاصرين، وأقنعة. وفوق أرائك جلدية، ومقاعد من البامبو الآسيوي، أو جلود الفهد رأيت تبعثرا للجونلات، والقمصان، والبراسيير[85]، وطفايات السجائر، والأحذية النسائية، والكؤوس، والزجاجات، كلها يحجبها فرطُ الحشيش والسجائر. وإلى جانب، فوق منضدة رخامية، التمع طبقٌ فضي مترعٌ بالكوكايين. تناول خيلبرتو ملعقة صغيرة من الذهب، وأدخلها في البودرة البيضاء القُزحيّة وقدّمها لي:

- تفضَل، يا أخي، إنه الأفضل، صنفٌ جيد، يُحضرونه لي خصيصا من بوليفيا...!

- اعذرني، يا خيلبرتو - قلت له -، أنت تعرف أن هذا ليس ذوقي.

- لكنني أفترضُ أن هذا هو ذوقكَ - ضحكَ، مستديرا تجاه فتاةٍ عارية كانت تدخن متكئة على حافة أريكة.

- هل تتذكر دينيس؟ هذه هي المرأة المهولة التي رسمتُ لها بورتريها جانبيا تلك المرة في شيه ليب!

رفع الملعقة إلى أنفه، واستنشق باستمتاع وصاح:

- دينيس ليست بوليفية لكنها أيضا من صنفٍ جيد، وهي أيضا بيضاء، وهي بودرة رائعة. تفضلها، يا أخي، إنها لك...!

كانت مرغوبةً حقا، وجميلة حقا. ناولني خيلبرتو ويسكي بالصودا، أخذتُ الكأس، لمَ لا؟، وجلست على الأريكة، بجوار دينيس. ألقت رقبتها فوق فخذي الأيمن، ومرّرت ذراعها تحت ركبتي، مطوِّقة إياي. وفي هذه الأثناء، رأيت سيقانَ امرأتين تهبطان السلم الحلزوني المؤدّي إلى غرف النوم، وكل ما ترتديانه قميصين رجاليين: كانت الثانيةُ شبيهةً شبها مذهلا بماري كلير. أكملتا هبوط السلم، وسارتا صوب خيلبرتو، وامتزجتا في قبلةٍ واحدة معه. وحين انفصلتا تعرّفت على فلورنس وماري كلير. ماري كلير...!



t.me/qurssan

نظرتُ إلى منحوتةٍ من قطع الصلب المستديرة، أتذكّرُ جيدا: من قطع الصلب المستديرة. نظرتُ إلى الألوان الزرقاء، والحمراء، والصفراء لزجاج نافذةٍ، أتذكرُ جيدا: زرقاء، وحمراء، وصفراء. نظرتُ إلى يد أحدهم، إلى أصابعي مشلولةً في شعر دينيس، أتذكر جيدا: أصابعي. نظرتُ إلى الزرافة المشتعلة في إحدى اللوحات، أتذكر جيدا: حياتي المشتعلة. نظرتُ إلى سجادٍ مغربية مبذورة بالأشجار ومأهولة بجِمال دقيقة ملونة، رأيتها تتحرك، وتتنقّل، وتتجمّع في قافلة، تترك السجادة، وتسيرُ على مهلٍ في طابور فوق الأرضية، وتصعد إلى نافذة، وتتوغلُ في الهواء تاركةً خلفها كثبانا من الملح، أتذكر جيدا: كثبانٌ من الملح. نهضتُ، وعند الباب أوقفتني حُرقَةٌ غابرة: يدُ ماري كلير.

- سانتياجو، سانتياجو - غمغمَت.

كنتُ أكره تلك المرأة. لم أكفّ أبدا عن كراهيتها. كنت أحبُ تلك المرأة. لم أكف أبدا عن حبها.

- أسأتُ التصرف، يا سانتياجو، لكنني أحسنتُ التصرف. من فضلك، أنصت إليّ...

رأيتها عاريةً، منافقة، رائعة الجمال، خائنة، لا بديل عنها. لن أكفّ أبدا عن حبها. لن أكف أبدا عن كرهها.

- لا تكن جبانا، يا سانتياجو، أنصت إليّ! بحثَ جسدي عن متكأ على الحائط، وتلعثم صوتي:

- وهجرتني من أجل خيلبرتو، من أجل الصديق الوحيد الذي بقي لي...؟

كانت البراءةُ الخادعة لعينيها لا تزال تصيبني بالدوار:

- لم أهجرك من أجل خيلبرتو ولا من أجل أحد: لقد هجرتك من أجلكَ أنت. عزيزي سانتياجو، أنت لم تعد عزيزي سانتياجو. لقد أحببتُ، وما زلتُ أحب رجلا عرفتَه أنت أيضا وعرفتَه معي،



t.me/qurssan

في "حديقـة النباتـات". كان رجـلا جديـرا بالإعجـاب ومتمـردا؛ أتى مـن نضـالات قارتـه التعسـة وكان يتأهـبُ للعـودة، مـن جديـد إلى معاركـه. عـرفَ امرأتـه التـي لم تُـرد أن تُحدّثـه عـن ماضيهـا لأنهـا حدسَـت أن كل مسـتقبلٍ مسـتحيلٌ معـه. عرفَـت أنـه لا يمكـن أن ينتمـي إلى حبهـا، لأنـه ينتمـي إلى حـبٍ أسـمى، وأنبـل، وأشـد سـخاءً. لهـذا السـبب أحبَّتـه. لهـذا السـبب عاشـت كل لحظـة بجـواره كشـذرات بـرقٍ لابـد أن ينقـضي. لكـن هـذا الرجـل، الـذي كان المسـتقبلَ، إختـار أن يكـون المـاضي. قـال لي ذات مـرة أن المـوتي ليـس لديهـم امـرأة. لكـن مـن هـم المـوتي، يـا سـانتياجو؟ مـن يسـقطون أم مـن يبقـون عـلى قيـد الحيـاة؟ لا، لم أهجـرك مـن أجـل خيلبرتـو: هجرتُـك مـن أجلـكَ أنـت. وقريبـا سـأهجر أوروبـا الميتـة هـذه، شِـبه الحيـاة هـذا. سـأذهب إلى أمريـكا، إلى البـيرو، إلى بوليفيـا، لأفتـش عـن الرجـل الـذي أحبـه: الرجـل الـذي كنتَـه أنـت، يـا سـانتياجو...

متكئـا عـلى جـسر سـوللي، نظـر سـانتياجو إلى ميـاه السـين المتسـخة. نظـر إلى كاتدرائيـة نوتـردام. مـن هنـاك كانـت الكاتدرائيـة تشـبهُ سـفينة جنحَـت في السـماء؛ تأملهـا مـن قـاع ذلـك المحيـط اللامعقـول. عـاود رؤيـةَ ضروبِ الرعـب الباهـرة لمخلوقـات

*Goliathus orientalis, Archioptera fallax ,Phoalticus fyhstoleri,*

وهـي حـشراتٌ لا يـدري لمـاذا حملـت إليـه الذاكـرةُ أسـماءها اللاتينيـة. رأى رجـلا وامـرأة متعانقـين، وحافـلات مليئـة بالسـياح، ورمـالا متحركـة، إحمـرارَ شـمس الأوروبامبـا فـوق رف المدفـأة، رأى أشـعارا: أمـاه، إسـمكِ يـأتي متمهـلا كالموسـيقات المتواضعـة ومـن يديـك تطـير حمامـاتٌ بيضـاء، تمثـال الشـاعر أوكِنـدو دى أمـات[86] يرتـل: أمـاه، ذاكـرتي تكسـوكِ دومـا بالأبيـض مثـل حديقـة أطفـال ينظـر إليهـا الرجـال مـن هنـا مـن بعيـد، رأى ثـلاث ظهـيرات، فكَّـر: لا يمكـن، رأى لويـس واقفـا عنـد البـاب بعينـين لا تعرفـان الرحمـة، رأى صوتـه يقـول بينكـم خائنـان سـتعدمونهما غـدا



t.me/qurssan

بالرصاص بأنفسكم، رأى نيكولاس يقول له باسم الحزب آمرك أن تحيا، شعر بأنه أشد وحدة من متسابق دراجات، رأى الزوراق، رأى أفكاره: لم يعد لي مكان لا على الأرض ولا خارج الأرض، رأي ميشيل منكبّة على نصوصها، رأى لويس على منصة لقاء جماهيري في ميدان سان مارتين يصرخ أن الثورة تتقدم عبر العالم، لا يمكن احتواؤها، وأن الثورة العالمية في عصرنا تمر عبر البلدان المتخلفة لأن التناقض الرئيسي الذي نحياه هو التناقض بين الشعوب المقهورة وبين البلدان الإمبريالية أو الاستعمارية، رأى حماماتٍ متأخرة، حُلَّة تعميده في كنيسة ماريا أوكسيليادورا، أماه، أمامك تسقط الورود والأغنيات، رأى حَسَده لنيكولاس، حسد مصيره؛ بين الثورة والحب اختار نيكولاس الحب والثورة؛ ومهما كان المكان الذي يسقط فيه، سيسقط نيكولاس صوب الأعلى صاعدا في سلام؛ لكنه في المقابل، بين الحب والثورة اختارَ العدم، رأى رعاةً من الجص في لوحة لميلاد السيد المسيح، وأصابعه الطفلية تربّت على يد ابنة عمه أميليا، رأى أستاذَه لمادة الأدب يقتبس من شاعر إغريقي: وددتُ أن أكون الليلَ المرصع بالنجوم لأنظر إليكِ بملايين العيون، رأى امرأة شابة تشيبُ شيبا يثير الدوار بينما تُطارد أباها تحت مياه جدولٍ لا نهائي، وسيارات قلبها ندىً عنيف، رأى نفسَه يهبط سلما حلزونيا، التماعَ الساعة فوق رف المدفأة، رأى من جديد مياه السين المتسخة، قفز من فوق سياج جسر سوللي، وفي قبضة التيارات العكِرة غطس جسده، طفا، غطس.



t.me/qurssan

# 31. تتويجُ نيكولاس الأول،
# آخرَ ملوكِ الحباحب[87]

وسرعان ما يشعر نيكولاس ثنتناريو، مقاتل العصابات نيكولاس ثنتناريو، القومندان نيكولاس ثنتناريو بالحب للنهر، فيربّتُ ظهرَ المياه الغبراء، الجانبَ العفيّ للنهر حيث يهبط طوفُه منتصرا. أيها النهر، أحبك!، يصرخ. كنا عدّوين، أنا كنت أخشاك، كنتُ أنتظر خياناتك مفزوعا، وأنت كنت تجهلني! أنت الذي من جيلٍ إلى جيل تُجرجِرُ غير عابِئٍ الخيلاءَ، والخيبات، وضروب البهجة، والآلام، والهناء، أنت، أيها النهر، كنتَ تحتقر خوفي. واجهتَني بالجوع، واليأس، والهلع، والحيرة. وهزمتك. كنتُ جديرا بك: تعرف هذا وتحترمني. لقد فهمتَ، أخيرا، احتياجي أن أحيا. جعلتَني بحارا. وأنا حرّرت نفسي! لا يحيا المرءُ بإرادته حياةَ نزاعات. ينتهي الأمرُ بالعدوّ بالإعجاب بشجاعة خصمه. في لحظةٍ قبل الهجوم النهائي يتعادلان في الاحترام. أيها النهر العدوّ، أحبك! في الظلام يبدأ المطرُ في السقوط. يسقط شلالُ الماء فوق جسده



t.me/qurssan

العاري. يجذب خمولُ التيار طوفَه في العتمة. يتوقف المطر بغتةً. وعلى أشجار الضفة المبتلّة لتوّها تشتعلُ الحباحبُ التي تبزغ دائما بعد انهمار المطر. عاريا، يرتجف من البرد. يلمح أخيرا! أضواءَ آخر موقع للمراقبة. الليلُ يحميه: في الظلمات سيفلتُ من الخطر الأخير الذي يفصله عن العالم، عن بودار، عن الانتقام، عن الحياة، عن كل شيء. يمتلىء حماسا. لقد انتصر على الاضطهاد، والجوع، والضربات، والنوم، والدوامات، والتعب، والإحباط، والأفاعي، والتماسيح! انتصر! إنه حرٌّ في النهاية! يبتكرُ له هذا الخاطرُ قوىً جديدة. حين تطلع أجملُ شمسٍ في حياته، سيكون قريبا من الطريق. تم إنقاذ الجبهة الثانية! ستُعدَّل القيادة القومية الخطط، سيتم إعدام بودار. ستبدأ المعركة حين يقرّرون هم، لا العسكر. لقد انتصروا! مرتجفا ينظر إلى آخر موقع مراقبة. لكن وهجا مباغتا يُعمِيه. من أين كل هذا الضوء،، هذه الظهيرة البالغة القرب التي يبدو أنها تبزغ منه؟ تبزغ منه! الحباحب، كل الحباحب، تلتصق بالأسطح الرطبة. حباحبُ لانهائية تنحتُه من ذهب،تُرصِّعُ بالذهب طوفَه الذهبي، بلوعةٍ ذهبية يحاول إبعادَ وُشاتِه الذهبيين، بيدين ذهبيتين يحاول انتزاعَ عباءةِ الذهب التي تكسو جسدَه الذهبي، الحباحبِ التي تتوِّجه نيكولاس الأول، سيدَ الأمطار، وملكَ التيارات. يقترب الطوفُ من الموقع، يفكرُ في القفز في الماء، فات الوقت، يكتشفُ الحراسُ السفينةَ المتألقة لنيكولاس الأول والأخير، العاهل الأول والأخير للحباحب، الذي تم عزلهُ عن العرش في ذاتِ لحظةِ انتصاره، تصفّر الطلقات، يلهثُ موتورُ لنشٍ الدورية في الظلمة، تقفزُ كشافاتٌ قربَه، يطوِّقه الحراس الجمهوريون، يذرعُ مخروطٌ من الضوء وجهَه، إنه هو، أخيرا وقعتَ، إنه هو، ابن العاهرة الكبرى، إنه هو!، يضعونه في اللنش باللكمات، إنه هو، يركلون جسدَه فوق المياه الراكدةِ في قاع القارب، إنه هو!، يبلغ العريف پينتو باللاسلكي النقيب باسوركو، سقط هاربُك، يا سيدي النقيب!، حوِّل. لا تلمسوه، أتسمعونني جيدا؟!، هذا الرجل لي، القيادة



t.me/qurssan

الأعلى أهدئهُ لي، عالجوه، أعطوه طعاما، لينم، وليستعِد عافيته!، حوِّل، عُلِم، يا سيدي النقيب، حوِّل يستدير العريف پينتو نحو الحراس، هل تسمعون جميعا؟، سخِّنوا طعاما لهذا الخراء، إنه ملكيةٌ حصرية للنقيب، ضعوا له حارسا ليل نهار؛ متى توجد رحلة طيران إلى هنا، يا عريف؟، حوِّل؛ غدا بالضبط تخرج الطائرة إلى السيپا، يا سيدي النقيب، حوِّل؛ أيها العريف پينتو: أكرِّر، إعتنِ بالسجين كأنه ابنك، حوِّل؛ تمام، يا سيدي النقيب، حوِّل؛ حوِّل وانتهى! صاح النقيب باسوركو صاخبا. كل شيء مسألة حظ، يفكر نيكولاس. الدوامة إما أن تشفطَك أو تلفظَك، تبتلعُك أو تتركك. وقد خدعتني: كنت أظنني خارجا بينما كنت داخلا. الدوامة جلبتني إلى هنا. وعند انبلاج النهار، مقيدا بالحبال مثل مومياء، حملوه إلى سلم الطائرة الدي ـ سي3. ربّت الطيارُ على كتفه الشديدِ السواد، أنت إذن ثنتناريو الشهير؟، من أجلك أنفقت القواتُ الجوية البيروانية عشراتِ الساعات بحثا عنك، أنت تكلف الكثير، يا قريبي، ولم يقل مساعدُ الطيار شيئا، بل نظرَ إليه بإشفاق. ترتفع الدي ـ سي3 عن الأرض، وتهبط فوق ممر الهبوط المعشب لمستعمرة اعتقال السيپا. وفي انتظاره، صفاً: النقيب باسوركو، والعريف كاماتشو، وحفنة من الحراس الجمهوريين يطوّقونه ببنادقهم. يقتربُ من الرائد باسوركو، لم يعد رائدا، نقيبٌ لا أكثر، كيف كانت نزهتك؟ وهنا فحسب تأتي أولُ لكمة، والرفسة في الخصيتين، برقُ الألم الذي يمزِّق طفولتَه، وهنا فحسب ركلةُ الحذاء العسكري في الضلوع، حين كنتِ تأخذينني إلى الحديقة لألعب، يا أماه، ينكمشُ ليخفي جسده من الضربات، رفسةٌ أخرى في عظمة الكتف، حين كنتُ أنتظرك وأنتظرك، ياأبي، وأخرى بطرف الحذاء تحطِّمُ الذكرى، يا أبي، كنتَ دائما تأتي في ترام السادسة، حين كانت الشمسُ تصبغ بالشفق المنازلَ الأخيرة كنتُ أخرج لانتظارك، أتوقفُ لأنظر إلى القضبان حيث سيظهر بطءُ الترام الذي يبزغ أخيرا، يصل خاليا تقريبا، ويهبط أزواج، وعمالٌ متثاقلون، وسيدٌ أنيق، وهنا



t.me/qurssan

فحسب رفسةٌ أخرى بطرف الحذاء لكن بقي أن يهبط راكبٌ آخر، ليس راكبا بل هو المحصِّل، وهنا فحسب يُعمي الدمُ عينيه، سأنتظرُ الترام القادم ، تغبِّش الظلمةُ عمقَ الشارع الذي يظهر فيه، متأخرا، سيلويتُ الترام التالي، هل تصلُ فيه، يا أبي؟، وأنت الذي في عربتك تجوبُ السماءَ التي لا يمكن بلوغها، يا هيليوس، حين تري أرض آبائي اجذب أعنّتك الذهبية، وأعلن تعاساتي وموتي لأبي وللشقية التي ربّتني، ويتدفق الدمُ فوق الحديقة التي تنتهي عندها خطوط الترام، يبلّل دلوُ الماء آخرَ الركاب، حتى تستعيدَ وعيكَ وتموتَ ببطء، حتى ترى ما يحدث لك، وتعرفَ جيدا من ينتزع منك الخراء، يا حثالة!، يصرخ النقيب باسوركو، بسببكَ فقدتُ الترقية، أيُّ ألمٍ أن تكونَ لحما، اللفافةُ التي تكسو المعادلةَ الملغزة التي لم تعد تتحمّلُ المزيد، لم تعد تطيقُ المزيد، العروقُ التي سحقتها الركلاتُ بطرف الحذاء، الدمُ المتجمّع تحت الجلد، الجلدُ المفتوح، حين تضحكين، يا أماه، وأنت تفتحين الباب لأبي الذي لم يعد يستطيع المقاومة، الإنسانُ هو استعارةٌ يكسوها اللحمُ مؤقتاً، معرفة ذلك رهيبةٌ، الوضوح هو استحالةُ الجهل، أنا ما زلتُ وعياً، أفيقُ تحت ماء الدلو، والآن إلى الشجرة!، يأمر النقيب باسوركو بينما تقاطِعهُ التهاني، أبلَغوا عن ترقيتك باللاسلكي لتوّهم، يا سيدي الرائد، خذوه! اللعنة، يأمر الرائد باسوركو، ينظر إلى كومة اللحم ويضحك، يالي من أحمق!، كيف سيمشي هذا المخنّثُ إن لم يكن يستطيع حتى التنفس؟، ماذا! تنتظرون لتحملوه؟، لا تظلوا واقفين هنا كالأعضاء الذكريةِ المتدلّية! جرجِروه حتى الشجرة!، يرفعه جنودٌ بلون النحاس من إبطيه، يسندونه، يجرّونه، ينظر نيكولاس ثنتناريو إلى نظرة الرائد باسوركو، لم يعد نيكولاس، القومندان نيكولاس ثنتناريو، الأحمق، قومندان الجيش الثوري للبيرو، الحثالة، ينظر إلى أغصان النباتات المتسلقة هي تُمرِّغ كبرياءها عند بداية أشجار اللوبونا البيضاء، إلى عائلةٍ من طيور الجواكامايو متوقفةٍ في السماء انتظارا لشيءٍ ما، إلى صليبِ خشبِ الشجر الذي تكتبُ عليه سحليةٌ



t.me/qurssan

تاريخَ موتـه، سـقط في المعركـة حتـى يتغيرَ رعـبُ البـيرو، الحثالـة. قـف! يأمـر الرائـد باسـوركو، اربطـوه مـن ظهـره، أريـدُ أن أرى وجهـه!، تقيّـدُه أيـادٍ عرقانـة إلى الجـذع المغضَّـن المائـل للبيـاض فيحسِـدُ سـانتياجو، كان عـلى حـق، الفعـل التخريبـيُ بشـكل حاسـم هـو العيـشُ، الثـورة الحقيقيـة هـي السـعادة، الثـورةُ التـي ليسـت سـوى ثـورةٍ ليسـت ثـورةً، لـن تكتمـل ثـورةُ الخـارج إلاّ إذا انتـصرت أولا ثـورةُ الداخـل. أعـلى مـن أشـجار اللوبونـا نظـر إلى شـجرةِ مجـدِه المسـتقبلي، لا ينكـرُ شـيئا، لـو وُلـد مـن جديـدٍ لكرّر نفـس الحيـاة، لقـامَ بنفـس الأفعـال، لقاتَـلَ نفـسَ المضطهديـن، لقتـلَ نفسَ الخونـة، لتحمّـلَ نفـس صنـوفِ التعذيـب، لقبِـلَ نفـس السـجون، لعـاشَ أبديـا في الظلـمات، لهـربَ عـلى نفـس الطـوف، لنظـرَ إلى نظـرةِ نفـسِ السـفاح، في المـرة القادمـة سـأبقى معـكِ، يـا فرنثيسـكا، سـأبقى عـلى الأرض لأسـيرَ معـكِ تحـت الضـوء، لأمـارسَ الحـب، لأقبّـلَ بطنـكِ، وأدخـلَ ببـطءٍ إلى غاباتـك. أفسـحوا الطريـق، يـا حمقـى! يـصرخ الرائـد باسـوركو، الانَ حقـا رائـدٌ، ويتقـدم صـوب الشـجرة، ينهـالُ بالسـاطور عـلى لحـاء التنجارانـا، وفـورا فـوق اللحـاء ينبـتُ لحـاءٌ مـن النمـل، ذات يـوم سـننتصر!، صـاح سـاندينو، جـنرالُ الرجـالِ الأحـرار وإذا لم أر ذلـك فسـوف يـأتي النمـل ليحكيـه لي تحـت الـتراب، يقـرضُ النمـلُ عـواءَه، الضـوءُ، عينـا مامـا وهـي تنظّـفُ وجـهَ نيكـولاس العزيـز، السـماءُ التـي تهـربُ مـن النمـل، ثـم مـن جيـوشٍ مـن النمـل، مـن شـهورٍ مـن النمـل، مـن قـرونٍ مـن النمـل، ثـم لاشيء.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 32. بدلَ ماري كلير
# تظهرُ ماري كلير

لا يمكنُ أبدا، عند دفع البقشيش، معرفةُ ما سيخرجهُ من جيبه پلاي ـ بوي حقيقي - فكر چان پيير -، بينما يصبُّ اللونَ المرهفَ لنبيذ دوم پيرينيون *1973* الذي طلبهُ ڤيرنر رايتس، الذي هو فعلا پلاي ـ بوي حقيقي. تعرف العينُ الخبيرة لأي ميتر ، بنظرةٍ واحدة، الفرقَ الذي لا يُسبرُ غورُه بين الپلاي ـ بوي الحقيقي والمزعوم. نظر چان پيير إلى الكونتيسة الروسية العجوز الكساندرا سڤيتشين وإلى محميِّها الأنيق. منذ سنوات والكونتيسة الملتي مليونيرة، التي لا تتغيرُ، تُغيِّرُ في كل الفصول، مع ثيابها، مَن ترعاهم. ومن ترعاهُ هذا الشتاء، مثل جميع من ترعاهم، هو فتىً مسترخٍ، يحيطهُ جوٌّ غيرُ محدد، يمكنُ أن يروقَ بنفس القدر لذكرٍ، أو لرجلٍ مِثليّ ، أو لامرأةٍ مِثليةٍ، أو لأنثى، إن كان لا يزال لهؤلاء وجود. ومن ترعاه يطارد الموضة. بينما يفرضها الپلاي ـ بوي. كان ڤيرنر رايتس يرتدي، هذه المرة، قميصا من الحرير الأبيض، الشاهق البياض، مفتوحا كي تزدهر أيقونةٌ



t.me/qurssan

مـن الذهـب بـين شـعر صـدره الأشـقر وبـين بنطلـون چينـز مـن القطيفـة السـوداء، بمثابـة جلـدٍ ثـانٍ لجسـدٍ معتـادٍ عـلى رمـل رحـلات السـفاري الإفريقيـة أو ملـح رحـلات سـفن المحيـط الهنـدي، كـما كان يتزيّـا بـثلاث فرنسـياتٍ جميـلات. لم يكـن چان پيـير يعـرفُ أسـماءهن بعـد لكنـه لم يقلـق: فسرعـان مـا ينتهـي الشـتاء ويتـم اسـتبدال الفرنسـيات، مثلـما جرى مـع عارضـات الأزيـاء الزنجيـات، والاسـكندنافيات، أو الألمانيـات. ابتهجـت ذاكرتُـه وهـو يسـتعيد الجـمالَ المستأسِـد للموديـلات الزنجيـات، الـلاتي اسـتوردتهن جميعـا شـارم، وكالـة الموديـلات الظافـرة لـچان لـوك الـذي فـرَض، بـين عشـيةٍ وضحاهـا، ولسـنوات، المملكـةَ التـي لا تُبـارى للرجـال والنسـاء الكهرمانيـين. رأى چان پيـير في ذاكرتـه عينـي كاثريـن الغزلانيـة، تلـك الوجـوه، وتلـك الأجسـاد التـي احتلّـت، مثـل عـرشٍ كان ينتظرهـا منـذ الأزل، أغلفـةَ كل مجـلات أوروبـا. حتـى أتـت ليلـةٌ - تذكـر جيـدا تلـك الليلـة -، دخـل فيهـا ڤيرنـر رايتـس لا كوبـول يتبعـه وميضٌ ذهبـي: ڤيروشـكا: مـترٌ وخمسـة وثمانـون سـنتيمترا ذاتُ مشـيةٍ نبيلـة، أرسـتقراطيةٌ بروسـية أصيلـة؛ وسـاقاها اللانهائيتـان، المرفوعتـان كشـعلتين تمنحـان الجنسـية للجونـلات المتناهيـة القِصر. رآهـا مـن جديـد عـلى الطاولـة، وقـد تخلّصَـت مـن فـراء الفيـزون، الصـدرُ الرائـع يصـارع البلـوزةَ البسـيطة الشـفافة، والجـوربُ الدخـاني السـميك يـكادُ يخفيـه حـذاءٌ جلـدي برقبـةٍ تبلـغ الركبتـين. وكيـف، كأنمـا بمرسـوم، عـادت عارضـاتُ الأزيـاء الزنجيـات الـلاتي، لم يبلغـن أبـدا، في أعماقهـن، حـدّ التكيّـفِ مـع باريـس، إلى نيويـورك ببنطلوناتهـن البراقـة الألـوان، وسراويلهـن القصـيرة المتناهيـة الصِّغـر، وجونلاتهـن شـبه الشـفافة التـي تلتصـقُ بالجلـد أكـثر مـن تربيتـةِ العيـونِ التـي تحسـدُهن. وكيـف أصبـح الـكل تقريبـا بعـد ڤيرنـر رايتـس، كل الپـلاي ـ بويـز، يتألقـون بالشـقراوات. ممتنّـاً، ينتابـه الحنـين، ظـن چان پيـير أنـه يـرى مـرة أخـرى ماريـان، الجميلـة مثـل إنجريـد برجـمان، لكـن جمالهـا أشـد إثـارة للعاطفـة، وپاولا، ذات العيـون الخـضراء المُدَوِّخـة وجلـد الخـوخ، والتـي بالإضافـة إلى وجودهـا ذاتـه، أثـارت فضيحـةٍ بزواجهـا مـن



t.me/qurssan

نحّاتٍ زنجي شهير. كانت تلك أوقاتُ شارم المسالمة، الدكتاتوريةُ الناعمة لـچان لوك، الذي يُعدُّ أختا أكثرَ منه أخاً لموديلاته الهشة، الاستبدادُ الرقيق الذي قطعهُ بوحشية ظهورُ التوأم لوساك. فخلال ثلاثة أشهر، هزم الأخوان لوساك، المصوران الفوتوغرافيان المحترفان، ودون أن يُطلقا لقطةً واحدة، الحكومةَ الشرعية لـچان پيير و شارم . دارت المعارك الحاسمة بعيدا عن لا كوبول، لكن چان پيير عرف من انتصروا. قام التوأم لوساك، كأنهما ليسا كافيين، بالتعاقد مع أربعة عشاق لا يُقاوَمون: الرومانسي والسريع البديهة چيانكارلو، والهمجي والملغِز چيرار، والأبوي والمتفهِّم فيليپ - الذي هو بلا شك أكثر المصارعين الستة رقةً و تفهّما - والأرجنتيني الذي لا غنى عنه والأنيق - الأكثر من أنيق ولا غنى عنه -، مارثيلو الذي، طبعا، كان يغني أغنيات التانجو أفضل من كارلوس جارديل ويرقصها، وحيدا، أفضل من عشرة أزواج من الأشرار البورخسيين. التوأم لوساك وفرسانهما الساموراي الأربعة الخارجين لا من أحد أفلام كيروساوا بل من ملاءات أشد نساء الكوكب استعصاءً، إنتحاريو الكاميكازي المطلقو السراح في شوارع باريس، يطوّقون أبواب وكالة شارم، وينقضّون من أعلى أعضائهم التناسلية العجيبة عل موديلات العِنّين چان لوك اللائي لا حول لهن. وخلال أقلّ من شهر، محاربين ليلا ونهارا، وبالأخص ليلا، إعتقل فيلق لوساك ثلاثين من دمى شارم الحصرية وسلّمهن رهينات، ضيّعهن الغرام، للخدمات التجارية "لوكالة ڤيديت". رأى چان پيير فرنان دى مارلي يدخل مصحوبا، هو الآخر، بموديل فرنسية - الآن أصبحت الفرنسيات موضة -، وأجلسهما على الطاولة المجاورة للعمود المزين بلوحة چوزفين بيكر؛ هنالك كانت تناولت العشاء چاكلين كينيدي، التي ليست جذابة مثلما في الصور. الجميلتان هما كاترين دينوڤ أو بريچيت باردو!، تنهّد چان پيير. وكان الفرق بين كاترين دينوف وب ب يكمن في أن دينوف كانت تقوده بعيدا عن جسدها صوب الاسترخاء والتأمل، بينما كانت خدمةُ ب ب تمثل مشكلة على



t.me/qurssan

الدوام: إذ بأية منشفة، وبأي سيرٍ جانبي، كان يمكن إخفاء الانتصاب؟ وعاود التنهد. تبادل صحاب رايتس ومارلي الصاخبون التحية، بقبلات على كلا الخدين، ثم عادوا إلى طاولتيهما. واستمر الاحتفال. ولم يحدث شيء حتى طلب رايتس من روبير ثلاثة طلبات من الكريم شانتي.

- ثلاثة طلبات؟ - اندهش الميتر -. إنها كمية هائلة، يا سيدي!

- أحضر لي إذن هذه الكمية الهائلة، مون بتي[7].

- أخشى ألاّ يسعها طبقٌ، يا سيدي - إعتذر روبير.

- أحضرها لي إذن في إناء سلطة.

وضع روبير تلّ الكريم شانتي على الطاولة. بإيماءات احتفالية، نهض فيرنر رايتس، وأخذ إناء السلطة بين ذراعيه، تقدم نحو الطاولة المجاورة ودون أن ينطق بكلمة، مثل كاهنٍ يؤدي طقسا لا يدريه أحد، كسا رأس دى مارلي بخوذة من الكريمة. تردّد دى مارلي بين الخوف من أن يجعل من نفسه أضحوكة والخوف من أن يكون ذلك قد حدث فعلا، وبرغبةٍ في الانخراط في البكاء غيظا، انفجر يضحك مقهقها مع كل زبائن لا كوبول المرحين. ورغم كل هذه الكريمة، تمتع دى مارلي برهافة أن يُنهي الفراولة بالشانتي، ودفع الحساب، هذه المرة أخرج وقدّم ورقة من فئة الخمسمائة فرنك، وخرج يتبعه صخب حاشيته. ولم يكد أحد يلحظ في يده اليمنى دلو شمبانيا لم يكن من الضروري تسجيل فقده من سجل لا كوبول لأنه أعاده بعد ربع ساعة ممتلئا لا بالثلج بل بزيت السيارات المستخدَم الكثيف. وبنفس احتفالية، ونفس تؤدة رايتس، أفرغ دى مارلي الجدول الأسود فوق الأناقة المذهولة للألماني، الذي حاول أن يحمي، لا إنسانيته الملطخة، بل الأيقونة الذهبية الثمينة المعلقة من رقبته على الأقل. لاحظ رايتس مظهره، وأناقة أصدقائه الملطخة بصورة يتعذر إصلاحها، ورأى دى مارلي يصب بقية الدلو فوق الفتيات الميتات من الضحك وهن



t.me/qurssan

يشاهدن فراء الفيزون يتحول إلى فراء نمر بفعل الزيت - يالضحك، هل ستكون هذه الموضة الجديدة! -، رأى الطاولات، والمآدب، والكراسي المكسوة بقطيفة بوردو - ياللخسارة! -، وانقض باللكمات فوق دى مارلي. تدخل الأصدقاء بينهما. "لديك مائتي بدلة، الأمر لا يستحق". سارع مسيو لافون، المالك، إلى مكان الفوضي، ولا الألمان! هادىء دوما - فقد رأى مالك لا كوبول الأسطوري الكثير من الأشياء! - تذكر يوما بعد احتلال باريس بقليل، لا بعسكرية مثل يابانيّ الكريمة من فوجييامـا، ولا بكاميرات تصوير، بل بزي عسكري رمادي ومسدسات أشد رمادية، استقر فيه ثلاثمائة تيوتوني هنا لتناول الغداء. لم يكسروا كأسا واحدة، متعبين بلا شك من تدمير العالم. لكن أبطال الكريم شانتي والزيت المحروق هؤلاء، هل تنقصهم حرب حقيقية؟ ولما كان لا كوبول بالنسبة للمسيو لافون عائلة كبيرة في المقام الأول، فقد رتب تنظيف بقايا النزاع، دون أن يحتد. وفي حينه سيدفع رايتس ودى مارلي تكلفة الأضرار. وبالطبع، كمليونيرات طيبين، لم يدفعا أبدا.

قلب البقرة المقدسة سحنته مخاطبا إياي:

- كيف يُختتم عملك، إن كان يمكن معرفة ذلك؟

أجبت:

- بالضبط في الليلة الأخيرة لهروبه، في اللحظة التي يكون فيها البطل، يحميه الظلام، على وشك الافلات من حراسة موقع المراقبة الأخير، تمطر السماء. وعلى أشجار الضفة المبللة لتوّها تشتعل الحباحب المعتادة بعد تدفق الأمطار. الحباحب، كل الحباحب، تلتصق بالأسطح الرطبة. فيتحول نيكولاس، المغطي بالحباحب، والواقف فوق الطوف، على هذا النحو إلى تمثال من ذهب. يكشفه بهاؤه.

للمرة الأولي ظننت أنني أستشف في عيني البقرة المقدسة ذرة ميكروسكوبية من الاهتمام. سأل:



t.me/qurssan

- دون التقليل من مزايا خيالك الفانتازي الباذخ - وليس أبعدَ عني من محاولة تقييد التحليق الخيالي المبدع الذي كرّستُ له أنا العديد من المقالات -، هل يمكنني أن أسألك إن كان مقاتل عصابات حكايتك كوبيا...؟

- لا، ليس كوبيا.

- ولم لا...؟ أنا أراه كوبيا تماما. وكنت سأجعلُ موقع حكايتك المثيرة للاهتمام في ميامي، في معسكر منفيين يستعدون لتحرير كوبا. أنا على يقين أن قراءنا سيثير حماسهم كثيرا مثلي أن تكون حكاية الحب تلك مقدّمة لنهاية الدكتاتورية الكاسترو - شيوعية. لأن كل من على هذه الطاولة، يتفقون، فيما أعتقد، على العواقب الكارثية التي ما زالت النزعة الجيفارية تثيرها، وباللأسى، في سياسةِ وفي أدب تلك البلدان البائسة... ومن الواضح أن كتابة كتابٍ يطرحُ الخيار الأخلاقي والجدلي الذي يمكن أن ألخّصه في نزاع العاطفة الغرامية - العاطفة السياسية، هو شيء أراه أفضل بقلم أمثال مالرو...

- للحظ التعس فإن مالرو قد مات - أجبتُ.

"وللحظ التعس فإنك لازلت حيا"، فكرت.

- لم يعرف مالرو كيف يموت - واصل البقرة المقدسة وعظه -. المبدع الأصيل يجب أن يعرف كيف يخرج من المشهد. كان بديهيا أن مالرو يجب أن يموت في بنجلاديش وليس في باريس. لكن المؤلفين لا يفكرون أبدا في دور النشر ويموتون بشكل لا مسئول حيثما يعنُّ لهم.

عند الباب الشرقي للا كوبول ظهرت حينئذ امرأة. تلكأت كثيرا باحثةً عن شخص ما، جالت بنظرتها على الصالون الصاخب وربما لم تجد أحدا لأنها ولجت المطعم بخطوة مصمّمة. جمّدني جمالها، أعني جمّد مسار حياتي. بدل الاستماع إلى المغامرات التعسة لشخوصي، كان يبدو أن الناشر ينعس. وسرعان ما أفاق، وأصدر تعليقا. لم أنصت



t.me/qurssan

إليه. ظل الناشرُ، والبقرة المقدسة، والزبائن، والجرسونات، وجان بيير[88]، الشهير، والمجموعات التي تدخل، وجان بيير المجهول، والأزواج الذين يخرجون، ظلوا موجودين في الصالون الذي تعبره المجهولة، لكنهم الآن كشخصيات في فيلم صامت. عمّن تبحث؟ أيّ كائن بشري يمكن أن يستحق نظرتها المتلهّفة؟ رنّت أصواتُ البقرة المقدسة والزبائن كأنها في قاع هاوية ظلَّ الضجرُ يلقي فيها السنوات البالية، غير المجدية، التي لا فائدة منها على الإطلاق.

- بالعودة إلى شأنك، ما عنوان الكتاب؟ - سأل البقرة المقدسة.

- الرقصة الساكنة.

- عنوان موحٍ. خسارة أن تكون شخوصك هذه المرة أيضا متعصبين خطرين. "الحديث عن السياسة في كتاب مثل إطلاق رصاصة مسدس وسط حفل كونسير". نعرف جميعا العبارة الشهيرة لستندال، نيس پا؟[89] وهي صالحة الان أكثر من أي وقت. الفن في خدمة السياسة ينحط إلى پروپاجندا. العمل الفني غايةٌ في ذاته؛ لا يمكن أن يكون جسرا بأية طريق.

ابتسم البقرة الضاحكة بإشفاق.

- استطلاعات الرأي واضحة - استمرّ -. اليوم يرفض الجمهور الأعمال الأدبية الملوثة بالسياسة. في عقد الخمسينات ثار الاهتمام بالفن الملتزم. بعدها حل التعب من المانوية والديماجوجيا. قلتُ لك ذلك حين أبديت رأيي في حكاية مقاتل العصابات الكازانوفي پنت. الفن السياسي تخطّته الموضة. كان قائما عند نهاية القرن التاسع عشر حين كان الروائيون الروس يضعون في المشهد الفلاحين الموچيك الميتين من الجوع والبرد. لكن بعد النتائج الكارثية للثورة السوفيتية...

احتسى رشفة من ماء ڤيتيل وواصل:



t.me/qurssan

- لماذا لا يكون ثوريو السياسة هم ثوريي الفن؟ لماذا يكون ناسفو الواقع هم حراس الأشكال التقليدية في اللغة؟ أحد أكثر الأعمال ثورية في الرواية الروسية هي رواية النفوس الميتة. فهل كتبها فوضوي؟ هل كان جوجول ثوريا؟ لا! كان جوجول كاثوليكيا ومَلَكيا مخلصا، ولذلك، محبا للنظام ...

- لا أظن التعميم ممكنا... - حاولت عبثا أن أقاطعه.

- ... أعظم مجدِّد لموضوعات القرن التاسع عشر هو بلزاك. وقد اكتشف مبدع راستينياك، وليس ماركس، أن البطل الحقيقي للمجتمع البورجوازي هو النقود. وبلزاك كان بدوره مَلَكيا. المحطمون العظام للأشكال البائدة، مبتكرو اللغات الجديدة، أمثال فلوبير، وبروست، وجويس، وپاوند، هل هم ثوريون...؟

- بالفعل كان أولئك المؤلفون محافظين أو فاشيين. لكنهم جماليا كانوا ثوريين. ليكن جوجول ملَكيا بقدر ما تشاء لكن، من أظهر أفضل منه وضاعة الحياة في ظل القيصرية؟ أما بشأن الرجعية المفترضة لبلزاك، فمن سينكر دقة اللوحة القاسية للبورجوازية الفرنسية؟ لكن ثوريي الفن ليسوا دائما محافظين في الشكل. ثربانتس كان ثوريا في الفكر وفي الشكل. وكذلك بابيخو وبرتولت بريشت.

- مون آمي[90]، أنا أقول ليس فقط أن الفن السياسي لم يعد راهنا بل أن الشعب نفسه قد تجاوزته الموضة...

ماذا كنت أفعل هناك؟ لماذا أقبل تلك الخطبة العصماء المهينة التي يُمليها، أكثرَ من الجهلِ الوقح، الحقدُ والانتقام من عدوّ كان صديقا ذات حين؟ فكرت في الإغريق. تذكرت أن مسرحية الفرس قد عُرضت أمام جنود بلاد الإغريق الخارجين للقتال من جديد ضد داريوس، لكنني سرعان ما فهمت عبثية النقاش. فلم يكن البقرة المقدسة يريد حتى صياغةَ مديح الكلاسيكيين المحافظين: بل كان،



t.me/qurssan

ببساطة، يريد أن يهدم كتابي، أن يُصدر دون أن يقرأه مرسوما بأنه منشورٌ سياسي. ما من كتبٍ ثورية أو محافظة: ثمة كتبٌ متميزة وكتب مبتذلة. الكوميديا الإلهية، ومدام بوفاري، أو الإخوة كارمازوف هي كتب سياسية. إذ بإظهار مهاوي الروح، بعرض شياطينه، كان دوستويفسكي ينسفُ بشكل حاسم الأخلاقَ الدوجمائية والرجعية لعصره. وزرادشت يستهلّ نشيدَه بإعلانه موت الرب. وكافكا، متاهات كافكا، ألا تتخيلُ مسبقا معسكراتِ اعتقال النازية، متاهاتِ الشركات المتعددة الجنسية، السُّلطةَ التي بلا وجه؟ فكرت في قول ذلك لكنني، مرة أخرى، شعرت بعبثية المحادثة. فالبقرة المقدسة وربما الناشر لم يكونا يطلبان مني حتى روايةً غير ضارةٍ، مخنثةً مثل رواياتهم البست سيللر، بل پوس - كافيه[13] يساعد على حسن هضم مأدبة البورجوازية الكونية، يطلبان كتابا لطيفا، مُفرحا، يَلبِس على الموضة، ويفوح بعطر أو دى تواليت ڤـتيڤير، كتابا لا يمكنني حتى لو أردت أن أكتبه.

واصلَت المرأةُ تقدمها. لم يكن ما يُمرضني هو التناسقُ غير المحسوس لجسدها ولا جمالها المفزع، بل رغبةٌ عبثية ومتوحشة، رؤيةٌ لحصانٍ يمضُغ أزهارا، فالمرءُ يعاني لأنه خائنٌ دائمٌ لرغبته ذاتها...

عاودَت الفتاة التوقُف، فمحا نصفُ مطرِ شعرِها الأسود فجأة عينيها الزرقاوين العجائبيتين. بدا أنها تعبت. لم يكن تعبا. بل قوةُ دفع الجسد الذي يتأهبُ لاختراق الحشد.

- تعجبني حكايتك - قال الناشر -، لكن ما أتفق فيه مع الدكتور دياث هو أن هذه القصة، في لحظةٍ مازالت فيها حرب العصابات نشطة في أمريكا اللاتينية، لن يتم تلقيها من جانب النقد، بقدر ما تستحق، وربما تم إخراسها.

واصلت هي تقدُّمها وأنا غوصي في رمالٍ متحركة، في كثبانٍ زرقاء، وصفراء، وبنفسجية، من رمالٍ حبّاتُها نيرانُ مجراتٍ، كواكب كنت



t.me/qurssan

أعرفها، ضروب وجودٍ في مجراتٍ ظنّت ذاكرتي أنها تستعيدها. عندئذ، تخيلتُ أنني ذات صدفةٍ قد عرفتها، واستحققتها، وأنها أيضا أحبتني، وأننا تقاسمنا عاطفةً مطلقة. في الوقت القصير الذي استغرقه عبورها بين الموائد، حلمتُ بأنني عشتُ السعادةَ، النشوةَ، الغيرة، والرغبة، روعةَ حبٍ، مثل ترصيع قماشٍ ثمينٍ يحلُّ محلَّ عاديَةِ نسيجٍ قلّل الاستخدامُ من شأنه، استبدلُ رتابةَ حياتي بوميضٍ كالبرق. تخيّلتُ أنني عرفتُها ذات أمسيةٍ خريفية، قرب حريق أزهار الداليا في حديقة النباتات، تخيلتُ أننا خرجنا متأبطين صوب شوارع باريس، تخيلتُ أننا قد تحاببنا. تخيلتُ أنني ذهبت معها إلى مطعم الموسيقيين اليونانيين حيث، ذات مناسبة، أهدانا الحظُّ جماعةً من الطلبة الفقراء، وليلةً لا تُنسى وحسابا لم يُدفع. تخيلت أنني سانتياجو. تخيلت أنني نيكولاس، أنني ناضلت في إحد تلك الأفواج البطولية التي انخرط فيها الكثيرون من جيلي وسقطوا بطريقة مجيدة. تخيلتُني مقيّدا إلى شجرة النتجارانا يلتهمني النمل. تخيلت أنني أحببت ماري كلير كما لم أحبَّ أحدا وأن ماري كلير أحبتني كما لم تحب أحدا. وأنني، من أجل حبها، من أجل رغبتي، عصيتُ حزبي وفررتُ من الثورة. تخيلتُ نيكولاس، حلمتُ بهروبه من سجن السيبا، وبأن الجلادين قبضوا عليه من جديد وقيدوه عاريا إلى شجرة نمل التنجارانا المتوحش. لا، ما كنتُ لأعصي الحركة. لا، ما كنت لأعصي قلبي. كنتُ سأبقى مع ماري كلير. ما كنتُ لأموت. كنتُ سأحيا، هنا على هذه الأرض، أو على غيرها لكن مثل كل البشر. كنت سأقتسمُ معها الأعمال، والحب، والشجارات، والرحلات التي لم تتحقق أبدا، ساعاتِ المساومة في السوق، الصغائرَ التي تجعل هذه الحياة ثمينة. كنتُ سأحيا. لا، ناقضتُ نفسي، كنت سأغادر، ما كنتُ لأتخلى أبدا عن لويس ولا عن راميرو ولا عن ماكسيمو ولا عن فيليكس ولا عن هكتور ولا عن لاينيث. وإذا كان عليّ أن أموت، تخيلتُ، فلن أعرف مهانةَ الشيخوخة: كنتُ سأموت شابا، معهم، مع وطني الذي بلا مصير، مع مصير وطني. ما كان



t.me/qurssan

جسدي العفَيّ ليعرفَ علاماتِ الوهن...! واصلت هي تقدّمها وأنا جنوحي في حبي الخيالي. أفاقَ الناشرُ من الخمول الذي أغرقهُ فيه الكوانترو أو حكايتي. اكتشفها هو أيضا فذابت طبقاتُ الملل التي تكسو وجهَه المنتفخَ في وجهٍ رقيقٍ، مجهول، طفولي. نهض مبتسما. جاوبَتهُ بابتسامة وتقدَّمَت بصورةٍ لا تصدّقُ

إلى طاولتنا، وقبّلَته في خدِّه، ناظرةً إليّ. نعم، ناظرةً إليّ!

قال لي الرجلُ الآخر الذي صارهُ الناشر:

- اسمح لي أن أقدم لك ماري كلير، ابنتي.

- بونـچور - ابتسمَت لي ماري كلير، فكانت ابتسامتها بحيرةً تباعد فيها، سابحين على طاولاتهم، الأربعمائة زبون، والميترات الإثنى عشر، ومسيو لافون، والجرسونات، والبقرة المقدسة، جميعا.

جميعا فيما عداها.

- أنا من معجباتك - قالت لي ماري كلير -، وقرأتُ كل كتبك...

أشارت إلى الناشر:

- أخبرني أبي أنه سيتغدى مع حضرتك اليوم، ولما كنت أرغبُ في معرفتكَ منذ زمن طويل، فقد تجاسرتُ ودعوتُ نفسي لتناول القهوة مع حضراتكم...

عاودَت الابتسامَ لي بتلك النظرة المضفورةِ بالزُرقة والجسارة، بالأمن والقلق، بالاحتفال والخطر، التي، في لحظاتٍ بعينها تدعو بها امرأةٌ رجلا إلى التحوُّل معا إلى نفس الطريق. ارتبكتُ. كان حلمي حقيقةً. هل كان حلمي حقيقة؟ الإنسانُ هل هو استعارةٌ يكسوها اللحمُ مؤقتا أم لحمٌ يتغذي على الاستعارات؟ لكن ماري كلير لم تكن استعارةً: كانت مخلوقة حية جديرة بالإعجاب. على ماذا تتغذّى الحياة؟ الكلمة، كل الكلمات يمكن اختزالها في عبارةٍ مضيئة: أحبك أو



t.me/qurssan

في عبارة أخري مظلمة: لا أحبك. عند خروجنا من "حديقة النباتات" كانت ماري كلير قد قالت لي: " أكثرَ من انقسامنا إلى فقراءٍ أو أغنياء، ننقسمُ نحن البشرُ إلى محبوبين أو غير محبوبين... بالحب نحيا، نموت، أو نُبعث... سانتياجو: ثرواتُ الحلم لن تحلَّ أبدا محلَّ الواقع. فأفقرُ حنانٍ، أضألُ عاطفةٍ، أتفهُ عشبةِ حبٍ واقعي، أفضلُ من أضخم حبٍ مُختَرَع..". ولما تأخرتُ في الجواب، فإن ماري كلير الأخرى هذه، ماري كلير المجهولة هذه، الواقفة، دون أن تدري ما جرى أو لم يجر، رجَتني:

- هل يمكنني الانضمام إلي حضراتكم؟

كنتُ قد عانيتُ الكثيرَ بسببها! لا الآلامَ فحسب، بل التعاساتِ، والخلافات الوضيعة، والإيذاءات بلا سبب، والنذالات الصغيرة، والخيانات بلا شفاء، وجروح الغيرة التي لا تلتئم أبدا، تخيّلتُ كل شيء، عاودتُ تخيّلَ كلَّ شيء، وعَيْشِه. بسببها تخليتُ عن كوني من كُنتُه، هجرتُ أحلامي، خُنتُ أنظفَ ما في كياني. لا، لا يمكنني أن أغفر لها. نظرتُ إليها بحنق.

وهي، مستوحشةً، يتيمة، وحيدةً في الصحراء التي كلّسَتها نظرتي، غمغمَت:

- لكن، ألستَ حضرتك ...؟

نعم، كانت ماري كلير حقيقية. وربما أمكنني أن أعيش معها حبا حقيقيا. لكن ماري كلير، هل كانت حقا ماري كلير؟ وحبُها الحقيقي المسكين، هل يمكنه أن يُعادِلَ العاطفةَ الغابرةَ التي استنفدتني بينما تعبرُ هي بين الطاولات، بين كل طاولات كل مطاعم العالم، صوبي؟

ووحيدَين على الأرض، على هذه الأرض، هي وأنا، عاودَت سؤالي:

- ألستَ حضرتك...؟

- لا - قاطعتُها بعنف.

ومضيتُ.



t.me/qurssan

# 33. لكن كان يمكنَ أيضا أنْ...

واصلَت المجهولةُ تقدّمها. بدا لي جمالُ وجهها، مثل كلِ شيءٍ سريع الزوال وجميل، أبديا وهشا في نفس الآن، لا شفاءَ منه. من أجلِ من أتت؟ عمن تبحثُ الزُرقة التوّاقةُ لنظراتها؟ أدارَت وجهَها: وشيَ نصفُ مطرِ شعِرها الأسود، عند إخفائه، ببروفيلٍ لا يوصف. أعشاني وجهُها. ومثلما يتقدّمُ سخطُ تمردٍ صوبَ قلبِ مدينةٍ، كان يسيرُ صوبي، دون النظر إليّ، ذلك اللغزُ الذي أوقعني فيّ اليأس.

وسرعان ما تعرّفتُ عليها. كنتُ أعرفها. لم أكن أعرفها فحسب: كنت قد أحببتُها أكثرَ من أي امرأةٍ أخرى. وكانت هي قد أحبّتني أكثر من أي أحدٍ آخر. ثم كنتُ قد نسيتها إلى حدّ ألاّ أتعرّفَ عليها.

- - تعجبني حكايتُك - قال الناشرُ -، لكن ما أتفقُ فيه مع الدكتور دياث هو أن هذه القصة، في لحظةٍ مازالت فيها حربُ العصابات نشطةً في أمريكا اللاتينية، لن يتم تلقّيها من جانب النقد، بقدر ما تستحق، وربما تم إخراسها.



t.me/qurssan

رنّ لي صوتـهُ كأنـه يـأتي مـن قـاع هاويـةٍ ظـل الضجـرُ يُلقـي فيهـا السـنواتِ المُسـتهلكة، غـيرِ المجديـة، التـي لا فائـدة منهـا عـلى الإطـلاق.

كنـت قـد أحببتُهـا. وكانـت روعـةُ ذلـك الحـبِ، مثـل ترصيـع قـماشٍ ثمـين يحـلُّ محـلَّ عاديّـةِ نسـيج قلّـل الاسـتخدامُ مـن شـأنه، قـد اسـتبدَلَت ابتـذالَ حيـاتي بوميـضٍ لا يفنـى. واصلَـت مـاري كلـير تقدّمهـا. كانـت كلهـا تتألـق: وجهُهـا، عيناهـا، شـعرها، جانـبُ مؤخرتهـا، خطـوطُ سـاقيها، عنـادُ نهديهـا الطليقـين، طيّـاتُ الفسـتان التـي يعضُّهـا فخذاهـا، وهـي تسـير! شـعرتُ بحريـقٍ غابـر. مـن بـين ممـر الطـاولات، رأيتهـا رائعـةَ الجـمال، مخلِصـةً، منافقـةً، لا بديـلَ عنهـا. أحببتُهـا حبـا خالـدا.

اكتشـفها النـاشرُ فذابـت طبقـاتُ الملـل التـي تكسـو وجهَـه في وجـهٍ رقيـق، مجهـولٍ، طفـولي. نهـض مبتسـما. جاوبَتـه مـاري كلـير بابتسـامة وتقدّمَـت صـوب طاولتنـا. نهـض البقـرةُ المقدسـة بـدوره.

- لا أظـن أنـك تعـرف مدموازيـل سـان چان، ملحقتنـا الصحفيـة - قـال الناشر.

تعرّفَـتُ عـليّ مـاري كلـير مرتبكـةً. تناثـرَت في زرقـة عينيهـا شراراتٌ مـن ذهـب ثـم شراراتٌ مـن ألم. الإنسـانُ هـل هـو اسـتعارةٌ يكسـوها اللحـمُ مؤقتـا أم لحـمٌ يتغـذي عـلى الاسـتعارات؟

- سـانتياجو، أخـيرا أراكَ مـرة أخـرى - همسَـت - : لـو عرفـتَ كـم بحثـتُ عنـك!

نظر إليها الناشر مرتبكا. وحاول البقرةُ المقدسة، عصبيا، الابتسام.

- حضرتكِ تخطئينني - حدّدتُ بقسوة -. أنا لا أُدعى سانتياجو.

كنـتُ قـد عانيـتُ الكثـير بسـببها! لا الآلامَ فحسـب، بـل التعاسـاتِ، وجـروح الهجـران التـي بـلا نـدوب. بسـببها تخلّيـتُ عـن كـوني مـن كُنتُـه،



t.me/qurssan

فررتُ من حياتي الحقيقية، خُنتُ أفضلَ ما في كياني. هل يمكنني أن أغفر لها؟

- ربما أخطئ - همسَت ماري كلير -، حضرتك تشبه جدا شخصا عرفتُه إسمه سانتياجو. وكان حتى من بلدك.

- أنا أيضا كان لي صديقٌ اسمه سانتياجو. أراد أن ينتحر في باريس بسبب امرأة.

كانت كلها تتألق! وتمرّدَت فيّ الرغبة، الرغبات، حشدُ رغباتي، اجتاحني عطشُ أن أعتصرها، أن أقبلها، أن ألعقها، أن أربّتها، أن أحلمها، أن أؤذيها، أن أتحسسها، أن أعاودَ حبها...

- وماذا جرى مع صديقك؟

أحببتُها حبا خالدا. كرهتُها كرها خالدا.

- لم ينتحر. فلحظة أن همّ بالقفز من فوق أحد جسور السين، أدركَ أن الذهابَ للنضال من أجل بلده والموتِ من أجله أفضلُ من الموت من أجل امرأةٍ خانته.

- وحضرتك تعتقدُ أن الثورات لا تخون؟ - سأل الناشر.

- الثوريون، ربما. الثورات مطلقا.

- والحبُ ألا يخون؟ - سألت ماري كلير.

نظرتُ إلى زهور عبادِ شمسٍ قريبة، بعيدة، دانية، غائبة. قدرُ زهور عباد الشمس أن تدورَ حول الشمس. وقدرُ البشر أن يلفُوا حول الحب. وآهٍ لعباد الشمس أو للإنسان المخبولين اللذين يُصرّان على الدوران ضد شمسهما! زهرتي عباد شمس عمياوين تعستين تدوران وتدوران حول العدم، حول اللا- وجود!

- الحب لا يخونُ أبدا؛ بعضُ النساء، نعم.



t.me/qurssan

- لا تتمُ خيانةُ إلاّ من يستحقون الخيانة - قرّر البقرة المقدسة.

- سانتياجو! - كررَت ماري كلير.

وكانت ابتسامتها بحيرةً مياهٍ حزينة تَباعدَ فيها، سابحين على طاولاتهم، الأربعمائة زبون، والميترات الإثنى عشر، ومسيو لافون، والجرسونات، والناشر، والبقرة المقدسة، جميعا. جميعا فيما عداها.

- سانتياجو، أنا ماري كلير!

نظرتُ بحنقٍ إلى جمالها الذي لا شفاء منه.

- حضرتكِ ماري كلير بلا شك. لكنني لستُ سانتياجو ذاك.

نهضتُ. ومضيتُ.

ليما، سبتمبر 1981، أبريل 1982



t.me/qurssan

# هوامش

1. Le Pays De l"Eternel Sourir: اسم مطعم يعني: بلد الابتسامة الدائمة.
2. Le Grand Rève. السبات الطويل. فيلم همفري بوجارت ولورين باكال
3. *Omelette Norvégienne* أومليت نرويجي، والميرينج هو صفار البيض المضروب بالسكر.
4. مرحبا في باريس.

5. *Melon Pineau Rosé,Cote de Boeuf à l"Os grillée, pommes mignonettes, Gevrey Chambertin, Crepe Flambées.*

شمام ببراندي بينو الوردي؟، ضلوع بقرية مشوية بالعظم، بطاطس، نبيذ جيفري شامبرتان، فطائر الكريب بالخمر على اللهب.

6. أنا شديد الأسف حقا، يامدام.
7. يا صغيري.
8. كوب مثلج، من ثمرة كمثري في شراب، وثلج، وفانيليا، مكسو بالشوكولاتة الساخنة.
9. تعني القضيب، أو العضو الذكري.
10. جمع ميتر: تقال لرئيس الجرسونات.



t.me/qurssan

11. النصف قمر.

*12*. الساحرات.

13. pousse café.

قدح صغير من مشروب كحولي قوي يتناوله المرء بعد القهوة في ختام الوجبة.

14. دار الدببة.

15. جاك مونوه (1910 - 1976): عالم كيمياء حيوية فرنسي فاز بجائزة نوبل عام 1965 مع عالمين آخرين لاكتشافهم جزيئا يلعب دورا أساسيا في نقل المعلومات الجينية بين النواة وبين السيتوبلازم. كتب عملا فلسفيا هو : الصدفة والضرورة، مقال حول الفلسفة الطبيعية للبيولوجيا الحديثة (1971).

16. hareng baltique سمك الرنجة من بحر البلطيق..

17. نوع ثمين من الفطر يُعدُّ على الرماد.

18. خازن الخمور. الجرسون المسئول عن الخمور.

19. إشارة إلى وزارة الخارجية الفرنسية التي تقع في ذلك المكان.

20. الجواكامايو: طائر أمريكي جنوبي شبيه بالببغاء، منقاره أبيض وأسود، وريشه زاهي الألوان، بذيل طويل أحمر وأزرق. يسمىّ أحيانا طائر الماكاو.

21. الكاتشازا: مشروب روحي يُصنع بتخمير المولاس الناتج عن صناعة سكر القصب.

22. اليوكا: أو المنيهوت كاسّافا باللاتينية. نبتة من فصيلة الزنبقيات من أمريكا الوسطى ذات جذر ريزومي يصنع منه دقيق مغذ. تعدّ طعاما رئيسيا لسكان أمريكا.



t.me/qurssan

23. الكاميتو: شجرة برية تبلغ ستة أمتار بأوراق بيضاوية وأزهار صغيرة بيضاء ولحاء محمرّ وخشب طري. ثمرتها بحجم البرتقالة وتامة الاستدارة بقشرة لامعة. قلب الثمرة سكّري، منعش، بلون أبيض أو وردي.

24. كومبادري: من أكثر ألفاظ المخاطبة شيوعا. قد تعني: ابن عم؛ أو قريب؛ أو بلديات، من نفس البلد؛ أو زميل؛ أو أخ بالعماد، أو ابن عم بالعماد، إلخ. سنجدها في النص بصيغ عديدة حسب المناسبة.

25. پدرو إنفانتي:(1917ـ1957): أشهر ممثل ومطرب في العهد الذهبي للسينما المكسيكية ومعبود الجمهور اللاتيني.شكل مع خوخي نيجريتي وخابيير سوليس ثلاثي الديوك المكسيكية الثلاث. بدأ العمل في السينما عام1939 وظهر في 60 فيلما، وسجل بدءاً من 1943 نحو 360 أغنية. فاز بالدب الفضي لأفضل ممثل في مهرجان برلين الدولي السابع.

26. أتشيوتى: الإسم الناهواتل لشجيرة البيخا التي يستخرج من ثمارها عجينة قرمزية للتلوين. يطلق عليها أيضا اسم أكوتى.

27. الماساتو: شراب يُعدّ من الذرة أو الأرز، مع الماء والسكر، وتضاف إليه أحيانا نكهة عصير فواكه معينة. تصنعه وتستهلكه قبائل الهنود البدائية في أمريكا الوسطى والإكوادور والبيرو. قد يعني أيضا مشروبا مخمّرا من الموز؛ أو حلوى من جوز الهند، والذرة، والسكر.

28. متأسبنون: أي اندمجوا في ثقافة الفاتحين الإسبان.

29. ميدان السلاح"پلاثا دى آرماس": يعادل في كثير من بلدان أمريكا اللاتينية الميدان الكبير "پلاثا مايور" في إسبانيا، وكلاهما يشير إلى الميدان الرئيسي.


t.me/qurssan

30. في واحد من الانقلابات العسكرية التي تميزت بها سياسة البيرو في القرن العشرين، قام الجنرال مانويل أودريّا، على رأس طغمة عسكرية، عام 1948، بعزل الرئيس المنتخب بوستامنتى ريبيرو، الذي تؤيده الجبهة الديموقراطية، وتولي الحكم حتى عام 1956.

31 :rocola=roconola .

صندوق الموسيقى، آلة توضع في المقاهي والبارات ويتم تشغيل ما يختاره الزبون من الموسيقى بوضع قطع عملة فيها.

32. lagartos .

تعني السحالي. لكنها تستخدم في أمريكا بمعني التمساح الأمريكي. ويتضح هذا من السياق.

33. التابير: حيوان ثديي إستوائي أمريكي، يشبه الخنزير البري لكن سيقانه طويلة، ورأسه كبيرة، وخطمه صغير. جلده مغطّى بشعر قصير ورقبته تكاد تكون غير موجودة. يحيا في الغابات شبه الاستوائية بأمريكا الجنوبية. يجيد السباحة ويتغذى على النباتات.

34. Guy de la Brosse, Facon, Buffon, Cuvier, Geoffroy Saint-Hillaire, Lamarck, Brugnias, Jussieu, Havy, Gay-Lussac.

35. الإخوة ماركس: ممثلون هزليون أمريكيون من أصل ألماني.هم: ليوناردو الشهير بـ تشيكو؛ (1891ـ1961)؛ وآرثر ـ هاربو(1893ـ1964)؛ وجوليوس ـ جروشو (1895ـ1977). بدأوا في الميوزيك هول وتقديم نمر المهرجين الموسيقيين مع ثلاثة آخرين من إخوتهم. ثم ألفوا أفلامهم التي تنقل أعمالهم المسرحية إلى الشاشة، وأدخلوا فيها العبث والاستخدام الساخر للغة والنقد العدمي.

36. نافخ البوق: إسم لطائر أقرب للعصفور الدوري، حسن الغناء.



t.me/qurssan

37. الجرينجـو واليانـكي: تطلقـان عـلى الأمريـكي الشـمالي. وقـد تحمـلان نغمـة احتقـار أو عـداء بسـبب جرائـم الولايـات المتحـدة في أمريـكا اللاتينيـة.

38. الرونسـوكو: أكـبر قـوارض الكـرة الأرضيـة. يعنـي اسـمه "خنزيـر الماء"، لكنـه لا يشـبه الخنزيـر في شيء، بـل يشـبه الأرنـب أو الفـأر، رغـم أن وزنـه قـد يبلـغ 65 كيلوجرامـا. لـه شـعر خنزيـر بـري وبـين أصابعـه أغشـية تسـاعده عـلى السـباحة لأنـه برمـائي في الأسـاس. يتغـذي عـلى العشـب ويعيـش في جماعـات مغلقـة شـديدة التنظيـم والـذكاء.

39. المـدرّع: أرماديّـو أو تاتـو: حيـوان ثديـي أمريـكي ليـس لـه أسـنان ويكسـوه درع مـن الصفائـح العظميـة الصغـيرة. يسـتطيع أن ينكمـش فيـه عـلى هيئـة كـرة إذا هوجـم أو خـشي الأذى.

40. حيوان ثديي أمريكي صغير نتن الرائحة.

41. أسـماك شـبيهة بسـمك البلطـي لكـن لحمهـا لذيـذ ومرغـوب وتصـل إلى أحجـام أكـبر بكثـير.

42: zungaros . سمك يشبه قشر البياض.

43. مدينـة وعاصمـة إقليـم خاوخـا الواقعـة في وادي مانتـارو الخصـب. تقـع عـلى ارتفـاع 3400 مـتر فـوق سـطح البحـر وعـلى مسـافة 45 كيلومـترا مـن مدينـة هوانكايـو، عاصمـة إقليـم خونـين. كانـت، قبـل ليـما، عاصمـة البـيرو الإسـبانية، وكانـت تعنـي في الخيـال الشـعبي أرض اللـبن والعسـل.

44. Jergones : أشـد الأفاعـي رعبـا في غابـات أمريـكا الاسـتوائية.قد تبلـغ متريـن

45. nacanacas: أفاعي سامة قاتلة.

46. أشـوكا أو أشـوك ماوريـا أو أشـوكا الأعظـم: أحـد أعظـم أباطـرة الهنـد (232ـ304 ق.م) وحّـد وحكـم معظـم شـبه القـارة الهنديـة بـين 269



t.me/qurssan

و 232 ق. م. اعتنـق البوذيـة وسـعى لنشرهـا عـبر آسـيا. بعـد حـروب داميـة، أصبـح داعيـة للاعنـف، والحـب، والصـدق، والتسـامح، ونباتيـا.

47. cholo: تقـال للمهجّـن مـن أوروبي وهنديـة؛ كـما تقـال للهنـدي المتمـدّن؛ ولمـا كانـت غالبيـة الشـعوب الأمريكيـة مهجّنـة فإنهـا تطلـق عـلى الشـخص العـادي.

48. flics : الاسم الشائع للشرطة الفرنسية.

49. franchutes : عامية للتعبير عن الفرنسيين.

50. ماركـوس پيريـث خيمينيـث: عسـكري فنزويـلي. شـارك عـام 1945 في انقـلاب عسـكري جـاء باليسـاري رومولـو بيتانكـور، زعيـم حـزب العمـل الديموقراطـي، إلى رئاسـة حكومـة ثوريـة. لكنـه، بعـد انتخابات 1947 التـي أتـت برومولـو جاييجـوس، الكاتـب الشـهير، إلى الرئاسـة، قـاد مـع لفتنانـت كولونيـل كارلـوس دلجـادو شـالبو انقلابا عـام 1948 تزعـم فيـه شـالبو طغمـة عسـكرية وحظـر الأحـزاب السياسـية. دبّـر بيريـث خيمينيـث خطـف وقتـل كارلـوس دلجـادو، وألغـي انتخابـات 1952 وتـولي الرئاسـة ليصـدر دسـتورا يمنحـه سـلطات دكتاتوريـة. قمعـت حكومتـه المعارضـة بـلا رحمـة وطـاردت المعارضـين.

51. فرنانـدو دى سـيزلو:(1925ـ): فنـان تشـكيلي بـيرواني عالمـي شـهير. درس بأكاديميـة الفنـون التشـكيلية، ثـم سـافر إلى باريـس عـام 1948 للدراسـة وعـاد وقـد تبنـى التجريديـة. عمـل بجامعـات البـيرو والولايـات المتحـدة. منحتـه فرنسـا عـام 1981 وسـام الفنـون والآداب بدرجـة فـارس. عضـو الأكاديميـة البيروانيـة للغـة منـذ 19997.

52. پـيوراني: مـن پيـورا، وهـو إقليـم في أقـصى شـمال البـيرو تحمـل عاصمتـه نفـس الاسـم عـلى نهـر بنفـس الاسـم. تقـع عاصمـة الإقليـم في قلـب واحـة هامـة وجيـدة الـري، ينتـج الإقليـم القطـن للتصديـر،



t.me/qurssan

والفواكـه، والخـضروات، والأرز، وتزدهـر فيـه تربيـة الماشـية وصيـد الأسـماك، وانتـاج البـترول.

.53 APRA: aprista

أبرا : والصفـة أبريسـتا: التحالـف الشـعبي الثـوري الأمريـكي: حـزب قومـي ذو طابـع شـعبي ومناهـض للإمبرياليـة بأفـق يضـم كل أمريـكا. تشـكل في أواخـر العشرينـات مـن القـرن العشريـن وارتبـط بالنضـالات الفلاحيـة والعماليـة في البـيرو. وبعدهـا بقليـل، عـام 1928، أسـس مارياتيجـي الحـزب الشـيوعي البـيرواني.

.54 نسبة إلى القبّالة: وهـو علـم باطنـي يرتبـط بالتفسـير الصـوفي لرمـوز التـوراه وبالاتصـال بالكائنـات العلويـة.

.55 Polifemo : أشـهر كائنـات السـيكلوب في الميثولوجيـا الإغريقيـة. إبـن بوسـيدون و الحوريـة توسـا. يصـوَّر عـلى أنـه عمـلاق ملتـحٍ بعـين واحـدة في جبهتـه وأذنـين مدببتـين.

في أوديسـة هومـيروس، وصـل أوديسـيوس، بطـل حـرب طـروادة، إلى جزيرة السـيكلوب عـلى رأس فرقـة اسـتطلاع. ودخلـوا كهفـاً وجـدوا فيـه زادا أقامـوا بـه وليمـة دون أن يعلمـوا أنـه يخـص بوليفيمـو، الـذي سرعـان مـا أطبـق عليهـم وحبسـهم وأخـذ يأكلهـم واحـدا واحـدا. خدعـه أوديسـيوس ببرميـل خمـر قـوي ثـم فقـأوا عينـه حـين نـام. وأفلحـوا في الهـرب.

56 .yantar: فعـل الأكل. والتعيـين هـو الطعـام المقنـن للجنـود بالعاميـة المصريـة

: الدم القيم أو دم التنين.

.57 la sangre de grado : شـجرة تنبـت في الأمـازون الأعـلى، البـيرو، والإكـوادور، والبرازيـل، عـلى ارتفـاع مـا بـين 1200 و3000 مـتر، أوراقهـا



t.me/qurssan

لامعـة عـلى هيئـة قلـب، وزهورهـا بيضـاء مائلـة للخـضرة. عنـد جرحهـا بسـكين، تفـرز سـائلا لبنيـا أحمـر كالـدم، اسـتخدمه الطـب الشـعبي منـذ زمـن بعيـد في لأم الجـروح وعـلاج القرحـة المعديـة والمعويـة، والتـورم الروماتيزمـي، والنزيـف، وفي تطهـير الرحـم ومنـع الحمـل، عـلاوة عـلى فوائـده العديـدة التـي اكتشـفها الطـب مؤخـرا.

58. Cetico, Cecropia ficifolia, Cecropia: شـجرة تنبـت في حـوض الأمـازون بالبـيرو. تحـرق أوراقهـا إلى رمـاد يجمـع في كريـات تقـوم بـدور عنـصر قلـوي، وتضـاف إليهـا خلاصـة ورقـة كـوكا. كـما يسـتخدم خشـبها الطـري في صناعـة الـورق.

59. القـط ذو الحـذاء: حكايـة شـعبية أوروبيـة جمعهـا شـارل بـيروه عـام 1697 بعنـوان "السـيد القـط". تحـكي عـن قـط واسـع الحيلـة كان هـو كل نصيـب الشـاب بنجامـين مـن مـيراث أبيـه الطحـان الفقـير. لكـن القـط الداهيـة جعلـه يتـزوج إبنـة الملـك بـأن طلـب مـن بنجامـين حـذاءً وكيسـا اصطـاد بـه أرنبـا أهـداه إلى الملـك "هديـة مـن طـرف المركيـز دي كارابـاس". وتتابعـت هدايـا المركيـز إلى الملـك حتـى رتـب القـط تمثيليـة غـرق المركيـز أثنـاء مـرور الملـك وابنتـه بعربتهـما لينقـذاه. بعدهـا احتـال القـط عـلى غـول مخيـف يملـك أراضي واسـعة بـأن طلـب منـه أن يتحـول إلى فـأر والتهمـه عـلى الفـور وأعطـى أراضيـه لبنجامـين.

60. إبنـا أوديـب اللـذان قتـلا بعضهـما أمـام أسـوار طيبـة بعـد حصارهـا في "حـرب السـبعة ضـد طيبـة" التـي كتبهـا إيسـخيلوس، وسـجل فيهـا أول حـرب كـبرى بـين الإغريـق أنفسـهم.

61. إيليـون، أو إيليـوم باللاتينيـة، إسـم عتيـق لمدينـة طـروادة. ونسـبةً إليهـا يـأتي عنـوان الإليـاذة لهومـيروس.



t.me/qurssan

62. أنجورا: سلالة قطط تركية. وأنجورا هي الإسم الذي كان الإغريق والرومان يعرفون به مدينة أنقرة، عاصمة تركيا الحديثة، التي تقول الأساطير أن مؤسسها هو الملك ميداس.

63. أومليت أوز إيرب: أومليت بالأعشاب؛ بافيز: غير تام النضج من الداخل؛ كولان: سمك الفحم (بسبب لونه) وربما سمك من فصيلة القد؛ أنديف: هندباء،نوع من الأعشاب.

64. asserie : هي تقدم فيه بالأخص أنواع عديدة من البيرة.

65. محار بيلون: محار مسطح مستدير لحمه بني ولذيذ جدا؛ محار كلير: من حوض بحري قليل العمق؛ محار بريز: حار يحيا في رمال الشاطيء. سول مونيير: سمك موسي مقلي؛ جيفورتستراميز: نبيذ ألزاسي لذيذ زكي الرائحة، هنا ماركة الميدالية الذهبية.

66. ستري.

67. الپاپاراتزي: مصوّرو النجوم والمشاهير.

68. چوزفين بيكر(1906ـ1975): راقصة، وممثلة مسرح وسينما، ومغنية. فنانة كباريه، وڤودڤيل، وميوزيك هول، وپوپ، وجاز فرنسي. أمريكية سوداء بلغت أقصى مراتب شهرة أسطورية في فرنسا التي اختارتها وطنا. شاركت بقوة في حركة الحقوق المدنية الأمريكية وعُرِضت عليها رئاستها إثر اغتيال مارتن لوثر كينج، كما شاركت في المقاومة الفرنسية ضد النازي وكانت أول امرأة أمريكية المولد تحصل على وسام الحرب الفرنسي، وقلّدها الجنرال ديجول وسام فارس جوقة الشرف. أقنعت حتى الملك فاروق بالظهور في أحد عروضها. وفي عام 1966 دعاها فيديل كاسترو لإقامة عرض أسطوري في هافانا.

إبنة غير شرعية نشأت في البؤس لتصبح معبودة المؤلفين والفنانين من إرنست همينجواي، إلى لانجستون هيوز، إلى سكوت فيتزچيرالد،



t.me/qurssan

وبابلو بيكاسو، وكريستيان ديور. تزوجت يهوديا وتبنّت 12 يتيما من أعراق مختلفة أطلقت عليهم اسم "قبيلة قوس قزح".

69. الألعاب الزهرية للأدب: مسابقة للنثر والشعر في روما القديمة توازي الألعاب الأولمبية، لكنها مكرّسة للربة فلورا وتقام في الربيع. أعيد إحياؤها في أماكن كثيرة في العصر الحديث لتشجيع ونشر الأدب.

70. مثيرٌ جدا للاهتمام. بالفرنسية.

71. كونتامانينا: نسبة إلى حاضرة كونتامانا في إقليم لوريتو شمال شرقي البيرو. وكونتامانا هي عاصمة مقاطعة أوكايالي.

72. نسبة إلى إقليم أنكاش شمالي البيرو وعاصمته هواراث. يعني اسمه بلغة الكتشوا: الأزرق.

73. مرض الليشمانيا، على اسم مكتشفه البيولوجي البريطاني ليشمان: يسببه طفيل يصيب الخلايا المبطنة للأنسجة وللجلد خاصة.

74. دونيا فرنثيسكا ودون نيكولاس: السيدة فرنثيسكا والسيد نيكولاس. صيغة تفخيم.

75. فيليبي پينجلو آلبا:(1899ـ1936): شاعر بيرواني وكاتب أغان وموسيقي موهوب ومؤثر وغزير الانتاج. يعدّ رائد الموسيقى الكريولية البيروانية، ويرتبط اسمه في البيرو وعموم أمريكا اللاتينية بالفالس الكريولي البيرواني. نشأ في الفقر وكان عليل الصحة وأطلق عليه لقب البوهيمي.

76. الضفاف المرصوفة على نهر السين. الكى دورسيه مثلا حيث تقع وزارة الخارجية وتسمى باسمه.

77. من فضلكم، من فضلكم.



t.me/qurssan

78. الشاپاخا: نـوع مـن نخيـل الزيـت الأمـازوني. يسـمى أحيانـا نخيـل الأمـازون.

79. huito, Genipa americana: فصيلـة أشـجارتنمو في الغابـات المطـيرة في شـمالي أمريـكا الجنوبيـة حتـى البـيرو، وفي المكسـيك والكاريبـي. يعرفهـا هنـود الإنـكا باسـم "هـاوا" أو "ويتـوق". تـؤكل ثمرتهـا وتصنـع منهـا المـربى والمشروبـات والأيـس كريـم، كـما تسـتخدم في العـلاج. يدهـن الهنـود سـيقانهم بسـائل الثمـرة عنـد ذهابهـم إلى الحـرب، فتسـودّ ويظـل اللـون عـلى الجلـد نحـو اسـبوعين.

80. Fusil Automatique Leger: FAL: بندقيـة آليـة هجوميـة أنتجهـا مصنـع بلجيـكي عـام 1947 وتبنتهـا جيـوش العديـد مـن دول حلـف شـمال الأطلنطـي [الناتـو]. تعـد أوسـع البنـادق انتشـارا في التاريـخ حيـث اسـتخدمتها جيـوش 90 دولـة. خـلال الحـرب البـاردة أطلقـت عليهـا تسـمية "السـلاح الخفيـف للعـالم الحـر" في مقابـل الكلاشـنيكوف لـدي الكتلـة الشرقيـة.

81. پايـشى: القُدّ الأمـازوني: سـمك ميـاه عذبـة موطنـه البـيرو. شـهي وقـد يبلـغ طولـه المترين.

82. الـپيسـكو: براندي مـن العنـب يتـم انتاجـه في البـيرو وتشـيلى. طـوره المسـتوطنون الإسـبان كبديـل للمسـتورد مـن إسـبانيا. الإسـم مـن الكتشـوا بمعنـي الطائـر الصغير. وهـو اسـم مدينـة سـاحلية وإقليمهـا في البـيرو.

83. تشـيكو بـواركي: فرنسيسـكو بـواركى دى هولنـدا(1944): برازيـلي شـهير. مغنـي وشـاعر وملحـن وعـازف جيتـار وروائي ومؤلـف مـسرح. ولـد في ريـو دى جانـيرو إبنـا لمـؤرخ، وسوسـيولوجي، وصحفـي شـهير؛ ورسـامة وعازفـة بيانـو. تأثـر بالموجـة الجديـدة في الموسـيقى البرازيليـة. عـارض حكـم العسـكر، وعـاش في إيطاليـا 18 شـهرا لهـذا


t.me/qurssan

السبب. شارك في نضالات القارة وحصل على جوائز عديدة. له عشرات الاسطوانات، و8 كتب، و5 مسرحيات، و4 أفلام.

84. بيتر بروجل الأكبر(1525/1530ـ1569): الشخصية الكبرى للرسم الفلمنكي في القرن السادس عشر والمرتبطة بعمق بتقاليده، وصاحب التأثير الأكبر على الرسامين الهولنديين. زار إيطاليا(1552) لكنه عاد ليرسم مناظر فلاحية ذات ميل تهكمي وأخلاقي وألليجوري وتصور الأمثال الشعبية. تأثر بقوة بهيرونيموس بوش وامتلأت لوحاته الأولى بمخلوقات بشعة ومهجنة. لكنه تميز بحس لوني خاص وابتكار ثري للتفاصيل. تتناقض في لوحاته المناظر الطبيعية الشاسعة والهادئة مع الطابع التراجيدي، الساخر أو التهكمي، للنشاط والمصير الإنساني. امتزجت مهارته التقنية بهموم إنسانية النزعة وبحس بالإخراج والإيماءة والتعبير المحاكاتي.

85. مشدات الصدر أو القمصان المحبوكة التي ترتديها النساء وتكون من قماش رقيق أو من الصوف.

86. كارلوس أوكِندو دى أمات(1905ـ1936): شخصية أسطوري ودرامية للأدب البيرواني. رغم البؤس الذي عاش فيه، يعدّه الكثيرون أعظم شعراء البيرو عبر تاريخها. أهم من أدخل مذهب الطليعة إلى البيرو وأحد روادها الكبار في القارة اللاتينية. يعتبر، مع مواطنيه ثيسار باييخو، ومارتين آدان، وثيسار مورو، أشد دعاة الطليعة خصوبة في البيرو.

نشر ديوانا وحيدا (1929) بعنوان: 5 أمتار من القصائد، كان عبارة عن ورقة طولها خمسة أمتار مطوية كالمروحة وتتتابع فيها القصائد التي كتبها بطريقة القصائد المرسومة. تعاون مع خوسيه كارلوس مارياتيجي، أحد أهم مثقفي البلاد وأول من أدخل فيها الماركسية.



t.me/qurssan

ذهـب إلى بوليفيـا، وكوسـتاريكا، والمكسـيك في طريقـه إلى المنفـى، في فرنسـا أولا ثـم في إسـبانيا، حيـث مـات بالسـل قبـل الحـرب الأهليـة بشـهور.

87. luciernagas: الحباحـب: سراج الليـل: ديـدان الوهـج: حـشرات تعيـش في المناطـق الرطبـة أو بجـوار الميـاة حيـث تسـتطيع اليرقـات أن تجـد الغـذاء. تتطـور الذكـور بينـما تظـل الإنـاث أقـرب إلى اليرقـة. تبعـث وهجـا في الليـل.

88. چان پول في النـص، لكننـي أظنـه خطـأ مطبعيـا لم يتكـرر خـارج هـذا المقطـع. وأظنـه يقصـد الميـتر چان پيـير الـذي رسـم شـخصيته بوضـوح عـلى طـول النـص. هـذا مـا لم يكـن يقصـد شـخصا لا أسـتطيع تخمينـه.

89. أليس كذلك، بالفرنسية.

90. يا صديقي. بالفرنسية.



t.me/qurssan

# نبذة عن المترجم

أحمد حسان (الجنتل) مواليد 1945، عمل بالصحافة والترجمة من السبعينات، أثرى المكتبة العربية بالكثير من الترجمات من الإنجليزية والإسبانية والفرنسية.. اهتم بترجمة الفلسفة وخاصة مدارس المواقفية والأناركية، وأدب أمريكا اللاتينية.

**من ترجماته:**

دون كيخوته - مجتمع الاستعراض - الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية - موت أرتيميو كروث - تعويذة - مقدمة فى نظرية الأدب - الوضع ما بعد الحداثي: تقرير عن المعرفة - مرحباً في صحراء الواقع - شارع ذو اتجاه واحد - كراهية الديموقراطية - سحر شنغهاي - صناعة الجوع: خرافة الندرة - كأنما لا يحدث شيء في تشيلي [أبيات بارا لتضليل الشعر] - قصائد مضادة - شارل بودلير: شاعر غنائى فى حقبة الرأسمالية العليا - راية التمرد: الأممية المواقفية فى العصر ما بعد الحداثى - بعبارة أخرى: محاولات باتجاه سوسيولوجيا إنعكاسية - الحصان الشارد - الأناركية والثورة والإنسان – محاورات دولوز – ألفباء دولوز



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# القضية أم الذات؟

«وشككتُ أن الإنسان ذاته هو استعارةٌ يكسوها اللحم مؤقتاً. هل الإنسان لحمٌ يكسو استعارةً، أم استعارةٌ تُغلِّفُ اللحم؟ فيما وراء الرياضيات الشائعة، خارج متناولنا الغبي في الوقت الحاضر، هل تفسّر رياضياتٌ ساميةٌ بوضوحٍ الخفايا الوضاءة للرغبة، للغيرة، للذكرى، للخداع، للنسيان، للتلاعب، لتعويض الخسائر، لتنازلات وانتقامات الحب والكره، تلك الأحاجي التي تعذّبنا؟ في النسق الكبير للكون، بالنسبة 'للرياضيّ الأعظم' الذي يتسلّى بجعلنا نعتقد أننا أكثر من مجرّد تبديات، مجرد رموزٍ محكومٍ عليها بأن تُطيع لا محالة اتجاه حلزونها، هل تجدُ مشاعرُنا التعبيرَ عنها في معادلاتٍ بسيطة بصورة باهرة؟ ويأَلَمٍ، بحب، برغبة تساءلتُ ماذا يمكنُ أن تكون المعادلةُ القادرة على أن تفتح لي طريقاً صوب حب تلك المرأة.»

الغـــلاف: ندى هشام

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

t.me/qurssan